اتجاهات الهجاء في مصر والشّام
زمن الحروب الصليبية

الدكتور
مفلح الحويطات







اتجاهات الهجاء في مصر والشام
زمن الحروب الصليبية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

811.04

(2014/9/4164)

الحويطات، مفلح ضبعان

إتجاهات الهجاء في مصر والشام زمن الحروب الصليبية/مفلح ضبعان الحويطات

عمان: دار المعتز ٢٠١٤

الواصفات :/شعر الهجاء//الشعر العربي//الأدب العربي//الحروب الصليبية/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية.

الطبعة الأولى

٢٠١٥م — ١٤٣٦هـ

دار المعتز للنشر والتوزيع

الأردن- عمان- شارع الملكة رانيا العبدالله- الجامعة الأردنية

عمارة رقم ٢٣٣ مقابل كلية الزراعة الطابق الأرضي

تلفاكس: ٠٠٩٦٢٦٥٣٧٣٠٣٥ خلوي: ٠٠٩٦٢٧٩٩٩٠٠٠٣٥

e-mail: daralmuotaz.pup@gmail.com

اتجاهات الهجاء في مصر والشام
زمن الحروب الصليبية

الدكتور
مفلح الحويطات

الطبعة الأولى
٢٠١٥م — ١٤٣٦هـ
دار المعتز للنشر والتوزيع



الفهرس

الفصل الرّابع
التشكيل الفنيّ

المقدمة

يعدّ شعر الهجاء من الموضوعات الرئيسة في ديوان الشّعر العربيّ، وقد حظي هذا الموضوع في العصور التي سبقت عصر الحروب الصّليبيّة بعدد من الدّراسات المتخصصة، كدراستي محمد محمد حسين: "الهجاء والهجّاءون في الجاهليّة"، و"الهجاء والهجّاءون في صدر الإسلام"، ودراسة قحطان التميميّ: "اتّجاهات الهجاء في القرن الثّالث الهجريّ"، بالإضافة إلى بعض الدّراسات التي تناولته في الأدب الأندلسي، كدراسة فوزي عيسى: "الهجاء في الأدب الأندلسي". ودراسة نافع عبدالله: "الهجاء في الشّعر الأندلسيّ"، وغير ذلك.

وعلى كثرة شعر الهجاء وغزارته زمن الحروب الصليبيّة، فإنه لم يظفر – في حدود علمي – بدراسة متخصّصة وافية، باستثناء بعض الدّراسات المتفرّقة التي تناولت أطرافاً متشتّتة من هذا الموضوع في إطار حديثها عن قضايا الأدب في هذه الفترة، وذلك كما يبدو – مثلاً – في دراسة عمر موسى باشا: "الأدب في بلاد الشّام: عصور الزّنكيين والأيوبيين والمماليك"، ودراستي محمد زغلول سلام: "الأدب في العصر الأيوبي"، و"الأدب في العصر المملوكي"، وغير ذلك . وهي دراسات – كما يبدو من عناوينها – عامّة، هدفت إلى التأريخ للأدب بشعره ونثره على طول هذه الفترة.

ولعلّ دراسة شفيق الرّقب الموسومة بـ: "شعر الهجاء في بلاد الشّام زمن الحروب الصّليبية" هي الدّراسة الأكثر تخصيصاً في تناول هذا الموضوع، وهي دراسة موجزة، لم تقصد استقصاء هذه الظاهرة، وتفصيل القول فيها، إذ نشرت في إحدى الدوريات المحكّمة(*) التي لا تحتمل صفحاتها مثل هذا الاستقصاء والتشعيب، فضلاً عن أنّها اقتصرت في عرضها للموضوع على جانبين منه هما: الهجاء الشخصي، والنقد الاجتماعي، أمّا الهجاء السياسيّ فلم تعرض له. ومع هذا، فقد كانت هذه الدّراسة – على إيجازها – ذات أثر في توجّه هذا البحث، وهي تُعدّ نواة صالحة لإقامة دراسة أكثر شمولاً واستيعاباً لأصل الموضوع، وهو ما حاولت أن أنهض به في هذا البحث المتواضع،

(*) مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع 55، السنة 22، 1998م: 107–168.

ولكي يتمّ لي شيءٌ من ذلك، فقد ارتأيت – فضلاً عن تناول الموضوع بقدر من التفصيل والشّمول – إضافة الهجاء السياسي إلى موضوع الدراسة، باعتبار أنّ عنوان البحث يقتضي استيفاء كلّ عناصره، ثم دراسة هذا الموضوع في شعر مصر والشّام معاً، نظراً لما بين القطرين – على طول فترة الحروب الصليبية – من وشائج وصلات، نتج عنهما تشابه بيّن في كثير من الظّروف والأحوال.

وبعد أن تحدّد لهذه الدِّراسة إطارها المكانيّ، فلا بدّ من الإشارة إلى إطارها الزمنيّ الذي حدّد بفترة الحروب الصليبيّة، وهي فترة تستغرق زهاء قرنين من الزّمن، هما القرنان السادس والسّابع الهجريّان، وقد شهدت البلاد خلالهما غير عصر سياسيّ؛ ففي بدايات الغزو الصّليبيّ، كانت أغلب أجزاء بلاد الشّام خاضعة لحكم السّلاجقة، ثم آلت إلى حكم الأتابكيين(الزنكيين). أمّا مصر، فكانت – في بدايات هذا الغزو – تحت حكم الدّولة الفاطميّة التي كانت تعاني في أواخر عهدها من الضّعف والاضطراب، ثم كان العهد الأيوبيّ الذي وحّدت فيه مصر والشّام في ظل دولة واحدة، على الرّغم مما شهدته البلاد في هذا العهد بعد وفاة صلاح الدين الأيوبيّ سنة 589هـ من تشتّت ونزاع.

وصولاً إلى البدايات الأولى من حكم المماليك الذين طويت على أيدي سلاطينهم الكبار آخر صفحات الحروب الصليبيّة من هذه المنطقة. وعلى ما يبدو من تباين ظاهريّ بين هذه العصور السّياسيّة، فإنها – مع ذلك – ذات خصوصيّة واضحة في الأدب العربي الذي لا يمكن ربطه – كما لاحظ غيري من الدّارسين – بصورة آليّة بالتاريخ السياسيّ، فثمة عناصر كثيرة تجمع بينها، منها – مثلاً – تشابه الأحداث والوقائع، وتوحّد الآمال والمصائر – بحكم ما تعرّضت له البلاد من أخطار هدّدت الهويّة والعقيدة – طوال قرنين من الزّمن.

وقد تعدّدت مصادر هذه الدِّراسة، فكانت الدّواوين الشّعرية هي المعوّل الأساس لها، ومن هذه الدواوين التي أفدتُ منها في استقصاء المادّة الشعريّة: ديوان ابن عُنَيْن الأنصاريّ (ت630هـ)، وديوان عرقلة الكلبي(ت567هـ)، وديوان شرف الدّين

الأنصاريّ (ت662هـ)، وديوان البهاء زهير (ت656هـ)، والمختار من شعر ابن دانيال (ت710هـ)، وغير ذلك.

ومن هذه المصادر أيضاً كتب التراجم والاختيارات، ومنها مثلاً: "خريدة القصر وجريدة العصر" للعماد الأصفهاني(ت597هـ)، وقد تضمّنت هذه المجموعة مادّة شعريّة لشعراء مغمورين كثر، لم تألف أسماعنا أسماءَ أغلبهم، ومنها: "فوات الوافيات" للكتبيّ (ت764هـ). وقد تضمّن هذا المصدر شعراً وافراً لعدد كبير من شعراء هذه المرحلة. إضافة إلى مصادر أخرى لا يتّسع المقام لسردها هنا، وسيجدها القارئ مثبتة في ثنايا هذه الدِّراسة.

واشتملت الدِّراسة على مدخل وأربعة فصول، تناولت في المدخل جوانب ذات ارتباط بموضوع الهجاء تحديداً؛ فقدّمت إيجازاً للمراحل التي مرّ بها الصِّراع الإسلاميّ الصليبيّ طوال هذه الفترة، باعتبار هذا الحدث هو أبرز وأخطر ما استجدّ فيها من أحداث. إضافة إلى تناول بعض الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة القاسية التي تركت آثاراً سلبيّة على الناس آنذاك . ومع أنّي لا أردُّ كل ما قيل من شعر هجائيّ إلى هذه العوامل والظّروف، إذ كان قسم لا بأس به من هذا الهجاء وليد تجارب شخصيّة محضة، وصدى لانفعالات ذاتيّة لم تجاوز ذات الشاعر، إلا أنّه لا يمكن – مع ذلك- إغفال أثر العوامل السّابقة في نشأة هذا الشعر؛ فالهجاء من أكثر الموضوعات ارتباطاً بالواقع والظّرف التاريخيّ للمرحلة التي قيل فيها، فكان أن رافق هذا الغزوَ الصّليبيَّ شعرٌ يقاوم المحتل، ويغضُّ من شأنه وقدره، وكان أيضاً أنْ هيّأت الأحوال الاجتماعيّة والاقتصاديّة الصّعبة، مجال القول أمام الشّعراء الذين انطلقت ألسنتهم في نقد الواقع، والشكوى من مرارة الأحوال وسوئها، وحتى في مجال الهجاء الشخصيّ المنطلق في أغلبه من تجربة فرديّة ضيّقة، فالمتأمِّل لمسبباته ودواعيه، يجد أنّ للواقع أثراً فيه؛ فكثير من هذا الهجاء هو وليد الفقر والعوز والحرمان وغير ذلك.

واقتضت مضامين هذا الشّعر تقسيمه في اتّجاهات ثلاثة: شخصيّ، واجتماعيّ، وسياسيّ، ومع أنّ هذا التقسيم قد لا يكون دقيقاً في بعض الأحيان، باعتبار أنّ الجانب

الشخصيّ قد يبدو ظاهراً في الجانبين الآخرين (وهو أمر من غير الممكن ضبطه على نحو صارم؛ فذات الشّاعر في المحصّلة ليست محايدة تجاه موضوعها). غير أنّ هذا التقسيم – مع ذلك – قد قام على حدود تقريبية، وكان للمناسبة دور في هذا التحديد، فضلاً عن أنّ مثل هذا التقسيم هو من الضّرورات الإجرائيّة لأي دراسة منهجيّة.

وبذلك فقد تناول الفصل الأوّل الهجاء الشخصيّ الذي اشتمل على هجاء الأفراد، وهجاء الأهل والأقارب؛ إذ وجد من الشّعراء من تعرّض لأقاربه بالقدح والذّم، والتّهاجي بين الشّعراء الذي اتّخذ – في أغلبه – شكل مقطوعات قصيرة لم تكتمل بشكل يؤهّلها لأن تشبه (فنّ النقائض) في العصر الأمويّ. وأخيراً فقد تضمّن هذا الفصل، ما يمكن أن يطلق عليه اسم (شواذّ الأهاجي)، وهو ما خرج عن الصّور السابقة، كتعرُّض بعض الشّعراء لهجاء دوابّهم، وأدواتهم المنزليّة، وغير ذلك.

وكان موضوع الفصل الثاني هو الهجاء الاجتماعيّ، فَفُصِّل القول في مضامينه التي تمثّلت في نقد الشّعراء لأعيان الدولة ومستخدميها من ولاة ووزراء وقضاة وغيرهم، وكشفهم عن جوانب من تجاوزاتهم وتعدّياتهم المختلفة. وهجاء الشّعراء لأرباب المهن. وإبراز ما كان يحتدم في السّاحة من نزعات مذهبية وطائفيّة، إلى جانب تعرُّض بعض الشّعراء للمدن والمرافق العامّة، وتصوير مظاهر من الحياة الاجتماعيّة، كالشكوى والمعاناة وانتشار بعض الموبقات.

وخُصِّص الفصل الثالث للحديث عن الهجاء السياسيّ، وذلك ضمن محورين رئيسين:

الأوّل: تناولَ موقفَ الشّعراء(من زاوية شعر الهجاء) من بعض الأحداث الداخليّة التي شهدتها مصر والشّام في هذه المرحلة، كانشقاقات أمراء الشّام، ومحاولاتهم الرّامية إلى تقويض أواصر الوحدة في عهد كلّ من نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، وإبراز جوانب من خلافات بني أيوب فيما بينهم، وما تركته من آثار سلبيّة على الموقف الإسلاميّ المهدّد – في الوقت ذاته – بالأخطار الخارجيّة الدّاهمة.

وتناول هذا المحور أيضاً ما شهدته السّاحة المصريّة من صراعات سياسيّة متكرّرة في أواخر عهد الدّولة الفاطميّة. والثاني: تناول موقف الشّعراء من الصّراع الخارجيّ، المتمثّل تحديداً في الغزو الصّليبيّ الذي تعرّض له المشرق الإسلاميّ في القرنين السادس والسابع الهجريّين.

أما الفصل الرّابع، فجاء لمناقشة الخصائص الفنيّة التي تميّز بها هذا الشّعر، فتناول شكل القصيدة الهجائيّة، ووقف عند لغة هذا الشّعر وأسلوبه، وبحث في بناء صوره وأشكالها.

وتجمع الدّراسة بين المنهج التاريخيّ الذي يقوم على ربط النّصّ بسياقه التاريخيّ والاجتماعيّ، والمنهج التحليليّ النقديّ الذي يقوم على تحليل النّصّ واستنطاقه استنطاقاً داخليّاً لاستخلاص الأحكام الفنيّة منه.

وبعد؛ فآمل أن أكون وفقت في دراسة هذا الموضوع، فقد حاولت جاهداً أن أستقصي أطرافه، وألم أشتاته المتفرّقة، ما وسعني الجهد في ذلك.

والله ولي التوفيق

مفلح الحويطات

العقبة 2012/7/9



مدخل

عوامل ومؤثرات

للأدب ارتباط وثيق بالمتغيّرات السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة التي يمرُّ بها المجتمع، ولهذا المتغيّرات دور في استثارة اتّجاهات أدبيّة معيّنة، وقضايا دون غيرها؛ فتنشأ موضوعات مستجدّة، وتختفي موضوعات أخرى، تبعاً لظروف كلّ مرحلة وأحوالها، ومثل هذا التأثير ليس مقتصراً على مضمون الأدب، وإنّما هو ينسحب أيضاً على كيفيّة التّعبير وأنماطه التي تتشكل بتأثير من ذوق أهل العصر وطبيعة ثقافتهم. وشعر الهجاء – موضوع هذه الدّراسة – من أكثر الموضوعات ارتباطاً بالواقع وقضاياه، وقد كان لأحوال العصر المختلفة، أثرها في كثرة القول فيه، حتىّ بدا (هذا الشّعر) ظاهرة تسترعي النظر؛ ولعلّ أبرز ما يستوقف الدّارس من قضايا هذه الفترة، قضيّة الغزو الصّليبيّ الذي امتدّ زهاء قرنين من الزّمن شهدت خلاله المنطقة تغيّرات جسيمة، وتحوّلات عميقة، مسّت نواحي مختلفة ومتعدّدة من حياة النّاس. ولذا فإنّه يبدو من المناسب تقديم ملخّص عامّ لجريات هذا الصّراع، ومراحله المختلفة، لما لذلك من صلة مباشرة باتّجاهات الشّعر في هذه الفترة، وما تمخّض عن ذلك من موضوعات شعريّة مرتبطة بموضوع هذا البحث تحديداً.

1

كانت بلاد الشّام تعاني قبيل الغزو الصّليبيّ من الضّعف والانقسام بسبب تفرّق كلمة الحكّام المحليّين، واختلاف غاياتهم وتضاربها[1]. مما سهّل المهمّة أمام الصّليبيين الذين تمكّنوا في فترة قياسيّة من الاستيلاء على أجزاء واسعة من البلاد؛ فاستولوا في سنة 491هـ على أنطاكيا[2]، واستولوا في السنة ذاتها على معرّة النعمان[3]، وفي سنة 492هـ سقطت القدس في أيديهم بعد أن استباحوا أهلها، وقتلوا منهم أعداداً كبيرة[4]، ثمّ استولوا في سنة 503هـ على طرابلس[5]. وقد تخلّل هذا المدّ الصّليبيّ سقوط بعض المدن الهامّة في أيديهم، من مثل: قيسارية سنة 494هـ[6]، وعكا سنة 497هـ[7]، وصيدا سنة 504هـ[8]. وهكذا يلاحظ أنّ معظم مدن الشّام ومراكزه الحيويّة قد باتت في أيدي الصّليبيّين.

---

(1) ابن القلانسي، حمزة بن أسد التميمي(ت555هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، ط1، دار حسّان، دمشق،1983م: 198، 226؛ ابن الأثير، عزالدين أبو الحسن (ت630هـ)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1979م: 10/ 482.

(2) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: 220.

(3) المصدر السابق:221.

(4) ابن القلانسي، تاريخ دمشق:222؛ ابن الأثير، الكامل: 10/ 282.

(5) ابن الأثير، الكامل: 10/ 475 .

(6) المصدر السابق:10/ 325.

(7) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: 232؛ ابن الأثير، الكامل: 10/ 372 .

(8) ابن الأثير، الكامل: 10/ 479.

وأمّا مصر، فقد كانت في هذه الفترة تحت حكم الدّولة الفاطميّة التي بدأ الوهن يتسلّل إليها في أخريات أيّامها[1]، وكانت تجسّد كذلك في سياستها الرّامية إلى التّوسُّع، على حساب الخلافة العباسيّة، مظهراً من مظاهر الانقسام التي شهدها العالم الإسلاميّ في هذه المرحلة المضطربة من حياته[2].

وقد كان ميزان القوى حتى هذا المرحلة في صالح الصّليبيين، غير أنّ الأمر قد تعدّل بعض الشّيء بظهور عماد الدّين زنكي[3] الذي لم تثنه مواقف عدد من القادة المحلّيين الذين واجهوا جهوده بالرّفض والتنكُّر[4]، عن محاولة توحيد الجبهة الإسلاميّة؛ إذ استطاع أن يعمل على تقوية الموقف في الجزيرة الفراتيّة[5]، وأن يضمّ بعض المدن الشّاميّة إلى حوزته[6]، وقد رافق هذا المسعى شيء من التقدّم على صعيد المجابهة مع الصّليبيين،

---

(1) حول أحوال الخلافة الفاطمية في هذه الفترة، انظر: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطميّة، ط3، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، 1964م: 179- 201؛ أيمن فؤاد سيّد، الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1992م: 207- 244.

(2) فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبيّة (العصر الفاطميّ والسلجوقيّ والزنكي)، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988م: 72.

(3) في ترجمة عماد الدين زنكي وأخباره انظر مثلاً: ابن الأثير، عزالدين علي (ت630 هـ)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة بالموصل، تحقيق:عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنى، بغداد، 1963م: 32 وما بعدها ؛ ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت681هـ)، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ: 2/ 327.

(4) ابن الأثير، الباهر: 38؛ أبو شامة المقدسيّ، شهاب الدين عبد الرحمن(ت665هـ)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: إبراهيم الزّيبق، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م: 1/ 118.

(5) ابن الأثير، الباهر: 37، 48.

(6) ابن الأثير، الكامل: 10/ 649- 650.

من خلال استرداد بعض الأماكن المحتلّة التي تُوّجت بتحرير مدينة الرُّها سنة 539هـ[1]، مما كان سبباً في توجيه حملة صليبيّة ثانية إلى بلاد الشّام[2].

وما أن يبزغ نجم نور الدّين محمود[3] (ابن عماد الدّين)، حتّى يبدأ المدّ الإسلاميّ في وجه الوجود الصّليبيّ بالتصاعد، وكان لا بدّ لنور الدّين، والحالة هذه، أن يسعى إلى توحيد الجهد الإسلاميّ في ظلّ دولة قادرة على الوقوف أمام الصّليبيين، فعمل – من أجل هذه الغاية – على مراسلة بعض هؤلاء الحكّام الذين لم يكونوا مستجيبين لمبادراته دائماً[4]، وكان له أن تمكّن – بعد غير محاولة – من ضمّ دمشق سنة 549هـ إلى حوزته، بعد ما بدا من حكّامها من مواقف مناهضة لجهوده[5].

ويقتضي المقام الإشارة إلى ما قام به نور الدّين من أعمال جهاديّة تجاه الصّليبيين في هذا الوقت؛ ففي سنة 541هـ استردّ مدينة الرّها التي استغلّ الصّليبيون فرصة مقتل والده عماد الدّين سنة 541هـ فتمكّنوا من الاستيلاء عليها[6]، وفي سنة 544هـ أوقع بهم هزيمة

---

(1) حول فتح الرُّها انظر: ابن القلانسي، تاريخ دمشق: 436؛ ابن الأثير، الكامل: 11/ 98؛ أبو شامة، كتاب الروضتين: 1/ 138.

(2) محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، ط2، دار البشير، عمان، 1988م: 17.

(3) في أخبار نور الدين انظر: ابن قاضي شهبة، تقي الدّين أبو بكر(ت874هـ)، الكواكب الدرية في السيرة النوريّة، تحقيق: محمود زايد، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م.

(4) ابن الأثير، الباهر: 112- 123 ؛ أبوشامة، كتاب الروضتين: 1/ 242.

(5) ابن الأثير، الباهر: 106.

(6) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: 450 .

في (إنّب)[1]، وفي سنة 545هـ توّج نور الدّين هذه الانتصارات بأسر القائد الصليبي (جوسلين)[2].

وقد كان لأحوال مصر الفاطميّة في هذه الفترة، وما كان يتخلّلها من صراعات سياسيّة، ونزاعات وزاريّة متكرّرة، أثر في دفع نور الدّين إلى التّفكير جديّاً في ضمّها إلى دولته؛ فوجد في استجارة الوزير المصريّ (شاور)[3] به سنة 558هـ[4]، فرصة في بدء التّخطيط لهذه الغاية، حيث يقوم بتوجيه عدد من الحملات بقيادة أسد الدّين شيركوه[5] الذي يتمّ له النجاح – بعد عدد من الحملات- في هذه المهمة، غير أنّ هذا الأخير ما أن يجلس على كرسي الوزارة في مصر، حتى يوافيه الأجل المحتوم سنة 564هـ[6]، فيخلفه في تسلُّم الوزارة ابن أخيه صلاح الدّين الأيوبيّ الذي كان قد رافقه في هذه الحملات، وما هي إلا فترة وجيزة حتى يقوم صلاح الدين - بأمر من نور الدّين – بقطع الخطبة للخليفة الفاطميّ، وإقامتها للخليفة العباسيّ في بغداد، منهياً بذلك حكم الدولة الفاطميّة في مصر[7]. وقد كان لهذه الخطوة أثر كبير في تكثيف جهود القطرين، ليقفا متماسكين معاً في وجه الخطر الدّاهم.

---

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: 473؛ أبو شامة، كتاب الروضتين: 1/ 204؛ وإنّب حصن من أعزاز من نواحي حلب. انظر: ياقوت الحموي (ت626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1979م: 1/ 258.

(2) أبو شامة، كتاب الروضتين: 1/ 246.

(3) هو أمير الجيوش شاور بن مجير السعديّ، تغلّب على الوزارة بعد مقتل الصالح بن رزيك، وأصبح وزيراً للعاضد الفاطميّ سنة 558هـ قتل سنة 564هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 2/ 443.

(4) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية: 164.

(5) هو شيركوه بن شاذي بن مروان، أخو نجم الدين أيّوب، وعمّ صلاح الدين، تولّى مصر في عهد نور الدين زنكي، توفي سنة 564 هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 2/ 479.

(6) أبو شامة، كتاب الروضتين: 2/ 68.

(7) ابن الأثير، الكامل: 11/ 368 ؛ أبو شامة، كتاب الروضتين: 2/ 189 وما بعدها.

ولكنّ مثل هذه الوحدة لم تلبث أن تعرّضت لبعض التهديد بعد وفاة نور الدّين سنة 569هـ[1]؛ إذ استغلّ بعض المقرّبين من البيت الزنكي صغر سن ابن نور الدّين، لتحقيق بعض المكاسب والغايات، مما دفع صلاح الدّين إلى قصد بلاد الشّام لإصلاح الحال قبل تفاقمها، فيدخل دمشق سنة570هـ[2]، ويضطر تحت وطأة الخلافات مع الزنكيين إلى ملاقاتهم في موقعة قرون حماة سنة570هـ[3]، حيث يلحق بهم هزيمة نكراء، ويلاقيهم ثانية في تلّ السّلطان سنة 571هـ، فيهزمهم أيضا[4]، وهكذا بقي شأن حلب مع النّاصر صلاح الدّين، حتى ضمّها إلى أملاكه سنة 579هـ[5].

وتعدّ فترة صلاح الدّين الأيوبيّ من أغنى فترات الحروب الصّليبيّة في الجهاد، فقد تقلّصت في عهده حدود الممالك الصّليبيّة التي لم يتردّد في شنّ الهجمة تلو الأخرى عليها[6]، وكان ذروة ما حقّقه من نصر مؤزّر في معركة حطين الخالدة سنة 583هـ[7] التي تمكّن على إثرها من استرداد بيت المقدس في السنّة ذاتها. ومن الطّبيعيّ أن يكون لمثل هذه الانتصارات التي لم يتبقّ بعدها من ممالك الصّليبيين إلا القليل، أثرٌ في الإعداد

(1) أبو شامة، كتاب الروضتين: 2/ 305.

(2) ابن شدّاد، بهاء الدّين يوسف (ت632هـ) النوادر السّلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشّيال، ط1، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964م: 50.

(3) المصدر السابق: 51.

(4) ابن الأثير، الكامل: 11/ 427.

(5) ابن واصل، محمد بن سالم (ت697هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، بلا تاريخ: 2/ 141.

(6) عماد الدين الأصفهاني، محمد بن محمد (ت597هـ)، البرق الشاميّ، تحقيق: مصطفى الحياري، ط1، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، 1987م: 3/ 36 وما بعدها.

(7) ابن شداد، النوادر السلطانية: 75.

للحملة الصليبيّة الثّالثة[1] التي ما أن تصل سواحل الشّام حتى تقيم حصاراً عنيفاً على مدينة عكا، تضطر على إثره المدينة إلى التّسليم سنة 587هـ[2].

وبوفاة صلاح الدّين سنة589هـ[3]، يدخل الصّراع مع الصّليبيين دوراً جديداً؛ إذ إنّ الوحدة التي عمل صلاح الدّين جاهداً على تحقيقها، سرعان ما بدأت بالتفكّك، بسبب النّزاعات التي حصلت بين أبناء البيت الأيوبي[4]، غير أنّ الملك العادل[5] يتمكّن ثانية من توحيد الدّولة الأيوبيّة[6]، ويقوم بتقسيمها بين أبنائه، وبموته سنة 615هـ، تبدأ الانقسامات والنزاعات من جديد بين بني أيوب[7]، وقد حاول الصّليبيون استغلال هذا الوضع المتردّي، فيوجّهون حملة صليبيّة إلى مصر[8]، لاعتقادهم أن التمكّن منها، كفيل بأن يحقّق لهم الاستيلاء على الدّيار المقدّسة. ومن الأحداث الهامّة التي شهدتها هذه

---

(1) ابن الأثير، الكامل: 12/ 32.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية: 160-170.

(3) حول وفاة صلاح الدّين وشدّة وقعها على المسلمين انظر: المصدر السابق: 246- 247.

(4) في خلافات بني أيوب انظر: هنرييت سابا، اتجاهات الشّعر العربي في القرن السابع الهجريّ في بلاد الشام، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة القاهرة، 1980م: 15- 24.

(5) هو أبو بكر محمد بن أبي الشّكر أيوب بن شادي، الملقب بالملك العادل، أخو السّلطان صلاح الدين، استطاع أن يستولي على الحكم ويجعله في أبنائه بعد النزاع الذي دبّ بين أبناء صلاح الدين، توفي سنة 615هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 5/ 74-79.

(6) يوسف غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان، بلا تاريخ: 190.

(7) هنرييت سابا، اتجاهات الشعر العربي في بلاد الشّام: 19.

(8) غوانمة، إمارة الكرك الأيوبيّة:195.

المرحلة، تخريب بيت المقدس وهدم سوره سنة 616هـ[1]. على يد الملك المعظّم عيسى[2] بسبب خوفه – كما يُروى- من تعرُّض الصّليبيين له بالاحتلال. ومن هذه الأحداث أيضاً، تنازل الملك الكامل[3]عن بيت المقدس سنة 626هـ للصّليبيين[4]، مما كان له أثر سلبيّ في نفوس كثير من الناس. وكان لموت الملك الكامل سنة 635هـ دور كذلك في تجدُّد خلافات البيت الأيوبيّ المتكرّرة التي كان من ضمنها أن دبّ النزاع هذه المرّة بين نجم الدّين أيّوب[5] وعمّه الصّالح إسماعيل[6]، فاستعان الأوّل بالخوارزميّة[7] الذين عاثوا

---

(1) حول تخريب بيت المقدس انظر: أبو شامة المقدسي، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف" بالذيل على الروضتين"، ط2، دار الجيل، بيروت، 1974م: 115-116؛ ابن واصل، محمد بن سالم (ت697هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيّوب، تحقيق: حسين محمد ربيع، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1972م: 4/ 32.

(2) هو الملك المعظّم عيسى بن الملك العادل، صاحب دمشق، كان محباً للأدب، ونسب إليه بعض الشعر، توفي سنة 624هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان:3/ 494-496.

(3) هو أبو المعالي محمد بن الملك العادل بن أيوب، ملك مصر وتوفي سنة 635هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 5/ 79-89.

(4) حول تسليم بيت المقدس انظر: ابن الأثير، الكامل: 12/ 482؛ ابن واصل، مفرج الكروب:4/ 241؛ ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة: 6/ 271؛ ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحيّ (ت1089هـ)، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ : 5/ 118.

(5) هو الملك الصّالح أيوب بن الملك الكامل محمد ... من كبار الملوك الأيوبيين بمصر، أغار الفرنج في أواخر عهده على دمياط، توفي سنة 647هـ. انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ط8، دار العلم للملايين،1989م: 2/ 38.

(6) مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلاميّة، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتناوي وآخرون، دار الفكر، ؟، بلا تاريخ: 14/ 114-115.

(7) الخوارزمية فرقة خالفت السّلطان غياث الدين كيخسرو صاحب الروم، وهربت إلى بلاد الشام. انظر: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1957م: ج1، ق1 ، 255.

في البلاد، واستعان الثّاني وحلفاؤه من الأيوبيين بالفرنج[1]. وهكذا كان حال الدّولة الأيوبيّة في أيّامها الأخيرة: حالة من التمزّق والخلافات، ومساومة متكرّرة على مقدّسات المسلمين. وقد كان هذا كفيلاً أن يضع نهاية لهذه الدولة التي لم تعد قادرة على المواصلة. ومع أنّ معركة المنصورة سنة 648هـ التي هزم فيها لويس التاسع ملك فرنسا شرّ هزيمة[2]، كانت تحت إمرة أيوبيّة، إلاّ أنّ دور المماليك الذين أكثر الملك نجم الدّين أيّوب من شرائهم للتقوّي بهم، واضح لا ينكر فيها. وقد تعزّز لهم مثل هذا الدّور كذلك من خلال تصدّيهم للمغول الذين بدأت جموعهم باكتساح الشّام، بعد أن أسقطت الخلافة العباسيّة في بغداد سنة 656هـ[3]، حيث تمكّنوا من هزيمتهم في معركة عين جالوت سنة 658هـ[4]، التي تعدّ في نظر بعض المؤرخين من أشدّ المعارك حسماً، إذ كانت فاتحة الجرأة على التتار، وزوال رعبهم المضخّم من نفوس المسلمين، ونهاية للشّائعات (أو الحقائق) التي كانت تقول – حتى حدثت عين جالوت – إنّ التتار لا يمكن قهرهم. وقد حققت من جديد عودة الوحدة بين مصر والشّام[5].

وقد كان لهذه البداية القويّة لدولة المماليك دور في تصفية الوجود الصّليبيّ من المنطقة، حيث تحقّق ذلك من خلال ثلاثة فتوح بارزة هي على التّوالي: فتح أنطاكيا سنة

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق2 : 302– 303.

(2) حول معركة المنصورة وأسر لويس التاسع، انظر: جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر (هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفاسكور)، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م: 197–257.

(3) ابن كثير الدّمشقي، أبو الوفاء الحافظ (ت 774هـ)، البداية والنهاية، دقّق أصوله وحقّقه: أحمد أبو ملحم وآخرون، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م: 13/ 213.

(4) المصدر السابق: 13/ 233.

(5) إحسان عبّاس، تاريخ بلاد الشّام في عصر المماليك، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، 1998م: 203.

667هـ[1] على يد الظاهر بيبرس[2]، وفتح طرابلس سنة 688هـ[3] على يد السُّلطان سيف الدّين قلاوون[4]، ثمّ فتح عكا سنة 690هـ[5]، على يد الأشرف خليل[6] الذي طويت على يده آخر صفحات الحروب الصّليبيّة من بلاد الشّام. وقد كان لسلاطين المماليك كذلك دور جهاديّ آخر، تمثّل في صدّهم غزوات المغول المتجدّدة على بلاد الشّام التي لم تنته بمعركة عين جالوت. ومن الطّبيعيّ بعد أن تمكّن المماليك من إزالة الخطرين معاً (الصّليبيّ والمغوليّ)، أن يقبل بهم النّاس حكّاماً، وأن يجدوا فيهم الذائد الصّلب عن حمى البلاد الإسلاميّة ومقدّساتها.

ولم يكن الشعر إزاء هذه الأحداث غائباً، فقدساير جانباً من مجرياتها، وعبّر عن كثير من وقائعها، واتّجه قسمٌ منه إلى الناحية النّضالية، فتعرّض الشعراء إلى وصف أخطار هذا الغزو ونتائجه[7]، وعمدوا إلى استثارة الهمم، ورفع ما يسمّى اليوم "بالروح

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 7/ 138 .

(2) هو ركن الدّين بيبرس البندقداري الصالحيّ، انتقلت الخلافة العباسّية في أيّامه إلى مصر سنة 659هـ ، حقّق عدداً من الانتصارات على الصليبيين والتتار، توفي سنة 676هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 7/ 94؛ الزركلي، الأعلام: 2/ 79.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 7/ 320- 321.

(4) هو أبو المعالي سيف الدين، أول ملوك الدولة القلاوونيّة في مصر سنة 689هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 7/ 292؛ الزركلي، الأعلام:5/ 203.

(5) المقريزي، السلوك، ج1 ، ق3، 762.

(6) هو الأشرف خليل بن قلاوون الصالحّي، في عهده تمّ استرداد عكا وصور وصيدا من الصليبيين، قتل غيلة سنة 693هـ. انظر: الكتبي، محمد بن شاكر(ت764هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1973م: 1/ 406؛ ابن العماد، شذرات الذهب: 5/ 422.

(7) انظر تفصيلاً لهذا الموضوع في: حلمي الكيلاني، الخطر الصليبيّ: أبعاده ومقاومته (من خلال شعر معاصريه)، مجلة مؤته للبحوث والدراسات، م10، ع2، جامعة مؤتة ، 1995م: 263-297.

المعنويّة لدى المقاتلين عن طريق تحريضهم على القتال، والنّيل من عدوّهم، والتقليل من شأنه وقدره، وهو ما سيتبدّى واضحاً ومفصلاً في أجزاء لاحقة من هذه الدّراسة.

2

وقد رافق هذه الأحوال السياسيّة المتقلّبة تحديات وصعوبات متعدّدة في المجالات الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي يمكن إجمال بعضها في الخطوط العريضة التّالية:

- كانت طبقة الفلاحين من أكثر الطّبقات الاجتماعيّة التي ساءت أوضاعها، بسبب ما كان يفرض عليها من ضرائب، وما كانت تواجهه من غارات صليبيّة استهدفت تخريب زروعها وحرقها[1].
- كان لنظام الإقطاع الذي ساد في العصور الوسطى[2] دور في تقسيم المجتمع إلى طبقتين متباينتين[3]: طبقة الأمراء الإقطاعيين، وما يلحق بهم من كبار التُّجار، وطبقة الفقراء التي كانت تابعة للطّبقة الأولى، وضحية فعليّة لمساوئ هذا النظام وأضراره.

---

(1) سعيد عاشور، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ضمن كتاب: مؤتمر بلاد الشام (تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر)، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1974م: 229.

(2) ابراهيم طرخان، النّظم الإقطاعيّة في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1968م: 171.

(3) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبيّ، دار المعارف، مصر، بلا تاريخ: 48.

- أدى اعتماد الزّراعة على الأمطار في بعض النّواحي إلى ضوائق معيشيّة في بعض المواسم[1]؛ فارتفعت الأسعار وعمّ الغلاء في بعض الأوقات[2]، ودفع ذلك النّاس إلى القيام ببعض الفتن والثّورات[3]، وزاد الحال سوءاً، حدوث بعض الكوارث البيئيّة والطبيعيّة؛ كالزلازل[4]، والحرائق[5]، وبعض الأوبئة الفتاكة[6].

- تركت الأحوال السّياسيّة المتقلّبة آثاراً سلبية على الواقع الاجتماعيّ والاقتصاديّ في هذه المرحلة؛ فقد اشتدّت – مثلا- موجة الغلاء نتيجة للحصار المفروض على بعض المدن بسبب من خلافات بني أيّوب المتفاقمة، وذلك على نحو ما حدث – مثلاً – في سنة 643هـ، حينما شدّد الخوارزميّة (الذين استعان بهم بعض الملوك الأيوبيين على بعضهم بعضاً) على أهل دمشق، وضيّقوا عليهم بعدما ألحقوا بهم من قتل ونهب[7]. كما وجدت بعض القبائل التي كانت

(1) انظر: ابن العديم، كمال الدين عمر (ت660هـ)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1968م: 3/ 210؛ ابن الأثير، الكامل: 12/ 504؛ أبو شامة المقدسيّ، الذيّل على الرّوضتين: 168.

(2) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ)، إغاثة الأمة في كشف الغمّة، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، وجمال الدين الشيّال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1940م: 28، 29؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 8/ 126 .

(3) ابن العديم، زبدة الحلب: 212.

(4) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: 514، 518؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية:189؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 8/ 36.

(5) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية: 172- 173؛ ابن العماد، شذرات الذهب: 5/ 370.

(6) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: 494، 508.

(7) أبو شامة، الذيل على الروضتين: 175.

تستوطن بادية الشّام في مثل هذه الأوضاع فرصة للقيام بأعمال من الغزو والسّطو حيثما كان ذلك ممكناً[1]. كما استغلّ الفرنج ظروف النّزاع هذه، فأغاروا على المدن، وشنّعوا بسكّانها الذين اضطروا إلى تركها مكرهين[2]. ولم يقتصر الأمر على هذه الظروف، وإنما كانت تعدّياتهم تتكرّر في فترات مختلفة[3]. وكان للغزو المغولي أيضاً آثار في هذا المجال؛ إذ أثارت جرائم المغول، وتجاوزاتهم الخطيرة على سكّان البلاد التي يحتلّونها هلع النّاس الذين اندفع كثير منهم هاربين حال سماعهم قدوم جند المغول، تاركين وراءهم بيوتهم وممتلكاتهم[4].

- وإلى جانب ما سبق، كانت ضروب من الفساد تعلن عن نفسها بين الفينة والأخرى؛ فبدت من بعض الحكّام تجاوزات طال شيء منها حياة بعض الناس[5]. ووجدت تعدّيات من قبل بعض الوزراء والمستخدمين الذين انتهز بعضهم الفرص للاختلاس والسرقة[6]. وساءت سيرة بعض القضاة، فتخطّوا حدود العدل في أحكامهم؛ فقد روى الكتبيّ – مثلاً- أنّه لما ملك الصالح إسماعيل دمشق، ولّى قضاءها رفيع الدين الجيلي الشافعيّ، فاتفق (هذا القاضي) مع أحد الوزراء على المسلمين، وكان عنده شهود زور ومن يدعي زوراً، فيحضر الرّجل المتمول إلى مجلسه، ويحضر المدعي عليه بألف دينار أو

(1) ابن الأثير، الباهر: 46.

(2) ابن العماد الحنبليّ، شذرات الذهب: 5/ 65.

(3) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: 517؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية: 92.

(4) أبو شامة، الذيل على الروضتين: 203 وما بعدها؛ ابن تغري بردي، النجوم الزّاهرة: 7/ 91.

(5) أبو شامة، الذيل على الروضتين: 180؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: 1: 427-428.

(6) الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 194.

بألفين فينكر، فيحضر الشهود فيلزمه ويحكم عليه، فيصالح غريمه على النصف، أو أكثر أو أقلّ، فاستبيحت أموال الناس[1].

- وكان لمثل هذه المؤثرات الاجتماعيّة انعكاسها على حياة بعض الشّعراء الذين لم يعد أكثرهم – ابتداء من النصف الثاني من القرن السّابع الهجريّ- متفرّغاً لأصول فنّه كما كان الحال في عصور أدبيّة سابقة، حينما كان الشاعر يُكافأ على القول بأعطيات مجزية تحفظ له حياة كريمة، وتجعله يخلص لفنّه، ويحرص على الاهتمام به وإجادته. وقد دفع مثل هذا الواقع بعض شعراء هذه الفترة إلى الانخراط في حياة العمل والكفاح، طلباً للرزق ولقمة العيش، فافتقد جزء من فنّهم مبدأ الإجادة، واقتصر جهد كثير منهم على البحث عن فكرة صغيرة أو نكتة بديعيّة في مقطوعات قصيرة وأبيات محدودة[2]. واختفت في جانب من شعرهم صفتا الأصالة والابتكار اللتان تتطلّبان ظروفاً غير ظروفهم، وشروطاً لم تكن متاحة لهم.

وهكذا وجد بعض الشُّعراء أنفسهم مضطرين- بحكم واقعهم المعاند- إلى مزاولة بعض المهن والحرف؛ فقد عمل الشّاعر إبراهيم بن علي الحرّاني[3]، المعروف بـ"عين بصل" حائكاً، ومما قاله في الردّ على من لامه في اتّخاذ هذه المهنة[4]:

وقائلٍ قال إبراهيمُ عينُ بصل ... أضْحى يبيعُ قباً في النَّاسِ بعد قبا

---

(1) الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 352- 353.

(2) هنريبيت سابا، اتجاهات الشّعر العربيّ في بلاد الشّام: 97.

(3) هو إبراهيم بن علي بن خليل الحراني، عمل حائكاً، وتوفي سنة 709هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 1/ 35.

(4) الكتبيّ، فوات الوفيات: 1/ 36.

فقلـــتُ: مــَهْ يــا عــذولي لا تُعــنّفني لو جعتَ قتَ ولو أفلستَ بعتَ قبا

ومن الشُّعراء الذين عرفوا بمزاولة المهن أيضاً: ابن المسجّف العسقلانيّ[1] الذي عمل في التّجارة، وشمس الدّين الدمشقيّ[2] الذي عمل في صناعة الدّهان، وأحمد بن عبد الدايم[3] الذي عمل نسّاخاً، ومظفر الذّهبي[4] الذي كان مصوّراً، وغيرهم[5].

وواضح أنّ مثل هذه الأوضاع الاجتماعيّة، من شأنها أنْ تدفع الشّعراء إلى التعبير عن وقع أثرها في نفوسهم، فكثر بذلك الشّعر الذي يصوّر مظاهر الفساد الاجتماعيّ، وسرت في هذا الشّعر صور من الشّكوى والضيق والتبرُّم، وغير ذلك مما سيتّضح في حينه، وهي مضامين تُعدُّ انعكاساً لواقع عاشه الشُّعراء، وعانوا من قسوته وتأثيره.

---

(1) هو عبد الرحمن بن أبي القاسم، شاعر هجّاء، نعت بالظّرافة والخلاعة. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 282.

(2) هو محمد بن علي بن عمر المازني الدّهان، شاعر دمشقيّ، كان يعمل في صناعة الدهان، توفي سنة721هـ. انظر: الصّفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ)، الوافي بالوفيات، باعتناء س. دريدرينغ، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1992م: 4/ 209.

(3) هو أحمد بن عبد الدايم بن نعمة... بن بكير، لازم مهنة النسخ خمسين سنة، وتوفي سنة 668هـ. انظر الكتبيّ، فوات الوفيات: 1/ 81.

(4) هو مظفر بن محاسن بن علي، ولد في دمشق سنة 607هـ وتوفي في سنة 668هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات:4/ 150.

(5) ومن هؤلاء الشّعراء أيضاً: ظافر الحدّاد(ت529هـ)؛ وأبو الحسين الجزّار (ت679هـ)؛ وسراج الدّين الورّاق (ت695هـ)؛ ونصير الدّين الحماميّ (ت708هـ)؛ وابن دانيال الكحّال(ت710هـ). وانظر دراستين مستقلتين لهذا الموضوع في: عبد العليم القباني، مع الشّعراء أصحاب الحرف، المؤسسة المصريّة العامّة للتأليف والنّشر، القاهرة، 1967م؛ محمود سالم محمد، أدب الصّناع وأرباب الحرف حتى نهاية القرن العاشر الهجريّ، دار الفكر، بيروت، 1993م.

3

وبعد؛ فليست غايتي – في هذا السّياق – أن أقدّم عرضاً شاملاً لواقع الحياة في هذا العصر بنواحيها المختلفة، وإنّما كان القصد إبراز جوانب ذات علاقة وتماسّ مباشرين بموضوع هذه الدّراسة، ولمّا كان البحث في هذه الجوانب واسعاً ومتشعّباً، فقد عمدت إلى تضييق القول فيه، فاتبعت منهجاً انتقائياً يقدّم ملامح عامّة (ولعلها تكون دالّة) لبعض المظاهر والمؤثرات دون عناية بالتفاصيل، ومتابعة للجزيئات الدقيقة.

ولا بدّ من التنبيه على أنّ هذا العرض يقتصر – في الجانب الاجتماعيّ منه تحديداً – على وجه واحد من صورة الواقع لهذه المرحلة، وهو الوجه السّلبيّ منها، وعليه فإنني لا أقصد أن أدين هذا العصر، أو أن أظهره بصورة سلبيّة قاتمة، فقد كان لهذا العصر جوانب مشرقة وضّاءة (ربّما فاقت الجوانب السلبيّة)، ولكنّ موضوع هذه الدّراسة تطلّب الوقوف عند هذه الظواهر دون غيرها. ولا أحسب – مع ذلك- أنّ أيّ عصر- مهما كثرت حسناته ومزاياه – يخلو من مظاهر الفساد والانحراف.

وقد كان الفصل بين صورتي القطرين – المصريّ والشاميّ – في هذه الدّراسة غير ممكن في كثير من الأحوال؛ فإذا كان مثل هذا الإجراء يعدّ صعباً حتى في الدّراسة التاريخية بسبب ما كان بين هذين القطرين من التحام قويّ في مختلف مظاهر الحياة العسكريّة والسياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة طوال هذه الفترة[1]، فإنّ هذا المطلب يغدو أكثر صعوبة في مجال الشّعر بشكل خاصّ، وإن كان القارئ سيلحظ – مع ذلك – شيئاً من هذه الخصوصيّة لكلا القطرين في هذا الموضع أو ذاك.

---

(1) إحسان عبّاس، تاريخ بلاد الشّام في عصر المماليك: 70.

الفصـل الأول
الهجاء الشّخصيّ

1ـ هجاء الأفراد

2ـ هجاء الأهل والأقارب

3ـ التّهاجي بين الشّعراء

4ـ شواذ الأهاجي



الفصل الأول

الهجاء الشّخصيّ

1. هجاء الأفراد

1

يشغل هجاء الأفراد حيزاً كبيراً من شعر الهجاء في هذه الفترة، إذ تصادف الدّارس منه نماذج كثيرة حفلت بها الدّواوين الشّعريّة وكتب التّراجم والاختيارات. ويلاحظ أنّ قسماً من هذا الهجاء كان وليد الحاجة والعوز لدى الشّعراء الذين إذا ما صدّهم بعض الموسرين؛ فإنَّ ألسنتهم سرعان ما تنطلق للنّيل منهم، والانتقاص من قدرهم؛ فقاسم الواسطي[1] - مثلاً - يبدي خيبته من جماعة، لم يجد عندهم عطاء يُجزى، أو موئلاً يرتجى، يقول[2]:

ويُبدونَ الطّلاقَةَ من وجوهٍ   كما يَبْدو لك الحَجَرُ الصَّقيلُ

إذا قامُوا لمجدٍ أقْعَدَتْهُمْ   مسالكُ مالَهُمْ فيها سَبيْلُ

أما هبة الله بن عرّام[3]، فَيُظهِرُ ندمَه على إجهاد قريحته في قومٍ ليسوا بأهل لمدح، فهم - كما يرى - لئام، لا يُحصَّل منهم شيء سوى "طيب الكلام"؛ مما يدفعه إلى السّخرية

---

(1) هو القاسم بن القاسم بن عمر الواسطيّ، أديب ولغويّ، توفي في حلب سنة 626هـ. انظر: ياقوت الحموي (ت626هـ)، معجم الأدباء، الطبعة الأخيرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ: 16/ 305؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 192.

(2) الكتبي، فوات الوفيات: 3/ 194.

(3) من شعراء الصعيد، توفي سنة 550هـ. انظر: العماد الأصفهاني، محمد بن محمد (ت597هـ)، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم مصر)، تحقيق: أحمد أمين ورفيقيه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951م: 2/ 186.

منهم، والحطّ من شأنهم، فيعلن أنّه لو جعل هذا الشّعر في كرام النّاس لكان له فيه خير عظيم، وذكر لا يموت مع الأيّام[1]:

أتعَبْتُ نفْسي وفِكري ... في مَدْحِ قَومٍ لئامِ

وعزّتي حُسْنُ بِشْرٍ ... مِنْهُمْ، وَطِيبُ كلامِ

فما حَصَلْتُ لَديْهِمْ ... إلاّ على الإعْدامِ

ولو جَعَلْتُ قريضي ... مراثياً في الكِرامِ

لَحُزْتُ ذِكْراً جميلاً ... يَبْقى على الأيامِ

وبلغ الفقر وضنك الحال ببعض الشّعراء مبلغاً كبيراً؛ فهذا ابن مِقْدام المحَلّي[2]، يضنّ عليه أنْ يجد شعيراً على قلّة شأنه، وتقلُّص سعره، فيتوجّه إلى أحد أصدقائه، طالباً منه أن يستبدل بشعْره شيئاً من هذا الشّعير، ناقلاً ذلك بصورة مؤثّرة تعبّر عن انتقاد حادٍّ لواقع شديد القسوة[3]:

إليكَ ابنَ إبراهيمَ راحةَ مُشْتَكٍ ... لِنَفْثَةِ مَصْدورٍ شَكَا حرَّ صَدْرِهِ

تُكَنِّفُهُ الحِرْمانُ حتى لو انّهُ ... سَرى يَسْتَمِيْحُ الغَيْثَ ضَنَّ بِقَطْرِهِ

وَأَصْعَبُ ما يُمنى بهِ في مقامِهِ ... شِراهُ شعيراً في تَقَلُّصِ سِعْرِهِ

ويَقْصُرُ عَنْ تَكْلِيْفِ ذلكَ وَجْدُهُ ... وأنّى لَهُ ذِكرٌ يَفُوهُ بِذِكْرِهِ

فجُدْ لي بهِ وارحمْ فَدَيْتُكَ شاعراً ... قُصاراهُ أنْ يُجْزَى شَعِيْراً بِشِعره

---

(1) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء مصر): 2/ 194.

(2) هو داود بن مِقدام بن ظفر المحلّيّ. يذكر العماد أنّه عاش في عصره. وقد نسبه ياقوت في معجم بلدانه إلى المحلّة. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة(قسم شعراء مصر): 2/ 45؛ ياقوت الحموي (ت626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1979م: 5/ 63.

(3) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء مصر): 2/ 49.

وكان للخصومات الشّخصيّة – أيضاً – دور في بروز مثل هذا الهجاء؛ فالشّعراء كغيرهم من النّاس، لهم علاقاتهم وصلاتهم مع أفراد المجتمع، ومن الطبيعيّ أن يشوب هذه العلاقات – في بعض الأحيان – خلافات ونزاعات شخصيّة، مما يدفعهم (الشعراء) إلى هجاء كلّ من يعاندهم ويخاصمهم. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها: ما قاله الصّاحب شرف الدّين الأنصاري[1] حين شبّ بينه وبين جماعة نزاعٌ وخصومة، سخر- على إثره- منهم، بأسلوب يغلب عليه الفخر الذي بلغ حدّ التنفُّج[2]:

تَعَرَّضَ لِيْ بِعَيْبِهِمُ رِجالٌ ... يُنافِرُ فَنَّ جَهْلِهِمُ فُنُوني

دَفَنْتُهُمُ خُمُولاً واطِّراحًا ... ولو أجَلي دنا لم يَدْفِنُوني

وإنّي، وإنْ أهِجْ أحْلُمْ، وطَوْرًا ... أداوي بالجُنُونِ مِنَ الجُنُونِ

ويبدو أنّ دوافع هذا الهجاء لم تكن تتّخذ – دائمًا – مظهر الجدّ؛ فقد قصد بعض الشّعراء من ذلك التّسلية والعبث؛ وكأنّ نفوسهم قد جبلت على ممارسته حتّى بات طبعاً متأصلاً فيها. من ذلك ما قاله ابن عُنَيْن[3] في القاضي ابن أبي عصرون[4]؛ إذْ يسوِّغ تعرُّضه لهجائه بقوله[5]:

---

(1) هو الصاحب شرف الدّين عبد العزيز بن محمد شاعر شامي، كان صاحب حظوة عند الملوك، توفي سنة 662هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزّاهرة: 7/ 214.

(2) الصاحب شرف الدين الأنصاري، ديوانه، تحقيق: عمر موسى باشا، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، دمشق، 1968م: 497.

(3) هو أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عُنَيْن الأنصاريّ. كان مولعاً بالهجاء، تولّى الوزارة في عهد الملك المعظّم عيسى الأيوبيّ. توفي سنة 630هـ. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء: 19/ 81؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 6/ 293.

(4) هو القاضي محيي الدين محمّد بن شرف الدّين بن أبي عصرون، تولّى القضاء، وعمي في أواخر سنّي عمره، توفي سنة 585هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 3/ 53-57.

(5) ابن عُنين الأنصاريّ، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، ط2، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ: 191.

وَمـا هَجَـوْتُ ابـنَ عَـصْرونٍ أَرُوْمُ لَـهُ   فَـضْلاً، ولا نِلْـتُ مِـنْ فَخْـرٍ ولا شَـرَفِ

لَكِـنْ أُجـرِّبُ فِيــهِ خـاطِرِي عَبَثــاً   كمــا تُجـرَّبُ بِـيْضُ الهِنْـدِ في الجِيَـفِ

2

وقد توجّه كثير من الشّعراء في هجاء خصومهم إلى حقـل المساوئ الخُلقيّـة، أخـذاً برأي بعض النُّقاد القدامى الذين كانوا يرون أنّ "أجود مـا في الهجـاء أن يُـسلب الإنـسان الفضائل النفسيّة وما تركّب من بعضها في بعـض"[1]؛ لأنّ في مثـل هـذا الهجـاء مـا يعيـب الإنسان حقيقة. ولهذا كُلِّه كان الـشّعراء في بحـث دائـم لالتقـاط كـلِّ صـفة سـلبيّة لرمـي مهجوّيهم بها. وقد تعددّت معاني هذا الهجاء وصوره. ويستطيع الدّارس – مـن خلالـه- أن يتبيّن كثيراً من سلبيّات المجتمع ومـساوئ أفـراده، وإنْ كـان ذلـك يخـضع – في أحيـان كثيرة – لنفسيّة الشّاعر ونزعته الذّاتيّة، مما قد يبعده عن الموضـوعيّة. ولكنّـه- علـى الّـرغم من كلِّ هذا – يقـدِّم صـوراً نابـضة بالحيـاة لأحـوال النّـاس، وطـرق تفكيرهـم، وطبيعـة تعاملهم اليوميّ. وهي صور يفتقدها الدّارسون في مصادر أخرى.

وكان البخل من أولى الصِّفات التي تناولها الشّعراء في هجائهم. ولعـلّ ذلـك يؤكّـد فكرة الحاجة والتكسُّب التي كانت – كما ذكر – من أقوى دوافـع هـذا الهجـاء ومـسبّباته؛

(1) القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (ت456هـ)، العُمدة في محاسن الـشِّعْر وآدابـه، تحقيـق: محمّـد قرقزان، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1988م: 2/ 852.

فهذا ابن منير الطّرابلسيّ[1] يصوّر – بأسلوب ساخر – رغيفاً لأحد البخلاء من خلال اللجوء إلى المبالغة بغية إظهار هذه الصّفة القبيحة وإلصاقها بخصمه[2]:

رَغِيفُهُ مِنْ ذَرَّةٍ ... يَصْنَعُهُ أَوْ أَصْغَرا

مُبَيَّتاً مُلَفَّقاً ... مُبريقاً مُبَيْكرا

لو جازَ في عينِ الّذي ... يَأكُلُهُ لما درى

أو بَلَعَ الصّائمُ الْـ ... ـفاً مِثْلَهُ ما أفْطَرا

كأنّما خَبّازُهُ ... بِهِ تحدّى البَشَرا

فَهَاتِ، قُلْ: أعَرَضاً ... تَجِدُهُ أمْ جَوْهَرا

ويرمي هبة الله بن وزير[3] أحدهم بالبخل، ويضيف إليه صفة ذميمة أخرى، هي اللؤم. ويتخيّر – في سبيل تأكيد ادّعائه هذا – صوراً من الأشجار التي لا ورق لها ولا ثمر، مشبّهًا ذلك الشّخص بها[4]:

ومُشْتهرٍ بالبُخْلِ غاوٍ بلُؤمِهِ ... على يَدِهِ قُفْلٌ مَنِيعٌ وأغْلاقُ

---

(1) هو أبو الحسن أحمد بن منير الطّرابلسي، من أشهر شعراء الشّام في القرن السادس الهجريّ، كان متشيّعاً، توفي سنة 548هـ. انظر: ابن عساكر، علي بن الحسن (ت571هـ)، تاريخ مدينة دمشق، مخطوط، دار البشير، صورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق: 2/ 251؛ العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام) تحقيق: شكري فيصل، ط1، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1955م:1/ 96؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: 1/ 156.

(2) ابن منير الطّرابلسيّ، ديوانه، جمعه وقدّم له: عمر عبد السّلام تدمري، ط1، دار الجيل، بيروت، 1986م: 95.

(3) هو النجيب أبو المكارم، هبة الله بن وزير المصريّ، من شعراء الخريدة، يذكر العماد أنّه لقيه بمصر سنة 573هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء مصر): 2/ 143.

(4) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء مصر): 2/ 150.

إذا زُرْتُهُ يَزْوِرُّ مِنِّي تبرُّماً ... فلا هُوَ مَسْرورٌ ولا أنا مُشْتاقُ

مِنَ الشَّجرِ الملعونِ لا وَرَقٌ بِهِ ... ولا ثَمَرٌ، عُقباهُ نارٌ وإحراقُ

ويؤكّد أسامة بن مُنقذ[1]- بأسلوب لا يخلو من تعميم واضح، ونبرة يبدو عليها الحزن واليأس – استشراء داء البخل، حتى بات شيئاً شائعاً بين الناس، يقول[2]:

قُلْ للرَّجاءِ: إليكَ، قَدْ ... أتْعَبْتَنِي بَعْدَ الكِرامِ

قَدْ عَمَّ داءُ البُخْلِ حَتْـ ... ـتَى شاعَ في كلِّ الأنامِ

فَأكُفُّهُمْ بالبُخْلِ مُقْـ ... ـفَلَةٌ على سُحْتِ[3] الحُطامِ

فإلامَ تَرْتادُ المحو ... لَ، وَتَرْتَجِي رِيَّ الجَهَامِ[4]

ومن العيوب الخُلقيّة التي ظهرت – أيضاً – في هجاء الشّعراء لبعض الأفراد النّميمة ونقل الحديث. وقد قدّم ابن السّاعاتيّ[5] صورة لشخص نمّام من خلال اعتماده على دقّة الملاحظة – وهي ضروريّة للشّاعر الهجّاء- والمفارقة القائمة على

---

(1) هو أسامة بن مُرشد بن عليّ بن مَقلد .. من أكابر بني منُقذ أصحاب قلعة شيزر، يُعدّ من أبطال الإسلام في عصر الحروب الصّليبيّة، كان شاعراً ومؤلّفاً، وله عدد من المصنفات، توفي سنة 584هـ. انظر: ابن عساكر، علي بن الحسن (ت571هـ)، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، 1995م: 8/ 90؛ العماد الأصفهاني، الخريدة(قسم شعراء الشّام): 1/ 499؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: 5/ 188.

(2) أسامة بن منقذ، ديوانه، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد الحميد، ط2، عالم الكتب، بيروت، 1983م: 310.

(3) السّحت: الحرام.

(4) الجَهَام: السّحاب لا ماء فيه.

(5) هو أبو الحسن علي بن محمد بن رستم. نشأ في دمشق، وله مدائح في بعض ملوك بني أيوب. توفي سنة 604هـ. انظر: ابن سعيد الأندلسيّ، علي بن موسى (ت685هـ)، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ط4، دار المعارف، القاهرة بلا تاريخ: 118.

السّخرية، ثمّ الإصابة في التشبيه عن طريق انتقاء صور من عالم الحيوانات أو الأمراض المعدية، يقول[1]:

أَحَطُّ على مَأْكُولةٍ مِنْ ذُبابةٍ ... وَأَثْقَلُ فِيهمْ للحديثِ مِنَ النَّمْلِ

بَلاهُمْ بِهِ اللهُ القَويُّ فإنَّهُ ... أَشَدُّ مِنَ الطَّاعونِ في زَمَنِ المَحْلِ

حُسامٌ ولكنْ للمودّاتِ حَسْمُهُ ... يُشامُ لإفسادِ الأخلّاءِ لا القَتْلِ

فَحَصِّلْ لَهُ نَعْلاً يَزِينُ أديمَهُ ... فَلا بدَّ للسّيفِ الصَّقيلِ مِنَ النَّعْلِ

وتطرّق بعض الشّعراء إلى صفة الثّرثرة وكثرة الكلام، فصوّروا ما تسبّبه للآخرين من ملل وضجر. ومن الأمثلة على ذلك قول البهاء زهير[2] في صديق له[3]:

لَنا صديقٌ ولا أسمِّيهِ ... نَعْرِفُهُ كُلُّنا وَنَدْرِيهِ

كُلُّ اختِلافٍ وَكُلُّ مَخرقةٍ[4] ... فيهِ فيا لَيْتَهُ بلا فِيهِ

ويتكرّر هجو هذه الصّفة على لسان عليّ بن يوسف القِفْطيّ[5] الذي يهجو شخصاً أعور، فيصوّره- مستغلاً هذا العيب الخَلْقيّ- بهيئة غريبة، حين يجعله بعين

---

(1) ابن الساعاتيّ، ديوانه،تحقيق:أنيس المقدسيّ، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1939م:2/ 72.

(2) هو بهاء الدّين زهير بن محمد، شاعر مصري، تميّز شعره بالرقة والعذوبة، كان على صلة بالملك الصّالح نجم الدّين أيّوب. توفي سنة 656هـ. انظر: ابن تغري بردي، النّجوم الزاهرة: 7/ 62؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: 5/ 276.

(3) البهاء زهير، ديوانه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد الجبلاوي، ط2، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ: 284.

(4) المخرقة: الطيش والهذيان.

(5) نشأ بالقاهرة، ثمّ انتقل إلى حلب، ومدح صاحبها الملك الظاهر غازي بن يوسف، كان كاتباً مبرزاً، وله عدد من المصنّفات. توفي سنة 646هـ. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء: 15/ 175؛ الكتبي، فوات الوفيات:3/ 117.

واحدة، ولسانين اثنين، رامياً – من ذلك- إلى التّعريض بسلوك هذا الفرد، من خلال هذا التّصوير السَّاخر[1]:

شَيخٌ لنـا يُعْزى إلى مُنْذِرِ ... مُستَقْبَحُ الأَخْلاقِ والعَيْنِ

مِنْ عَجَبِ الدَّهْرِ، فَحَدِّثْ بهِ ... بِفَرْدِ عَيْنٍ ولِسَانَيْنِ

ويذمّ الشّوّاء الحلبيّ[2] أحد أصدقائه، فيجده لا يحسن إلا الغيبة، وإشاعة الأسرار وفضحها، فهو أشبه بالصّدى الذي يعيد رجع الحديث في الحال، يقول[3]:

لي صَديْقٌ غدا وإنْ كانَ لا يَنْـ ... ـطِقُ إلا بِغِيْبَةٍ أو مُحالِ

أشْبَهُ النّاسِ بالصَّدى إنْ تُحدِّثْـ ... ـهُ حديثاً أعادَهُ في الحالِ

وقد وجد البهاء زهير في عادة إفشاء السّر –كذلك- مجالاً لتوجيه نقده وتهكّمه من صاحب لا يتوانى- لحظة –عن كشف الخفيّ من الأسرار[4]:

وصاحِبٍ جَعَلْتُهُ أميري ... شارَكَ مِنّي مَوْضِعَ الضَّميرِ

أوْدَعْتُهُ الخَفيَّ مِنْ أُموري ... فكانَ مِثْلَ النّارِ في البُخُورِ

وكانت صفة النِّفاق من الصّفات المستهجنة التي وجدت طريقها إلى أهاجي الشّعراء، فذهبوا إلى ذمِّها وتسفيه كل من يتّصف بها. على نحو ما نجد في قول ابن قلاقس

---

(1) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: 15/ 180.

(2) هو أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل الحلبي، المعروف بالشّواء. شاعر شاميّ اتّصل بالسلطان صلاح الدين وابنه الملك الظاهر غازي. يحدّد ابن الشّعار وفاته بسنة 635هـ. انظر: ابن الشعار الموصليّ، المبارك بن أحمد (ت654هـ)، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، مخطوط، إصدار فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، في إطار جامعة فرانكفورت، 1990م: 10/ 237؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: 7/ 231.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان: 7/ 235.

(4) البهاء زهير، ديوانه: 92.

الإسكندريّ[1] الذي يهجو شخصاً يسمّى عليّاً، ساخراً من اسمه هذا الذي لا يتناسب وسلوكه؛ فهو كالماء يتلوّن في كل مرة بلون، غير أنّه ماء آسن كريه[2]:

يــــا علـيُّ الّـذي دَعَــــوهُ علــيّاً	سِمـــــةً أخْــبَرتْ عـــن العليــــاءِ
أنْـتَ كالمــاءِ غَيْـرَ أنْ لَـسْتَ تَـصفُو	وَقَبِيْــــحٌ بالمـــــاءِ تَـرْكُ الـصَّفــاءِ
أيُّ فَـضْـلٍ للأصـدقاءِ إذا كُنْـــــ	ـــتَ تـراهُمْ بِحَــــالةِ الأَعْـــداءِ
قــد تَلَــوّنْتَ أيّها الـشَّمْسُ حتّى	قُـــلتُ ألبستَ جِـــلْدةَ الحربـاءِ

ومثل ذلك ما قاله ابن قادوس[3] في أحد المنافقين، ويلاحظ أنّ فكرة تشبيه المنافق بالماء كانت تتكرّر عند غير شاعر[4]:

حَـوْلَـــــهُ اليــــــومَ أنـــــاسٌ	كُلُّـــــهُمْ يُزْهــــــى برائِـــــهْ[5]
وهــــو مِثْـلُ المـــــاءِ فِيهـــــمْ	لَـــوْنُــــهُ لَــــوْنُ إنـــائِــــهْ

(1) هو أبو الفتح نصر الله بن عبدالله الإسكندريّ، مدح بعض أولي الأمر بالإسكندرية. توفي سنة 567هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 5/ 385؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: 4/ 224.

(2) ابن قلاقس الإسكندريّ، ديوانه، تحقيق: سهام الفريح، مكتبة دار العروبة، الكويت 1979م: 135-136.

(3) هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل، شاعر مصريّ، أصله من دمياط، توفي سنة 551هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء مصر):1/ 226.

(4) المصدر نفسه: 1/ 233.

(5) رائه: رأيه.

ومن الشّعراء من وجد في بعض السّلوكيات غير السّويّة لنفر من الأفراد مادّة لهجائه. على نحو ما يُلحظ في قول عرقلة الكلبي[1] الذي يكشف زيف صداقة قائمة على المصلحة والحاجة لا غير[2]:

وصاحبٍ يتلقّاني لحاجتِهِ ... بالرّحبِ، وهو مليْحُ الخَلْقِ والخُلُقِ

حتّى إذا ما انقَضَتْ ولّى وخلّفني ... أخسَّ منْ جُرَذٍ في بَيْتِ مُرتفقِ[3]

كالماءِ بَيْنَا ترى الظمآن يَشْرَبهُ ... حتى يُبدِّدَ باقيهِ على الطُّرُقِ

ويبدي الأمير يَغْمُر بن عيسى[4] – في هذا الاتّجاه ذاته – حيرته وقلقه من صداقة صاحب متقلّب المزاج؛ فلا يعرف – على وجه الدِّقة – كيف يعامله، فإن حاول زيارته تغيّب احتجاجاً، وإنْ أهمله وشأنه عتب على ذلك، يقول[5]:

وصاحبٍ لا أعادَ الدَّهرُ صُحْبَتَهُ ... صَحِبْتُهُ، وَأَراهُ شَرَّ مَنْ صُحِبا

لا يَستَقِيْمُ على حَالٍ فَأَعْرِفَهُ ... ولا يُفوهُ بِخَيْرٍ، جَدّ أو لعِبا

إنْ زُرْتُهُ قاضياً حَقَّ الإخاءِ لَهُ ... غَابَ احْتِجاجاً، وإنْ أهملتُهُ عَتِبا

وإنْ تَنَصَّلْتُ ممّا قالَ مُعْتَذِراً ... أَبى القُبولَ، وإنْ عاتَبْتُهُ غَضِبا

---

(1) هو أبو النّدى، حسّان بن نمير، كان مولده ونشأته بدمشق. رمي بالتّشيع، وتوفي سنة 567هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء الشّام): 1/ 178.

(2) عرقلة الكلبي، ديوانه، تحقيق: أحمد الجندي، دار صادر، بيروت، 1992م:67.

(3) المرتفق: بيت الخلاء.

(4) من مولّدي الأتراك بدمشق، وأمرائها المعروفين. يذكر العماد أنه لقيه بدمشق. انظر العماد الأصفهاني، الخريدة(قسم شعراء الشّام):1/ 354 .

(5) العماد الأصفهاني، الخريدة(قسم شعراء الشّام):1/ 390 .

ويعرّي شرف الدّين الأنصاريّ سلوك شخص يدعى (عبدالعزيز)، مظهراً مدى التّناقض بين قوله وفعله؛ فهو مندفع إلى الدّنيا، راغب في النّيل من حطامها، متظاهر - في الوقت ذاته - بالزّهد والصّلاح[1]:

عَبدَ العزيز، هجرتَ جدّكَ قاطعاً ... للغمْض في وَصْلِ اللّعوبِ النّاهدِ

وَأنمْتَ عَيْنكَ عنْ مُلاحظةِ الهُدى ... وَمَنَحْتَ طرْفَ الغيِّ عَيْنَ السَّاهدِ

وَجَهِدْتَ في الدُّنيا وكَسْبِ حُطامِها ... وَطَمِعْتَ جَهْلاً في ثوابِ الجاهدِ

وذممْتَها، واللهُ يَعْلمُ أنّها ... لكَ خُلَّةٌ[2]، وكفى بهِ مِنْ شاهدِ

فَعلامَ تَفْعَلُ فِعْلَ أرْغَبِ راغبٍ ... فيها، وقولُكَ قولُ أزهدِ زاهدِ

وعلى هذا النّحو، جسّد البهاء زهير تصرّفات بعض النّاس الذين يتظاهرون بالورع والزّهد والعبادة على مرأى من الآخرين. وهم - في حقيقة أمرهم - أشبه "بقنصة فُرص" محتالين[3]:

كَمْ أناسٍ أظهرُوا الزّهْدَ لنا ... فَتجافُوا عن حَلالٍ أو حَرامٍ

قَلَّلُوا الأكْلَ وَأبدوا وَرَعاً ... واجْتِهادًا في صيامٍ وقِيامٍ

ثمَّ لمّا أمْكنَتْهُمْ فُرْصَةٌ ... أكَلُوا أكْلَ الحزانى في الظَّلامِ

أمّا أسامة بن منقذ، فيستقبح غدر أحد أصدقائه وتنكّره له، بعد ما كان يبدي من مودّة وصفاء[4]:

صديقٌ لي، تَنَكّرَ بَعْدَ ودٍّ ... وأمُّ الغدْرِ في الدُّنيا وَلُودُ

---

(1) الصاحب شرف الدين، ديوانه: 183.

(2) خُلّة: خليلة وصديقة.

(3) البهاء زهير، ديوانه:247، وللاستزادة انظر: 144.

(4) أسامة بن منقذ، ديوانه: 298.

أراهُ مَـــــلالُهُ حَـسَـــني قَبيْــحاً ... فَـصَـــدٌّ وأيْـسَرُ الغَـــدْرِ الـصُّدودُ

وَذمٌّ اليـــــومَ مـــا حَمِــدَتْهُ مِنّـي ... تجـــــارِبُهُ، وأمْـسِ بــــهِ شـهيْدُ

ولَـسْتُ ألـــــومُهُ فِيْــــما أتـــاهُ ... أســـاءَ، فـــرابَهُ الفِعْـلُ الحَميْـــدُ

وقَـــدْ يَجِـــدُ المريضُ المـــاءَ مُـرّاً ... بفِيـــهِ، وهــــوَ سلـسَـــالٌ بَـرُوْدُ

ومن العيوب الخُلُقيّــة التي تردّدت في هجاء الأفـراد، الطّعـن في صـحة الأنـساب وسلامتها؛ فأقسى ما يُمكن أن يُرمى به عربيّ هو الشّكّ في نقـاء نـسبه وأرومتـه، ولـذلك استغلّ بعض الشّعراء هذه النّاحية لما وجدوا لها من أثر فاعل وحسّاس في نفـس الخـصم. ومن الأمثلة التي يمكن أن تساق في هـذا المجـال مـا قالـه فتيـان الـشّاغوريّ[1] في الجمـال المصريّ[2]، حين سخر منه بطريقة لاذعة، وغمز في صحّة نسبه بأسلوب غير مباشر[3]:

مـــا الجمـــالُ المِـصْريُّ عِنْـديَ إلا ... ذهَـــبٌ مِثْلُــهُ يُـسَكُّ ويُـصْرَفْ

أمُّــهُ مِـــصْرٌ فهـــي مَعْـــرِفَةٌ لــ ... ــكنْ أبـــوهُ مُنكَّـرٌ لَـيسَ يُعْـــرَفْ

---

(1) هو الشهاب فتيان بن علي الأسديّ، كان معلماً. وقد خدم الملوك، وعلّم أولادهم، توفي سنة 615هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة(قسم شعراء الشام): 1/ 247؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: 4/ 24-26.

(2) هو يونس بن بدران بن فيروز، تولّى منصب قاضي القضاة، وتوفي سنة 623هـ. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: 13/ 123.

(3) فتيان الشاغوريّ، ديوانه،تحقيق: أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1976م:280.

وتبدو أبيات ابن دُنَيْنِير[1] في هجاء المعتمد[2] شحنة دمشق، أكثر مباشرة وحدّة، حين يلجأ إلى ما يُشْبِهُ السّباب والمهاترة، مما أفقدها تلك الطّرافة التي بدت في بيتي فِتيان السّابقين، وذلك إذ يقول[3]:

نُسِبْتَ إلى الحَدْباءِ زَوْراً وإنّما ... إلى بَغْلبَكَ أنتَ تُعْزَى وَتُنْسَبُ

وَقُلْتَ ابنَ موسى، أيَّ موسى ادّعيتَهُ ... لأمِّكَ بَعْلاً أنتَ فيهِ تُكَذِّبُ

وإنَّك لَمْ تَعْلَمْ أباكَ مِنَ الوَرى ... فَتُعْزَى لَهُ يا خِزْيَ مَنْ ما لَهُ أبُ

غير أنّه يلاحظ قلّة الشّعر الذي تناول هذه المنقصة، إذا ما قورن ذلك بعصور سابقة؛ وخاصّة في العصرين الجاهليّ والأمويّ، وربّما كان ذلك بتأثير من ظروف الحياة الحضريّة التي شهدها هذا العصر. إضافة إلى ما تخلّله من أحداث جسام، كان أبرزها الحروب الصّليبيّة التي اكتوت بها ديار الإسلام في المشرق العربيّ، حيث وجد المسلمون أنفسهم – على اختلاف منابتهم وأصولهم – أمام عدوّ غاز، هدّد هويتهم ووجودهم كلّه. وكان لهذا – دون شكّ – أثره في إذكاء رابطة الدّين التي حلّت مكان أيّة رابطة أخرى.

---

(1) هو شرف الدين إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، شاعر شامي، عاصر الملك الظاهر غازي صاحب حلب، توفي سنة 627هـ. انظر: ابن الشّعار الموصلي، قلائد الجمان، مخطوط: 1/ 53؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ)، الوافي بالوفيات، باعتناء س ديدرينغ، ط2، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1982م: 6/ 126.

(2) هو المعتمد مبارز الدين إبراهيم بن موسى، بقي شحنة بدمشق فترة طويلة، وصف بحسن السيرة والصلاح، توفي بدمشق سنة 623هـ. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: 13/ 124.

(3) ابن دنينير، إبراهيم بن محمد (ت627هـ) ديوانه، تحقيق ودراسة: محمود شاكر سعيد، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة الأزهر، 1981م: 608.

وقد أكثر الشّعراء – كذلك – من هجاء الثّقلاء، وعبّروا عن ضجرهم من وجود هذه الصِّفة في بعض الأفراد. ومما جاء في ذلك قول الحكيم أميّة بن عبد العزيز[1]، في ثقيل دعته الظّروف- مكرهاً – لمجالسته والحديث معه[2]:

لـي جَلـيسٌ عَجِبْـتُ كَيْـفَ اسـتطاعَتْ ... هـــذهِ الأرضُ والجِبـــالُ تُقلُّـــهُ

أنــا أرْعَـــاهُ مُكْرَهـــاً وبقَلْبـــي ... مِنْـــهُ مـــا يُتْلِـفُ الحيــاةَ أقَلُّـــهُ

فهــوَ مِثْـلُ المَـــشيْبِ أكْـــرَهُ مَـــرآ ... هُ، ولَكِـــــنْ أصُـــونُهُ وَأجِـــلُّهُ

وشبيه بهذا تبرُّم ابن مطروح[3] من زيارة عائد ثقيل، في قدومه – كما يقول – ما يجلب الهمّ والمرض[4]:

وصـــاحبٍ عـــادني يومـــاً فـــأقْلَقَني ... حتّـى ظَنَنْـتُ رَسُـولَ المـــوتِ وافـاني

ولـــو أطالَ قليلاً لَـمْ يَطُـــلْ أجلـي ... وجـــــاءني غاسِـلي يَسْعَى بأكفـاني

أمّا البهاء زهير، فكان للثقلاء في هجائه نصيب كبير؛ فثمّة غير مقطوعة في ديوانه[5] تناولت نماذج منهم بالتّهكّم والسّخرية. وقد تبدّت في هذه المقطوعات روح

---

(1) هو الحكيم أمية بن عبد العزيز الأندلسي، شاعر له عدد من المصنفات. قدم من الأندلس، وأقام في مصر، توفي بعد سنة 522هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة(قسم شعراء المغرب)،تحقيق: محمد المرزوقي وآخرين، الدّار التونسيّة للنشر، 1966م:1/ 91.

(2) الحكيم أمية بن عبد العزيز، ديوانه، جمع وتحقيق وتقديم: محمد المرزوقي، دار أبو سلامة للطباعة، تونس، بلا تاريخ: 132.

(3) هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح، ولد ونشأ بصعيد مصر، كان على صلة بالملك الصالح نجم الدين أيّوب، توفي سنة 650هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 6/ 258-266؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 7/ 27.

(4) ابن مطروح، شعره، جمع وتحقيق ودراسة: جودة أمين علي، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة القاهرة، 1976م: 186.

(5) البهاء زهير، ديوانه: 87، 141، 199، 262، 274.

النّكتة والفكاهة التي تميّز بها شعر البهاء عامّة. ومن الأمثلة على ذلك قوله في أحدهم، مظهراً بلادته، وقلّة إحساسه الذي لا يطاق[1]:

وَعــائدٍ هُــوَ سُقْــمٌ ... لِكُــلِّ جِسْــمٍ صَحِيْــحِ

لا بالإشــارةِ يَــدْري ... ولا الكَــلامِ الــصّــرِيْحِ

وَلَيْــسَ يَخْــرُجُ حتّــى ... تَكَــادُ تَخْــرُجُ رُوحِــي

وفي مقطوعة ثانية يبدي امتعاضه من شيخ لحضوره في المجلس وطأة ثقيلة لا تسرُّ الجالسين، فيقول[2]:

كُلّــما قُلْنَــا استَرَحْنَــا ... جــاءَنا الــشَّيْــخُ الإمــامُ

فــاعْتَرانَــا كُلُّــنا مِنــ ... ــهُ انْقِبــاضٌ واحْتِــشَــامُ

فَهْــوَ في المَجْلِــسِ فَــدْمٌ[3] ... ولَنــا فهْــوَ فِــدامُ[4]

وَعَــلى الجمْلَــةِ فــالشَّيْــ ... ــخُ ثَقيــلٌ والــسَّــلامُ

وأحياناً يلجأ الشّاعر إلى تجميع أكبر قدر من المساوئ لقذف مهجوّيه بها، ولعلّ دافعه إلى ذلك هو المبالغة في الحطّ من شأن خصومه، والذّهاب في تحقيرهم أشواطاً بعيدة، نتيجة لما قد يعتمل في نفسه من مرارة وغضب عليهم. فقد هجا ابن المسجَّف العسقلانيّ جماعة يعرفهم، مصوِّراً خلوّهم من كلّ فضل، وتنافر أوصافهم، واتّصافهم

---

(1) المصدر نفسه: 57.

(2) المصدر نفسه: 236.

(3) فدْم: بغيّ أحمق.

(4) فدام: هو في الأصل ما يوضع في فم الإبريق لتصفية ما فيه.

بالبخل والجبن واللؤم، على الرّغم من محاولتهم تغطية هذه العيوب – كما يذهب – بما يملكون من مال[1]:

يا ربِّ كَيْفَ بَلوتَنِي بِعِصابَةٍ	ما فِيْهِمُ فَضْلٌ ولا إفْضالُ
متنافري الأوصافِ يَصْدقُ فيهم الـ	ـهاجي وَتَكْذِبُ فِيهِمُ الآمالُ
غطّى الثّراءُ على عُيُوبِهِمُ وَكَمْ	مِنْ سَوءةٍ غَطّى عليها المالُ
جُبناءُ ما اسْتَنْجَدتُهم لِلمَّةٍ	لؤماءُ ما اسْتَرْفَدْتُهُمْ بُخّالُ
فَوَجُوهُهُمْ عُودٌ على أموالِهِمْ	وَأَكُفُّهُمْ مِنْ دونِها أقْفالُ
هُمْ في الرّخاءِ إذا ظَفِرْتَ بِنِعْمةٍ	آلٌ، وَهُمْ عندَ الشّدائِدِ آلُ[2]

ويطول استعراض الأمثلة في هذا الجانب؛ إذ تناول الشعراء عيوباً أخرى كثيرة. فلم تكد تغيب عن ألسنتهم منقصة أو مذمّة. فرموا مهجوّيهم – مثلاً- بالجهل[3]، وقلّة الوفاء[4]، والتكبُّر والتعالي[5]، والكذب[6]، والخسّة والنّذالة[7]، وغير ذلك مما لا طائل من حصره، وتفصيل القول فيه.

وثمة من أفحش في هجائه، حتّى تجاوز حدود اللياقة والأدب، فطعن النّاس في أعراضهم، واستهتر بقيم المجتمع وأخلاقه. مستخدماً في ذلك ألفاظاً وتعابير نابية بذيئة،

(1) المصدر نفسه: 2/ 284.

(2) آل: الأولى بمعنى أهل، والثانية بمعنى: سراب.

(3) البهاء زهير، ديوانه: 49، 213.

(5) العماد الأصفهاني، الخريدة(قسم شعراء مصر): 2/ 161 (أبيات لأبي الغمر الإسناويّ)؛ فتيان الشاغوريّ، ديوانه: 123.

(6) ابن الساعاتيّ، ديوانه: 2/ 154.

(7) البهاء زهير، ديوانه: 263.

يمجّها الذّوق السّليم ويرفضها. ومع أنّ الدّارس لا يهدف إلى تحكيم الجانب الأخلاقيّ في تقويم هذا الهجاء فنياً، إلا أنّ مبالغة الشعراء في المكاشفة والمباشرة التي اقتربت - في أحيان كثيرة - من الشتيمة الجارحة، والسباب الفاضح، قد أفقدت شعرهم كثيراً من شروطه الفنية. إضافة إلى أنّ هذا الهجاء لم يكن - فيما أرى - ذا إصابة وتأثير، كذاك الهجاء الذي يقوم على الذكاء والتلميح، والدّعابة السّاخرة[1].

3

ولم يقف الشّعراء في هجائهم الشّخصيّ عند ذمّ المساوئ الخُلُقية والنفسيّة، وإنما تعدّوا ذلك إلى تفحُّص المظهر الخارجيّ (الشّكليّ)؛ فاستنبطوا من ذلك كثيراً من الصّور الطّريفة والهزليّة لبعض النّماذج البشريّة. ويلاحظ أنّ أغلب هذه الصّور قد قامت على تجسيم العيوب الخَلقيّة وتضخيمها؛ إذ يعمد الشّاعر إلى تناول ناحية خَلْقيّة ما من جسم أحد الأفراد، كالأنف أو اللحية أو غير ذلك، فيعيد تشكيلها، مصوّرها تصويراً (كاريكاتوريّاً) ساخراً . وقد تنوّعت المعاني الهجائيّة في هذا المجال؛ فهجا بعض الشّعراء الأنوف، وتناولوا أصحابها بالسُّخرية والاستهزاء. من ذلك - مثلاً - قول ابن السّاعاتيّ الذي يتهكّم من شخص يُلقَّب بالسَّديد، وكان كبير الأنف[2]:

يا مانعي صَفْوَ الوِصا ... لِ ومانحي كَدَرَ الصُّدود

ما ضَاقَتْ الدُّنيا عَلَيْـ ... ـيَ وَقَدْ حَوَتْ أنفَ السَّديد

---

(1) انظر - على سبيل المثال - نماذج من هذا الهجاء الفاحش في: فتيان الشّاغوري، ديوانه:259-260،ابن عنين، ديوانه: 186، 187، 189، 190، 191؛ ابن دانيال الموصليّ، المختار من شعره: 103، 203؛ ابن عُقيل الزُّرعي، أبو العباس أحمد (ت623هـ)، المختار من ديوانه، مخطوط، مكتبة طبقبوسراي، تركيا، رقم 2816: 52، 54.

(2) ابن الساعاتيّ، ديوانه: 1/ 232.

وقول ابن دُنينير في أحد القضاة، إذْ يعمد إلى تضخيم أنفه بصورة لافتة. وقد كان هذا الأسلوب هو الغالب على هجاء الشّعراء لهذه الخلّة[1]:

وكُنّا عملْنا للمُظَفّرِ دَعْوَةً ... لِيَحْضُرَ فيها عِنْدَنا يَومَ الاثنينِ

فَجاءَ وَلَكِنّي رَأَيْتُ عَجيْبَةً ... أتى أنْفُهُ مِنْ قَبْلِ ذاكَ بيومينِ

أمّا ابن قادوس، فله غير مقطوعة في هذا الغرض[2]. أكتفي باختيار واحدة منها، يتهكّم فيها من أنف صديق له، مبالغاً في التّضخيم من حجمه الذي بات – على حدّ قوله – يطاول السّماء[3]:

ورُبَّ أنْفٍ لِصَديْقٍ لنا ... تَحْديدُهُ لَيْسَ بِمَعْلُومِ

لَيْسَ على العَرْشِ لَهُ حاجِبٌ ... كَأنّهُ دَعْوَةُ مَظْلُومِ

وتعرّض بعض الشّعراء لهجاء اللّحى؛ ولعلّ دوافعهم لذلك – إضافة إلى التندُّر بهدف الإضحاك – تعرية سلوك بعض الأشخاص الذين قد يبدو مظهرهم المهيب – بفعل ما قد توحي به هذه اللّحية من وقار وتديُّن – بخلاف مخبرهم السّيء. ومن الأمثلة على ذلك ما قاله السَّراج المحّار[4] في صديق له يُدعى ابن سعد، مضمِّناً شعره عجز بيت لامرئ القيس. وقد أضاف إلى هذه اللحية المتهدِّلة أنفاً عظيماً أيضاً؛ بغية تصوير حاملها على أقبح هيئة[5]:

أرى لابْنِ سَعْدٍ لحيةً قَدْ تَكامَلَتْ ... عَلَى وَجْهِهِ واسْتَقْبَلَتْ كُلَّ مُقْبِلِ

(1) ابن دُنينير، ديوانه: 575.

(2) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء مصر): 1/ 234.

(3) المصدر نفسه .

(4) هو عمر بن مسعود الحلبي الكنانيّ، اشتهر بنظم الموشحات والأزجال، توفي بدمشق سنة 711هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 146.

(5) الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 147.

وَدَارَتْ عَلى أَنْفٍ عظيمٍ كَأَنَّهُ ... كَبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ[1]

ويطيل البهاء زهير في هجاء إحدى اللّحى، حين يستغرق هذا الهجاء خمسة وعشرين بيتاً؛ يُلحُّ من خلاله على استدعاء المعاني التهكّمية السَّاخرة، فيرمي صاحبها – أوّلاً – بالحمق وانعدام العقل. ثمّ يتناول هذه اللحية بشيء من التفصيل؛ فيصوّر حجمها الكبير الذي غطّى وجه صاحبها حتى بات – بفعلها- نكرة غير معروفة[2]:

وَأَحْمَقٍ ذي لِحْيَةٍ ... كبيرةٍ مُنْتَشِرَهْ

طَلَبْتُ فيها وَجْهَهُ ... بِشدَّةٍ فَلَمْ أَرَهْ

مَعْرِفَةٌ لَكِنَّهُ ... أَصْبَحَ فيها نَكِرَهْ

وإمعاناً في التّهكُّم، يشبِّهه بثور كان من شأنه – كما يقول الشّاعر – أن يعبد لو كان عجلاً، متأثّراً في ذلك بقصّة السّامريّ التي وردت في القرآن الكريم. ولا شكَّ أنّ تشبيهه بالثّور تحديداً فيه من السّخرية ما لا يخفى؛ فالتّشبيه بضخامة الجثّة قد يوحي – أحياناً- بشيءٍ من البلادة وقلّة الإحساس:

ثَوْرٌ غَدا أعْجُوبَةً ... بِلحْيَةٍ مُدَوَّرَهْ

لَوْ كانَ ذاكَ الثَّورُ عِجْـ ... ـلاً عَبَدتْهُ السَّمَرَهْ

تَبّاً لها مِنْ لِحيَةٍ ... كَبيرةٍ مُحْتَقَرَهْ

عظيمةٍ لكنَّها ... لَيستْ تُساوي بَعَرَهْ

---

(1) البجاد: الكساء المخطّط. والمُزمّل: الملفّف. وهذا العجز من بيت لامرئ القيس هو:

[كأنّ أبانا في أفانين وَدقِه ... كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مُزَمّل]

انظر: امرؤ القيس، ديوانه: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، 1958م: 25.

(2) البهاء زهير، ديوانه: 129– 130.

ثمّ يعود ليؤكّد حجم هذه اللحية الكبير، وذلك حين يجعلها أشبه بقرية، يسرح فيها النّمل ويمرح. وهي – لضخامتها – تكفي عدّة رجال:

كَمْ قَرْيَةٍ للنَّمْلِ في حافاتِها وَمَقْبَرَهْ
يُقْسَمُ عُشْرُ عُشْرِها يَكْفِي رِجالاً عَشَرَهْ

وكي يكفل الشّاعر لقصيدته قدراً أكبر من السخرية والاستهزاء، يلجأ إلى تجسيد عُيوب خَلْقيّة وخُلُقيّة أخرى؛ ليُكْسِب المشهد مزيداً من التندّر والإضحاك:

قَدْ نَبَتَتْ في وَجْهِهِ فَوقَ عِظامِ نَخِرَهْ
بارِدَةً ثَقِيلَةً مُظْلِمَةً مُنْكَدِرَهْ
كَأنّها سَحابَةٌ فَوْقَ البِلادِ مُمْطِرَهْ
ما كانَ قَطُّ ربُّها مِنَ الكِرامِ البَرَرَهْ

وهكذا يمضي الشّاعر في قصيدته، بمثل هذا الوصف المسهب، فيصوّر أنّ أقدام صاحبها تتعثّر بها بسبب طولها. وأنّ الأرض تعلوها غبرة حين يمشي. وهي – فوق كلّ هذا– نتنة خبيثة؛ لأنّها تُسقى بريق صاحبها الذي يبدو صورة من صور الزّمان العجيبة.

وفي إطار هجاء الشّعراء للصفات الجسديّة، تناول بعضهم حَدْبة الظّهر، فذهبوا إلى التندّر والتهكّم بمن يتّصف بها. وربما قصدوا من ذلك إلى الهزل والدّعابة بهدف إضحاك الآخرين. ولابن الذّرْويّ[1] في هذا المجال أبيات طريفة، يسخر فيها – بأسلوب لاذع فيه بعض المواربة – من أحدب، حين يعدُّ هذه الحدْبة – على سبيل السّخرية – مظهراً من مظاهر الحسن والجمال، فيشبّهها بالهلال، والقِسيّ الصّلبة القويّة التي لا تلين. ثمّ يبيّن أنّ الانحناء في منقار الطّير الجارح، ومخلب الأسد لم يكن عيباً في يوم من الأيّام، يقول[2]:

(1) هو الوجيه علي بن يحيى الذّرويّ. شاعر وقاض نشأ في مصر، وتوفي سنة 575هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: 3/ 113.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة(قسم شعراء مصر): 1/ 187– 188.

لا تَظُنَّنَّ حَدْبَةَ الظَّهرِ عَيْباً ... فهي للحُسْنِ مِنْ صِفاتِ الهِلالِ

وكذاكَ القِسيُّ مُحْدَوْدِباتٌ ... وهي أنْكى من الظُّبا والعوالي[1]

وأرى الانحناءَ في مِنْسَرِ الكا ... سرِ يُلْفَى ومِخْلَبِ الرِّئْبالِ[2]

ويمضي الشّاعر في هجائه، فيصوّر النّساء مفتونات بهذه الحَدْبَة، متمنيات أن تكون حدبة لكل الرِّجال. وتنتهي سخريته وتهكّمه حين يعبّر عن شوقه الدّائم لرؤية صديقه هذا، حتّى لو تمّ ذلك له في الأحلام، يقول:

ما رَأَتْها النِّساءُ إلاّ تَمَنَّتْ ... لَوْ غَدَتْ حِلْيَةً لكلِّ الرِّجالِ

وإذا لَمْ يَكُنْ مِنَ الهَجْرِ بُدٌّ ... فَعَسى أنْ تَزُورَني في الخَيالِ

ولا تكاد أبيات لابن دانيال الموصليّ[3]– في الموضوع ذاته – تخرج – كثيراً – عن المحاور التي تضمّنتها الأبيات السّابقة، سوى في محاولتها استقصاء المعاني بصورة أكثر إلحاحاً وتفصيلاً. ومما جاء في بعض أبياتها قوله[4]:

---

(1) الظّبا: جمع ظبة، وهي حدّ السّيف، والعوالي: الرّماح.

(2) منسر الكاسر: منقار الطّير الجارح. الرِّئبال: الأسد.

(3) هو شمس الدّين محمّد بن دانيال الموصلي، شاعر صاحب دعابة ونكتة، من مصنفاته، كتاب "خيال الطّيف"، توفي سنة 710هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزّاهرة: 9/ 215؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب: 6/ 27.

(4) ابن دانيال الموصليّ، المختار من شعره:234؛ وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض أشعار ابن دانيال الواردة في هذا المختار، قد وردت أيضاً على لسان بعض شخوص تمثيلياته (انظر: خيال الظّل وتمثيليات ابن دانيال، تحقيق: إبراهيم حمادة، المؤسسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1961)؛ مما قد ينفي ما تتضمنه من دلالة في هذا المجال، وقد اعتمدت – تجاوزاً لهذا الإشكال– ما ذهب إليه محقق هذا المختار الذي وجد– من خلال عمله في التحقيق – أن بعض أشعار النصوص الممثلة قد أقحمت إقحاماً بعد عصر المؤلف، لبعدها كما يرى– عن مقوّمات النّص الممثل عند ابن دانيال: انظر : ابن دانيال الموصلي، المختار من شعره: 23 (مقدمة المحقق).

https://www.books4arab.com

يا مُخجِلاً شَكْلَ الهِلالِ بِقَدِّهِ ... حاشاكَ أنْ تُعْزى إلى نُقْصانِ

ما عابَ قامتَكَ الحَسُودُ جَهالةً ... إلا أجَبْتُ مَقالَهُ بِبَيانِ

هَلْ يَحْسُنُ الجوكان إلا أنْ يُرى ... مَعَ أُكْرَةٍ في حَلْبَةِ المِيدانِ[1]

أمْ هَلْ يزينُ المَتْنَ إلا رِدْفُهُ ... حُسْناً فَكَيْفَ بِمَن لَهُ رِدْفانِ

وإمعاناً في السّخرية والزّراية، لجأ بعض الشّعراء إلى رَسْم مهجوّيهم بصورة غريبة، وتكوين متنافر، حتّى ليبدو المهجوّ، وكأنه خَلْقٌ على غير مثال البشر؛ فقد تناول ابن السّاعاتيّ – مثلاً – أحد الأشخاص، وشنّع في تصوير هيئته وقُبْح مظهره، وذلك حين نسبه إلى البهائم، وجرّده من جنسه الأدميّ[2]:

يلوحُ لنا في صورةٍ آدميّةٍ ... ولَيْسَ على التّحقيقِ مِنْ نَسْلِ آدَمِ

لَهُ شِبْهُ إنسانٍ إذا ما رأَيْتَهُ ... فَإنْ نَسَبُوهُ فهوَ إحدى البهائمِ

ويجسِّد عبد المحسن الإسكندريّ[3] صورة أعور، حيث يعمد إلى تضخيم هذا العيب الخَلْقيّ، بصورة هي أقْربُ إلى ما يُعرف اليوم بـ"الرّسم الكاريكاتوريّ"، يقول[4]:

وَأعْوَرُ العَينِ قُبْحُ مَنْظَرِهِ ... أثّرَ في عَيْنِ دَهْرِنا عَوَرا

ما كُنْتُ أدْري قُبَيْلَ أنْظُرُهُ ... أنّ المسيحَ الدَّجالَ قَدْ ظَهَرا

مَنْ قالَ إنّ الإلهَ خالِقُهُ ... فإنّهُ بالإلهِ قدْ كَفَرا

---

(1) الجوكان: المعقوف. الأُكْرة: الكرة.

(2) ابن الساعاتيّ، ديوانه: 1/ 137.

(3) من شعراء الخريدة، كان كثير الهجو، وله معرفة بصناعة الطّب والهندسة. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء مصر): 2/ 223.

(4) المصدر نفسه: 2/ 224.

وتخيّر بعض الشّعراء – في سبيل أن يكون لمثل هذا الهجاء قوّته وتأثيره – صوراً من الحيوانات والحشرات، فشبّهوا مهجوّيهم بها، للحطّ من مكانتهم، وتحقيرهم بين الناس؛ فقد شبّه ابن قلاقس وجه رجل يدعى "ابن عدلان" بوجه الحمار، مورداً ذلك بأسلوب جارح هو أقرب إلى الشّتائم والسّباب، يقول[1]:

يا ابنَ عَدْلانَ يا أخسَّ الرِّجالِ ... والذي تستحِقُّ نَتْفَ السِّبالِ[2]

لكَ وَجْهُ الحمارِ لكنْ عليهِ ... لِحْيَةٌ عُلِّقتْ كبعضِ المخالي[3]

وعمدوا إلى التّشبيه بأحقر الحشرات، وأضعفها بنية، لمحاولة تقزيم خصمهم، أو ربّما لإلغاء وجوده نهائياً، ويبدو مثل هذا في أبيات لابن السّاعاتيّ، يصوّر فيها حال نمّام من خلال الاتّكاء على أسلوب المفارقة الذي يجسِّد التّباين ما بين هيئته التي تبدو مثيرة للشّفقة، وما يصدر عنه من مساوئ فادحة الخطورة، مشبِّهه بالذّر – على ضعفه وصغر حجمه – لتحقيره والهزء منه[4]:

وَضَعيفُ البِناءِ عَنْ حَمْلِ ثَوْبَيْـ ... ـهِ قَوِيٌّ في نَقْلِ كُلِّ حَديْثِ

فَهْوَ لَوْ كَانَ مِثْلَ أُحْدٍ لما قَصْـ ... ـصَرَ عَنْ حَمْلِهِ بِسَيْرٍ حَثِيْثِ

هو كالذَّرِّ لا كَمِثْلِ أبي ذَرْ ... رِ وَكَمْ بَيْنَ طَيِّبٍ وَخَبِيْثِ

ولا يخفى ما في البيت الأخير من تكلُّفٍ واضح، نتج عن مجانسة الشّاعر المفتعلة بين كلمتي (الذّرّ) و (أبي ذرّ)!

---

(1) ابن قلاقس الإسكندريّ، ديوانه: 317 .

(2) السّبال: الشوارب.

(3) المخالي: جمع مخلاة وهي كيس العلف الذي يعلق في رقبة الدّابة.

(4) ابن السّاعاتيّ، ديوانه: 2/ 73.

2.هجاء الأهل والأقارب

من صور الهجاء الشّخصيّ هجاء الأهل والأقارب، إذْ تعرّض عدد من الشعراء لأقاربهم بالذّم والتّقريع. ولعلّ في هذا ما يكشف عن خلل كان يسود العلاقات الاجتماعيّة في بعض جوانبها[1]. كما أنّه قد يكون لنشأة كلّ شاعر دور في وجود مثل هذه الظّاهرة؛ فمن الشّعراء من كانت حياته سلسلة خيبات متتالية نشأت بفعل عوامل كثيرة؛ من مثل: الفقر والحرمان والتّربية غير السّويّة، انعكس صداها على شخصيّة الشّاعر وسلوكه، ومن ثمّ على علاقاته بمن يحيطون به من أقارب وأفراد، بل كان لمثل هذه النّشأة أثر في علاقة الشّاعر بنفسه التي لم تسلم من هذا الهجاء، كما سيتّضح بعد.

وكان لشخصيّة الأب نصيبها من هذا الهجاء، فهذا أبو عبد الله النّجار[2]، يرى أنّ أباه مُبرّاً من كلّ خير، فهو كالأفاعي الخبيثة التي لا تؤتمن[3]:

لي أبٌ كُـــلُّ مـا بـهِ يُوْصـفُ النّا ... سُ مِـــنَ الخَيْـرِ فهـوَ مِنْـهُ مُـبرّا

فهـو كالـصِّلِّ[4] مِنْ بنـاتِ الأفـاعي ... كُلّمـا زادَ عُمْـرُهُ زادَ شَـرّا

ويكيل ابن عُنين لأبيه كثيراً من المثالب والمساوئ، محمّله مسؤوليّة خموله عن إدراك المعالي، وبعده عن فِعْل الخيرات[5]:

وجنّبني أنْ أفعـلَ الخـيرَ والـدٌ ... ضَئِيْلٌ إذا مـا عُـدَّ أهـلُ المناسـبِ

---

(1) فوزي سعد عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسيّ، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ: 172.

(2) هو أبو عبد الله محمّد بن عليّ بن البواب الموصليّ النّجار، من شعراء القرن السادس الهجريّ، يُذكر أنه كان بمصر سنة 572 هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء الشّام): 2/ 392؛ الصّفديّ، الوافي بالوفيات: 4/ 159.

(3) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشّام): 2/ 392.

(4) الصّلّ: الخبيث من الحيّات.

(5) ابن عُنين، ديوانه: 239؛ وانظر في المعنى نفسه: ابن دانيال الموصليّ، المختار من شعره: 185.

بعيدٌ عن الحُسنى قريبٌ من الخَنَا ... وضيعُ مساعي الخيرِ جَمُّ المعايبِ

إذا رُمْتُ أنْ أسمو صُعُوداً إلى العُلى ... غَدَا عِرْقُهُ نَحْوَ الدّنيّةِ جاذبي

والأبيات تكشف عن إحساس دفين بالنّقص؛ فالشاعر يُقرُّ - صراحة -بعجزه عن أيّ إمكانيّة للسموّ أو الصّعود، بسبب من ضعة أصله - كما يقول - الّتي لم تساعده على شيءٍ من ذلك.

أمّا الزّوجة، فقد تعرّض لها غير شاعر، ومن الصّور الطّريفة التي تلقى الدّارس في هذا المجال، أبيات للبوصيريّ[1]، يشكو فيها حالته مع زوجه التي عكّرت - كما يرى - صفو أيّامه، وملأت داره بالبنين الذين ينوء كاهله عن تحمُّل تبعات تربيتهم. ويلمس من الأبيات - إضافة إلى ما فيها من روح الدّعابة والفكاهة - الوضع الاجتماعيّ المرهق الذي عاناه البوصيريّ، يقول[2]:

..وَبَلِيَّتي عِرْسٌ بُليتُ بِمَقْتِها ... والبَغْلُ مَمقُوتٌ بِغَيْرِ قِيامِ

جَعَلَتْ بإفلاسي وَشَيبي حُجَّةً ... إذا صِرْتُ لا خَلفي ولا قُدّامي

بَلَغَتْ مِنَ الكِبَرِ العِتِيّ وَنُكِّسَتْ ... في الخَلْقِ وهِيَ صَبِيَّةُ الأَرْحامِ

إنْ زُرْتُها في العامِ يوماً أَنْتَجَتْ ... وَأَتَتْ لِستّةِ أَشْهُرٍ بِغُلامِ

أوَ هذهِ الأولادُ جاءَتْ كُلُّها ... مِنْ فِعْلِ شَيْخٍ لَيْسَ بالقَوّامِ

---

(1) هو أبو عبد الله محمّد بن سعيد بن حماد المعروف بالبوصيريّ، شاعر مصري اشتهر بمدائحه النبويّة، توفي سنة 698هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 6/ 61-66؛ الكتبي، فوات الوفيات: 3/ 362-396.

(2) البوصيريّ، ديوانه، تحقيق: محمد سيّد كيلاني، ط2، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة،1973م: 254؛ وثمة قصيدة أخرى للبوصيريّ، عرض في مقطع منها بأسلوب قصصي ساخر حال زوجه التي تقوم بزيارة أختها، فتشكو لها تعاستها وسوء حالتها معه، ثمّ ما يكون من أمر أختها التي تقوم بدور تحريضيّ واضح حين "تهوّن من قدره في نفسها"، وتدعوها إلى أخذ حقّها منه، ويختتم أبياته بتصوير جانب من الشّجار الذي أشعلته الزّوجة حال رجوعها إلى البيت. انظر: المصدر نفسه: 167 .

وَأَظُنُّ أنَّهُمُ لِعُظْمِ بَلِيَّتِي	حَمَلتْ بِهِمْ لا شَكَّ في الأَحْلامِ
يا لَيْتَها كانَتْ عَقِيماً آيِساً	أو لَيْتَنِي مِنْ جُمْلَةِ الخُدَّامِ
أو لَيْتَنِي مِنْ قَبْلِ تَزْويجي بها	لو كُنتُ بِعْتُ حَلالَها بِحَرَامِ

ويقارب هذا الموقف، أبيات لابن دانيال الموصليّ، يربط - من خلالها - سبب شقائه بزوجه التي كانت - كما يرى - وراء تعاسته وبؤسه، وغيابه عن واقع الحال، فبدا فاقد الإدراك بما حوله، يقول[1]:

.. لكَ أشْكُو مِنْ زَوْجَةٍ صَيَّرتْني	غَائِباً بَيْنَ سائرِ الحُضَّارِ
غِبتُ حتّى لو أنّهُمْ صَفَعُوني	قُلْتُ كفُّوا باللهِ عَنْ صَفْعِ جاري
فنهاري مِنَ البَلادةِ لَيلٌ	في التّساوي والليلُ مِثْلُ النّهارِ
دار رأسي عَنْ بابِ داري فباللـ	ـهِ اخبروني يا سادتي أينَ داري

وقد أفحش بعض الشّعراء في هجاء زوجه. ومن هؤلاء ابن روبيل الأبّار[2] الذي كان - كما يقول العماد - مع نسكه وعِفّته، مُغرىً بهجو زوجته[3]. وممّا جاء في بعض هذا الهجاء قوله فيها[4]:

لي قِطَّةٌ أنْظَفُ مِنْ زَوْجتي	و . . . أنْظَفُ مِنْ فِيْها
وَكُلُّ ما صوّرهُ ربُّنا	مِن الخَنا ركَّبهُ فِيْها

---

(1) ابن دانيال الموصليّ، المختار من شعره: 161-162، وللاستزادة انظر: 237-238.

(2) هو أبو محمد الحسن بن يحيى بن روبيل الأبّار، من أهل دمشق، وُصف بتدينه ونسكه، توفي سنة 532هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشّام): 1/ 261.

(3) المصدر نفسه: 1/ 262.

(4) المصدر نفسه.

وفي إطار هجاء الأقارب، يجد أبو الحسين الجزّار[1] في زوج أبيه الطّاعنة في السّنّ، مجالاً للتندّر والسّخرية؛ إذ يتناول جوانب معيّنة من هيئتها، فيصوّرها تصويراً ساخراً، يُظهر قُبحها وبشاعتها[2]:

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ أبي شَيْخَةً ... لَيْسَ لها عَقْلٌ ولا ذِهْنُ
لو بَرَزَتْ صُورَتُها في الدُّجى ... ما جَسَرَتْ تُبْصِرُها الجِنُّ
كَأنّها في فَرْشِها رِمَّةٌ ... وَشَعْرُها مِنْ حَولِها قُطْنُ
وقائلٍ قالَ لي ما سِنُّها ... فَقلتُ ما في فَمِها سِنُّ

وحين يموت أبوه، يجعلها السّبب في ذلك، مستمراً أسلوب الفكاهة الذي عُرف به[3]:

أذابتْ كِلى الشَّيخِ تِلْكَ العَجُوزُ ... وَأَرْدَتْهُ أنفاسُها المُرْدِيهْ
وَقَدْ كانَ أوصى لها بالصّداقِ ... فما في مُصِيْبَتِهِ تَعْزِيهْ
لأنّيَ ما خِلْتُ أنَّ القتيلَ ... يوصي لقاتِلِهِ بالدِّيهْ

ويبدو مثل هذا التعريض عند ابن عُنَين الذي شمل هجاؤه نماذج بشريّة متعدِّدة منها حماته التي تشجّع ابنتها، وتحثّها على لطم وجهه، والإقذاع له في القول على نحو ما يذهب[4]:

أشْكُو إلى اللهِ حماتي فما ... يَعْلَمُ ما لاقَيْتُ منها سِواهْ

---

(1) هو جمال الدين يحيى بن عبد العظيم، شاعر مصري، عمل بالجزارة، كان صاحب فكاهة ومجون، توفي سنة 679هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: 4/ 277.

(2) الكتبيّ، فوات الوفيات: 4/ 292.

(3) الكتبيّ، فوات الوفيات: 4/ 292.

(4) ابن عُنين، ديوانه:133.

https://www.books4arab.com

عَجُـــــوزُ ســوءٍ لَــوْ رَأتْ قَــوْدَةً ... في النَّسرِ طــارتْ بجناحيْ قَطَـاهْ

تَقُـــولُ للبنــتِ الْطُمِـي خَــدَّهُ ... ولا تُهابيـهِ وصُــكّي قَفَــاهْ

وباهِتِيْـــهِ إنْ رَأى رِيْبَـــةً ... وابْكـــي وسُبّيهِ وسُبّي أبــاهْ

أمّا كمال الدّين بن العديم[1]، فيبدي توجّسه وريبته من ابن العمّ، ومن كلّ قريب، فيعمد إلى التّلاعب بالحروف لاستدعاء معانٍ مختلفة، مما جعل التكلُّف في أبياته ظاهراً[2]:

احـذرْ مِـن ابـنِ العَـمِّ فهـو مُـصَحّفٌ[3] ... ومِـنَ القريـبِ فإنّـما هـو أحـرفُ

القــافُ مِـــنْ قَبْـرٍ غـدا لـكَ حـافِراً ... والـرّاءُ مِنْـهُ رَدىً لِنَفْسكَ يَخْطَـفُ

واليـــاءُ يَـأْسٌ دائـــمٌ مِـنْ خَيْـرِهِ ... والبـــاءُ بُغْـضٌ مِنْـهُ لا يَتَكيَّـفُ

فاقْبَـــلْ نَـصِيحَتِيَ الــتي أهْـديتُها ... إنّـي بأبنـــاءِ العُمُومَـةِ أعْـرَفُ

ووُجِدَ من الشّعراء من تَعرَّض لنفسه بالهجاء. ولعلّ بعض هذا الهجاء كان يرد في سياق الدّعابة والفكاهة. و بعضه - فيما يبدو - كان بتأثير من طبيعة الشّعراء؛ فكثيراً ما كان هذا الهجاء يقترن بالشّعراء الذين عانوا من وطأة ظروف قاسية، كالفقر والحرمان، وسوء المعاملة، ودمامة الخَلْق؛ مما ولّد لديهم ردّة فعل غاضبة تجاه كلّ شيء حتى أنفسهم التي لم تكن بمأمن من ألسنتهم. فهذا ابن مكنسة[4]، يرسم لنفسه صورة ساخرة تثير في

(1) هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، كان محدّثاً ومؤرخاً، ولي قضاء حلب، وتوفي سنة 660هـ. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء: 16/ 5؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 126.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: 16/ 54.

(3) أي غمّ، والتصحيف: تغيير في الكلمة بإعجام أو إهمال.

(4) هو إسماعيل بن محمّد الإسكندريّ، عاش في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريّين. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء مصر): 2/ 203؛ الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 194.

النّفس التندّر والضّحك، بقدر ما تثير – في الوقت ذاته – البؤس والحزن، وذلك إذ يقول[1]:

أنا الذي حدّثكمْ عنْهُ أبو الشَّمَقْمقِ[2]
وَقالَ عنّي إنّني كُنتُ نديمَ المتّقي
حتّى متى أبقى كذا تَيْساً طويلَ العُنُقِ
بلحيةٍ مُسْبَلةٍ وشاربٍ مُحَلَّقِ
يا ليتَها قَدْ خُلِقتْ مِنْ وَجْهِ شيْخٍ خَلَقِ

أمّا عرقلة الكلبيّ، فقد هجا نفسه غير مرّة. ولعلّ ذلك يعود إلى فكاهته وخفّة روحه. كما أنه قد يكون لدمامة خَلْقِه – وما قد يخالط ذلك من شعور بالدّونيّة والنّقص – أثرٌ في توجّهه هذا؛ إذ وصفَ بأنّه كان شيخاً قصيراً أعور[3]، وهو يذكر هذا – صراحة – في مثل قوله[4]:

مولايَ إنّ الكَلْبيَّ عَرْقلَةً مِثْلُ المُعَيْديِّ صاحبِ المَثَلِ[5]

---

(1) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء مصر): 2/ 214.

(2) هو مروان بن محمّد الملقّب بأبي الشّمَقْمَق، شاعر هجّاء، من أهل البصرة، توفي نحو 200هـ. انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ)، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، 1969م: 1/ 225؛ الزركلي، الأعلام: 7/ 209.

(3) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشّام): 1/ 178.

(4) عرقلة الكلبيّ، ديوانه: 86.

(5) يشير إلى المثل: تسمع بالمعيديّ خير من أن تراهْ الذي يضرب لمن خبره خير من مرآه. انظر: الميدانيّ، أحمد بن محمد (ت518هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، ط3، دار الفكر، بيروت، 1972م: 1/ 129.

ويرسم لنفسه – في موضع آخر – صورة ساخرة، يجسِّد – من خلالها – قُبْح هيئته حين يقارنها بغلام رشيق أحبّه، فيبدو البون بينهما واسعاً، والاختلاف كبيراً[1]:

لـي حَـبيبٌ قَـدُّه قُـدْ ... دَ مِـنَ السُّمْـرِ الرِّقـاقِ

مَـنْ رآهُ ورآنـي ... قـالَ ذا غَـيْرُ اتّفـاقِ

أغـورُ الدّجّـال يَمْـشي ... خَـلْفَ عـوجِ بـنِ عنـاقِ[2]

وأخيراً فقد مال بعض هذا الهجاء إلى التّعميم، وذلك حين يلجأ الشّاعر إلى الشكوى من أقاربه دون أن يخصّص أحداً منهم. ويبدو مثل هذا في الأبيات التالية التي أرسلها أسامة بن منقذ إلى والده، بعدما ساءت العلاقة بينه وبين بعض أبناء عمومته، مصوّراً فيها أحقاد أقاربه عليه، ويأسه من إصلاح ذات البين معهم، وذلك إذ يقول[3]:

.. دَعْنِـيْ وَقَطْـعَ الأَرْضِ دُوْنَ معاشـرٍ ... كَـلٌّ علـيَّ لِغَـيرِ جُـرْمٍ مُحْنِـقُ

تغْلي عـليّ صُدُوْرُهمْ، مِنْ غَـيْظِهِمْ ... فَتَكَـادُ مِـنْ غَـيْظٍ علـيّ تَحـرَّقُ

أعيَـا عـليَّ رِضَـاهُمُ، فَيئِسْتُ مِـنْ ... إدراكِـهِ، مـا النّجْمُ شـيءٌ يُلْحَـقُ

قَـدْ أفْسَدُوا عيْشي علـيَّ، وعَيْشَهُمْ ... فأنا الشَّقِـيُّ بِهمْ، وبـي أيضاً شَـقُوا

فَـضْلُ الأَقـاربِ بِـرُّهُمْ وحُنـوُّهُمْ ... فـإذا جَفَـوني، فالأباعِـدُ أرْفَـقُ

بَيْنِـي وبَيْـنَهُمُ هِنَـاتٌ في الحَـشَا ... مِنْهـا نُـدُوبٌ، مـا بَقِيْتُ ومـا بَقُـوا

---

(1) عرقلة الكلبيّ، ديوانه: 67، وللاستزادة من هجائه لنفسه انظر الصفحات: 13، 35، 63.

(2) عوج: هو عوج بن عوق: رجل كان يوصف بالطّول الخارق، يقال بأنّه ولد في عهد آدم، وعاش إلى زمن موسى ومات على يديه. انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ)، الحاوي للفتاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م: 2/ 341.

(3) أسامة بن منقذ، ديوانه: 178؛ وفي هذا المعنى انظر: المصدر نفسه:165.

وأبيات أسامة هذه لا تحمل هجاء صريحاً وقاسياً لأقاربه، إذ لا يكاد الدّارس يعثر على مثل هذا النّمط من الهجاء في ديوانه كلّه، وهي أقرب إلى الشّكوى، وبثّ مواجد نفسه وأشجانه.

أمّا مجير الدّين بن اللّمطيّ[1]، فيحسُّ بغربة ثقيلة حين لا يجد من بين أقاربه من يؤنس وحشته، ويخفّف من وطأة وحدته؛ مما يدفعه إلى اليأس من واقعه الذّي لا يرى فيه أيّ خير[2]:

أقلّبُ طَـرْفي لا أرى لـيَ مُـؤْنِـساً لَعَمْـرُكَ فِـيهمْ غَيْـرَ طِـرْسٍ مُنَمَّـقِ[3]

يُحدِّثُني عَـنْ حُـسْنِ أحْـوالِ مَـنْ مَضى ويُخْبِرُني عَنْ قُبْـحِ أحْـوالِ مَـنْ بَقِـي

3. التهاجي بين الشّعراء

1

شهد شعر مصر والشّام زمن الحروب الصّليبيّة عددًا من المساجلات الهجائيّة بين بعض الشّعراء. ويلاحظ أنّ هذه المساجلات لم تكن تأخذ صورة منظّمة محترفة، كما هو الشّأن - مثلاً - في النّقائض الأمويّة، وإنما كانت - في أغلبها - مقطوعات قصيرة، جاءت وليدة حادثة فرضها واقع الحال.

وأوّل ما يلقى الدّارس في هذا المجال، ما وقع بين ابن منير الطّرابلسيّ وابن القيسرانيّ[4]. ومن الطّبيعي أن تكون المنافسة بين هذين الشّاعرين على أوجها؛ فقد كانا

---

(1) هو عمر بن عيسى، مجير الدين اللّمطيّ، شاعر ونحويّ مصريّ، توفي في قوص سنة 721 هـ، وله من العمر 83عاماً. انظر: الأدفويّ، كمال الدين جعفر (ت748هـ)، الطّالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصّعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، الدار المصريّة العامة للتأليف، القاهرة، 1966م: 448.

(2) الأفوديّ، الطّالع السّعيد: 452.

(3) الطّرْس: الصحيفة، أو الكتاب الذي محي ثم كُتب.

(4) هو عبد الله محمّد بن نصر بن صغير القيسرانيّ، شاعر مجيد، كان هو وابن منير الطرابلسي شاعري الشام في عهد الملك العادل نور الدين زنكي، توفي سنة 548هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة

من أكبر شعراء العصر، وهما – كما يصفهما العماد – "كفرسي رهان وجوادي ميدان"[1].
ويمكن أن يكون – كذلك – لمذهب كلٍّ منهما أثر في هذه العداوة؛ فقد كان "القيسراني سنيًّا متورِّعًا، وابن منير مغاليًا متشيّعًا"[2]. غير أنّه لم يصل إلينا من مهاجاتهما هذه – فيما يبدو – سوى النّزر القليل[3]. من ذلك ما قاله ابن منير حين دخل ابن القيسرانيّ دمشق، فصادف دخوله إيّاها حدوث حريق كبير، نتج عنه أعمال من السّلب والنّهب. وقد استغلّ ابن منير هذه الحادثة في هجائه، ليصبّ – من خلالها – جامّ غضبه، ويسدِّد نافذ سهامه إلى خصمه، يقول[4]:

يـا طـويسَ الـشّؤمِ هـذي الحركـةْ	أَلْحقَـتْ جِـلّقَ بالْمُؤْتَفِكَـهْ
جِئتَهـا تُذْكِـرُها عَهْـدًا مـضى	مِـنْ تَـوالي الفِتَنِ الْمُشْتَبِكَهْ
يـا رَسـولَ القَـدَرِ الحـتْمِ إلى	كُـلِّ مَـنْ سـدَّ عليها مَـسْلَكَهْ
يـا أبـا الكَعْـبِ الـذي مـا حـطَّ في	بُقْعَـةٍ إلا أطـارَ البَرَكـةْ
لَـكَ رِجْـلٌ قُطِعَـتْ لـو جُمِعَـتْ	تَحْـتَ كيـوانَ لَهَـدَّتْ فَلَكَـهْ

=(قسم شعراء الشام):1/ 96؛ ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: 19/ 64؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: 4/ 458.

(1) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشّام): 1/ 76.

(2) المصدر نفسه.

(3) مما يؤكد كثرة الشعر الذي قيل في ذلك، شيوع أمر هذه الخصومة، واستحواذها على اهتمام بعض مؤرخي الأدب في تلك الفترة. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشّام): 1/ 79؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء:19/ 64؛ أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين: 1/ 293.

(4) ابن منير الطّرابلسيّ، شعره، مخطوط رقم (210)، مكتبة أمبروزيانا (وعنه شريط مصوّر في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنيّة):150.

ولا تكاد الأبيات في مضمونها، تخرج عن هذه الفكرة، وهي الإلحاح على ما كان يتّصف به ابن القيسرانيّ من شؤم وسوء طالع، لذا نجده يدعو حاكم دمشق إلى إخراجه منها؛ لأنّه – كما يصوّره – مصدر كلّ بؤس وشقاء:

يا مُجيرَ الدِّينِ مَنْ دَلّ على ... رَبْعِكَ المَأهولِ هَذي الهَلَكَهْ

مَنْ رَمى مَغْناك، لا ريعَ، بِمَنْ ... كُلُّ مَنْجَاةٍ نَحاها مَهْلِكَهْ

مَنْ إذا لاحقَ شَمْلاً بَتّهُ ... وإذا عَنَّ لِوَصْلٍ بَتَكَهْ[1]

أيّ دارٍ أمّها ما غمّها ... أيّ سِتْرٍ ضمّهُ ما هتَكَهْ؟

أمّا ما قاله ابن القيسرانيّ في ابن منير، فيبدو أنّ أغلبه قد ضاع؛ إذ لا يعثر الدّارس منه إلاّ على قوله[2]:

ابنَ مُنيرٍ هجَوتَ مِنّي ... حِبْرًا أفادَ الوَرى صَوابَهْ[3]

ولم تُضيِّقْ بِذاكَ صَدْري ... فإنّ لي أسوةَ الصّحابَهْ

ويتّضح من هذين البيتين ما للعامل المذهبيّ – كما ذكر – من أثر في هذا الهجاء. والبيتان لا يتضمّنان هجاء بقدر ما يدلان على نفس متسامحة غير آبهة بالخصومة والبغضاء.

---

(1) بتكه: قطعه.

(2) ابن القيسرانيّ، شعره، جمع وتحقيق ودراسة: عادل جابر، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأردنية، عمان، 1987م: 93.

(3) الحَبْر: بفتح الحاء المهملة وكسرها: العالم الصالح.

ولم يقتصر هجاء ابن منير على ابن القيسرانيّ، وإنما امتدّ ليشمل شعراء آخرين، فهو – كما وصف – "خبيث اللّسان .. لا يسلم أحد من هجائه"[1]. ومن هؤلاء أبو نزار النّحويّ[2]، المعروف "بملك النحاة"؛ حين يتّخذ من روح الدّعابة والنّكتة، وسيلة لهجائه والغمز في جوده وشجاعته، يقول[3]:

عَتَبْتُ على قِطٍّ ابْنِ منيرٍ ... وَقُلْتُ: أتيتَ بِغَيرِ الصّوابِ

جَرَحْتَ يدًا خُلِقَتْ للنّدى ... وبَذْلِ الهِبَاتِ وَضَرْبِ الرِّقابِ

فَقَالَ ليَ القِطُّ: وَيْكَ انْتَبِهْ ... ألَيسَ القِطاطُ عِداةَ الكِلابِ؟!

ومما قاله فيه – أيضًا – ساخرًا من صنعته في النّحو، متّهمًا إياه بالعجمة والجهل وسوء القياس[4]:

أيا مَلِكَ النَّحوِ، والحاءُ مِنْ ... تُهَجِّيهِ مِنْ تَحْتُ قَدْ أعْجَمُوها[5]

أتانا قِياسُكَ هذا الذي ... يُعَجِّمُ أشْياءَ قَدْ أعْرَبُوها

ولَمّا تَصَنَّعْتَ في "العاصويّ" ... غَدًا وَجْهُ جَهْلِكَ فيهِ وَجُوها

(1) ابن فضل العمري، شهاب الدّين أحمد (ت749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوط، إصدار فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربيّة والإسلاميّة، في إطار جامعة فرانكفورت، 1988م: 15/ 518.

(2) هو أبو نزار بن أبي الحسن صافي بن عبد الله، المعروف بملك النّحاة، خرج من العراق، واستوطن الشّام، توفي سنة 568هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 2/ 92.

(3) ابن منير الطّرابلسيّ، ديوانه: 124؛ وتنسب الأبيات – بتغيير طفيف في بعض كلماتها – إلى فتيان الشاغوري. انظر: ديوانه: 30.

(4) المصدر نفسه: 137

(5) يعني صيّروا لفظ "النحو": نجواً، وهو ما يخرج من البطن من ريح وغائط.

وَقالُــــوا قَفَــا الــشَّيْخُ إنّ الملــو   كَ إذا دَخَلُــوا قَرْيَــةً أفْــسَدُوهــا[1]

وقد كان لهذه الأبيات – فيما يبدو – تأثيرها في نفس أبي نزار الذي يردُّ عليه بأبيات أخرى – من البحر والقافية ذاتهما – يتّهم فيها ابن منير بسرقة أشعار غيره، ونسبتها إلى نفسه، معرِّضًا بسوء خلقه وكثرة هجائه النّاس[2]:

أيــا ابــنَ منــــيرٍ حَـسبْتَ الهجا   ءَ رُتْبَـةَ فَخْــــرٍ، فَبالَغْــــتَ فيهـا

جَمَعْـــــتَ قـــوافيَ مِــــنْ ذا وذا   وَأصْبَحْـــتَ مُنْتَحِـــلاً تــدَّعيها

وَقالُــــوا: قَفَــا الــشَّيْخُ إنّ الملــو   كَ إذا أخطــــأتْ سُــوقَةٌ أدَّبُوهــا

ولم يكن ابن منير – في المقابل – بمنأى عن ألسنة الشّعراء؛ إذْ تصدّى له – غير أبي نزار – شعراء آخرون، من مثل أبي الحكم المغربيّ[3] الذي أمعن في السّخرية منه، وكال له من المثالب والمساوئ الكثير، ومن ذلك قوله[4]:

وهــــو عـــــلى خِفَّــــةٍ بـهِ أبـدًا   مُعْــــتَرِفٌ أنّــــهُ مِـنَ الثُّقَــــلا

يُمــــــتُّ بالثَّلْــبِ والرَّقاعـــةِ والـسْـ   ـسُخْفِ، وأمّــا بما سِــواهُ فـلا

---

(1) اقتباس من الآية 34 من سورة النَّمْل.

(2) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، حقّقه وشرحه: محمد بهجة الأثري، وزارة الإعلام العراقية، بلا تاريخ: 3/ 1/ 136.

(3) هو أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الأندلسيّ، وصف بلهوه ومجونه، قدم من الأندلس وأقام في الشّام حتى وفاته سنة 549هـ. انظر: ابن أبي أُصيبعة، أحمد بن القاسم (ت668هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ: 614-627.

(4) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر، الفجالة، بلا تاريخ: 4/ 1/ 382؛ وتنسب الأبيات – كذلك – لعبد المنعم الجلياني. انظر: ابن سعيد الأندلسيّ، الغصون اليانعة: 106.

إنْ أنتَ فـائحْتَـهُ لِتَخْبُـرَ مـا ... يَـصْـدرُ عَنْـهُ فَتَحْتَ مِنْهُ خَـلا

وكان لابن قادوس في المهجاة أسلوبه الخاصّ الذي تميّز بروح الفكاهة والدُّعابة. ومن الشّعراء الذين أكثر من هجائهم الرّشيد بن الزّبير[1]. ومن أهاجيه فيه قوله متهكّماً من سواد لونه[2]:

يـا شِبْـهَ لُقْـمانٍ بِلا حِكْمَـةٍ ... وخـاسِرًا في العِلْـمِ لا راسِـخا

سَلَخْـتَ أشعـارَ الـورى كُلَّهـا ... فَـصِرْتَ تُـدْعى الأسـودَ الـسَّالخا[3]

فهو يتّهمه – زيادة على ذلك – بالجهل، والسّطو على أشعار الآخرين وسرقتها. ويلاحظ استحواذ هذا المعنى الأخير على اهتمام كثير من الشّعراء الذين حرصوا على الطّعن في مقدرة خصومهم الشّعريّة؛ وهم إمّا يتّهمونهم بالسّرقة والسّطو كما بدا في الأبيات السّابقة. أو بفساد هذا الشّعر وضعفه؛ فقد تعرّض ابن عُقَيل الزُّرَعي[4] لأحد الشّعراء المصريّين، وراح يحطّ من قيمة شعره، ويسخر من تفاهة معانيه، وفساد صياغته، وذلك إذ يقول[5]:

يـا أديبًا في الـرّأي غَيْـرَ حَـصِيفِ ... وسَـخِيْفًا أتـى بِـشِعْرٍ سَـخِيْفِ

(1) هو الرشيد أبو الحسين أحمد، تولّى أمر بعض الدّواوين في الإسكندرية، قتل سنة 563هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 1/ 160.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان: 1/ 163.

(3) الأسود هو الثعبان، والتورية واضحة.

(4) هو أبو العباس أحمد بن عُقيل بن نصْر الزُّرعيّ العامريّ، كان على صلة بالملك المعظّم عيسى بن أبي بكر الأيّوبيّ، مات شاباً سنة 623هـ. انظر: ابن الشعار الموصليّ، قلائد الجمان، مخطوط: 1/ 245؛ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربيّ، نقله إلى العربية: رمضان عبد التواب، ط3، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ: 5/ 50.

(5) ابن عُقيل الزُّرَعيّ، المختار من ديوانه: 51.

جـــــاءَنا شِـعْرُكَ الثَّقيـلُ المعـاني بـــــارداً نَظْمُـهُ بِـــوَزْنٍ خَفيْـفِ

مــــا انْتَقَـدْنا مـــا قُلْـتَ إلا وَجَـدْنا هُ عـــــلى نَقْـدِهِ كَـــثيرَ الزّيـوفِ

فلهــــــذا كَـــلامُكَ الفاسِـدُ الـصِّيـ ـغَةِ مُلْغـىً لعلّـــــــةِ التّـصريفِ

غير أن الناظر في الأبيات السّابقة، يلاحظ أنّ ابن عُقيل قد وقع فيما اتّهم به غيره.

ولعل تكرار الشّعراء لهذه الفكرة، يعود إلى رغبتهم في سلب أندادهم وتجريدهم من شاعريّتهم التي كانت الميدان الذي فيه يتفاخرون. ذلك أنّ كثيراً من هذه المهاجاة كان بدافع المنافسات الأدبيّة.

أمّا ابن السّاعاتيّ، فقد كان له عدد من الأهاجي في الشّاعر المصريّ ابن سناء الملك[1]، ويتّضح منها أنّ العلاقة بين الشّاعرين لم تكن – على ما يبدو – وديّة، ولعلّ ذلك بسبب من الخصومات الأدبيّة التي قد تقوم بين الشّعراء. كما يمكن أن يكون لتعصُّب كلٍّ من الشّاعرين لموطنه دور في مثل هذه الخصومة؛ إذ صرّح ابن السّاعاتي – في غير موضع – بتعرُّض ابن سناء الملك لأهل الشّام بالذّمّ والشّتيمة. يبدو ذلك – مثلاً – في الأبيات التالية، التي يشهّر فيها – إلى جانب هذه الفكرة – ببخل ابن سناء الملك، وسوء معشره، يقول[2]:

نَـــزَلْنــــا علـى شاعـــرِ البَلْـدَتينِ نُـزُولَ الجِيـــــاعِ عَلَـى المُعْـــدَمِ

فَــــلا باليـدينِ أجــــــادَ القِـرى ولا المَــــذْقَ أَحْـسَنَـهُ بالفَـــمِ

وَأَقْبَـــــلَ يَـشْتِمُ أَهْــــلَ الـشّآمِ ولـــــولا الحَــــماقةُ لَمْ يَـشْتُمِ

وَبــــاتَ يَـذُمُّ الخفــــيفَ الثّقيـلَ خَفِيـــفُ الدِّمـــاغِ ثَقِيلُ الـدَّمِ

(1) هو القاضي السّعيد هبة الله بن القاضي الرشيد، شاعر ووشّاح مصريّ، توفي سنة 608هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم شعراء مصر): 1/ 64؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: 6/ 61-66.

(2) ابن الساعاتيّ، ديوانه: 2/ 38.

وفي أبيات أخرى، يصوّر ابن السّاعاتيّ شدّة بخل ابن سناء الملك – ورميه إيّاه بالبخل يكاد يتكرّر في معظم أهاجيه له – من خلال وصف ليلة حلّ فيها ضيفاً عليه؛ إذ لا يجد عنده – كما يقول – سوى المهانة وعدم التّقدير[1]:

أجاءَني القاضي السَّعيدُ وَلَمْ أَكُنْ بأوّلِ ضَيفٍ في مَغانيهِ جائعِ

أَقَمْتُ لَديْهِ لَيْلَةً نابغيّةً عزيزَ كَرى الأَجْفانِ حَزْنَ المضاجعِ

وما مِنْ قِرىً غَير الزُّلالِ بِرَبْعهِ وَذاكَ قِرى مَنْ باتَ ضَيْفَ الضَّفادِعِ

ولم يقف ابن السّاعاتيّ في هجائه ابن سناء الملك عند هذا الحدّ، وإنّما راح يرميه بمثالب أخرى كثيرة، من مثل: وصفه بالعِيّ واللكنة، وفساد الأخلاق والتّشيّع، وغير ذلك[2]. ومع هذا فقد كان حظّ هذه الأهاجي من الوجهة الفنيّة قليلاً.

---

(1) المصدر نفسه: 1/ 115 .

(2) انظر: المصدر نفسه: 2/ 39، 2/ 40، 2/ 403؛ غير أنّ رميه بالتشيع يحتاج إلى وقفة حذرة متأنية؛ فقد نال ابن سناء الملك عند كلّ من السلطان صلاح الدّين الأيوبيّ وكاتبه القاضي الفاضل، وكلاهما سنّي، حظوة بالغة من غير المعقول أن ينالها شاعر شيعيّ. ثمّ إنّ رميه بالتشيع لم يرد في ديوان ابن الساعاتيّ إلا في بيت واحد قاله حينما سقط ابن سناء الملك عن جواد له كان يسمّى الجمل، وهو قوله:

أبغضتَ بالطّبعِ أمّ المؤمنين ولَمْ تُحْببْ أباها فجاءتْ وقعةُ الجملِ

(ديوانه: 2/ 403)؛ إذ يبدو أنّ الذي دفعه لذلك هو اسم الجواد الجمل على سبيل المماحكة والتورية لا أكثر. انظر تفصيل ذلك في: شوقي ضيف، عصر الدّول والإمارات (مصر)، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1990م: 205.

ومن المساجلات الهجائيّة التي يجدها الدّارس في شعر هذه الفترة، ما قاله شهاب الدّين التّلّعفري[1] في سُليمان بن بُلَيْمان[2]، متّبعاً في سخريته منه أسلوب الفكاهة حين يربط بين حادثة وقوعه عن بغلته وعقوقه والديه، يقول[3]:

سَمِعْتُ لابْنِ بُلَيْمانِ وَبَغْلَتِهِ أُضْحُوكَةً، خِلْتُها إحدى قصائدهِ

قالُوا: رَمَتْهُ، وَداسَتْ بالنِّعالِ على قَفاهُ، قُلْتُ لَهُمْ: ذا مِنْ عَوائدِهِ

لأنّها فَعَلَتْ في حقٍّ والدِها ما كانَ يَفْعَلُهُ في حقِّ والدِهِ

أمّا ابن بُلَيْمان، فيصف – بدوره – التَّلّعْفَرِيّ، وصفاً ساخراً من خلال تصوير قُبح وجهه وسوء منظره. وهو لا يكتفي بتجسيد هذه الجوانب الخارجيّة من شخصيّته، وإنّما ينفذ إلى جانب آخر، لعلّه أكثر إيلاماً وإصابة، وهو الشّك في صحّة نسبه. بيد أنّ ابن بُلَيْمان لم يستطع – مع ذلك – أن يبلغ في أبياته ما بلغه التّلعفريّ من طرافة الفكرة وسلاسة الأسلوب، فجاء قوله تقريريّاً لم يتعدَّ دائرة الطّعن والسّباب[4]:

ما رَأينا ولا سَمِعْنا بِشَيْخٍ قَبْلَ هذا مُقامِرٌ بالخُفافِ

أسود الوَجْهِ أبيض الشَّعْرِ لكنْ في سُحَيْمٍ وقُبحِهِ وخِفافِ

يدّعي نِسْبَةً إلى آلِ شَيْبا نَ، وتلكَ القبائلِ الأَشْرافِ

مِثْلَ نَجْدٍ لو استطاعتْ لقالتْ ليسَ هذا الدّعيُّ مِنْ أكنافي

---

(1) هو محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة، شاعر نُعتَ بالخلاعة والمجون، توفي سنة 675هـ. انظر: الصّفديّ، الوافي بالوفيات: 5/ 255؛ ابن العماد الحنبليّ، شذرات الذّهب: 5/ 349.

(2) هو شرف الدين أبو الرّبيع سليمان بن بُليمان، شاعر صاحب نوادر وفكاهة، توفي سنة 686هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزّاهرة: 7/ 372.

(3) التّلّعفَري، ديوانه، تحقيق ودراسة: هنرييت سابا، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة القاهرة، 1976م: 419؛ وانظر الأبيات في: الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 147.

(4) الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 157-158.

ومن الشّعراء المكثرين في الهجاء ابن عُنَين الذي سخّر لهذا الغرض جانباً كبيراً من موهبته، فأفرد له باباً واسعاً في ديوانه، وقد تعرّض بالهجاء – كما ذكر – لمعظم رجالات عصره من حكّام ووزراء وقضاة وشعراء وغيرهم، وستتناول الدّراسة في هذا الصّدد جانباً من أهاجيه في بعض شعراء عصره. وسأكتفي – على سبيل التّمثيل – بتناول بعض منها في كلّ من: القاضي الفاضل[1]، والرّشيد النّابلسيّ[2].

فأمّا هجاؤه للقاضي الفاضل، فكان في أغلبه فاحشاً. ويلاحظ أنّه ربّما كان يتعمّد نهج هذا الأسلوب معه؛ ليحطّ من قيمته وقدره، ويشوّه من صورته أمام النّاس؛ إذ من المعروف أنّ القاضي الفاضل كان من كبار كُتّاب ديوان الإنشاء الذين تمتّعوا بمكانة مرموقة في العصرين الفاطميّ والأيوبيّ، ومن يتبوّأ مثل هذه المكانة من الجائز أن يُحسد عليها، ومما قاله فيه متهكّماً من حَدْبته التي يفسّرها تفسيراً غريباً[3]:

حاشا لِعَبْدِ الرّحيمِ سيِّدنا الـ ... ـفاضلِ مِمّا تَقُولُهُ السَّفَلُ

وتبَّ مَنْ قالَ إنّ حَدْبَتَهُ ... في ظَهْرِهِ مِنْ عَبَيْدِهِ حَبَلُ

هذا قياسٌ في غَيْرِ سَيِّدِنا ... يَصِحُّ إنْ كانَ يَحْبَلُ الرَّجلُ

ومن الأساليب التي نهجها في هجائه له، الطّعن ببعض الأشخاص الذين كانوا على صلة وعلاقة به[4]؛ إذ يعمد إلى السُّخرية منهم، هادفاً – من كلِّ ذلك – إلى التندّر

---

(1) هو عبد الرحيم بن علي البيساني العسقلانيّ، كاتب وشاعر، عاصر العهدين الفاطميّ والأيوبيّ، توفي سنة 596هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 6/ 156؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب: 4/ 324 .

(2) هو عبد الرحمن بن بدر بن الحسن، المعروف بلقب "مدلويه" له مدائح في بعض ملوك بني أيّوب، توفي سنة 619هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 5/ 266؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 275.

(3) ابن عُنين، ديوانه: 189.

(4) هنرييت سابا،اتجاهات الشّعر العربي في القرن السّابع الهجريّ في بلاد الشّام: 228.

بالقاضي الفاضل نفسه، والحطّ من شأنه. ومن هذا القبيل قوله في شخص يسمّى السّديد الفاضليّ، معرِّضاً بارتباط مريب بينهما[1]:

سألـتُ السّديدَ الفاضليَّ وَقَدْ بَدا   عَلَيهِ هُزالٌ بَعْدَ شِدَّةِ أَسْرِهِ

أَكُنْتَ مَرِيْضاً قالَ كلاّ وإنّما   تَخَيَّرني عَبدُ الرَّحيمِ لِسرِّهِ

فقُلتُ لَهُ إنّ القِطَمَّ[2] اختيارُه   لِأوضَعِ فَحْلٍ مِنْ تَفاقُمِ أَمْرِهِ

وَلَكنّهُ حَقٌّ على اللهِ وَضْعُ مَنْ   تَرافَعَ جَهْلاً أو عَلا فَوْقَ قَدرِهِ

وَهَبْ أنْ ما يُعْزَى إليه مُصَدَّقٌ   وَأنَّكَ قَدْ أَقْرَرْتَ فِيْنا بأمرِهِ

فما هذِهِ بَيْنَ ثَدْيَيكَ قال لي   تَقَعُّرُ صَدْري مِنْ مُحدَّبِ ظَهْرِهِ

وأمّا الرّشيد النّابلسيّ، فكان له هو الآخر نصيب وافر من هذا الهجاء، من ذلك الأبيات التالية التي استثمر فيها ابن عُنين أسلوب المفارقة والتّشخيص للتهكّم منه؛ فقد جعل للنّعال قلوباً تتكسّر وتتأذّى من دنس ثيابه. وفي هذا امتهان شديد لقيمته حين عدّ النّعال – على وضاعتها – أجلّ منه قدراً[3]:

تَعَجَّبَ قَوْمٌ لِصَفْعِ الرَّشيدِ   وَذلكَ ما زالَ مِنْ دابِهِ

رَحِمْتُ انْكِسارَ قُلُوبِ النِّعالِ   وَقَدْ دَنَّسُوها بأثوابِهِ

فَواللهِ ما صَفَعُوهُ بِها   وَلَكِنَّهُمْ صَفَعُوها بِهِ

---

(1) ابن عُنين، ديوانه: 219؛ وللاستزادة من هجائه القاضي الفاضل انظر المصدر نفسه: 188،189، 190.

(2) الفحل القطم: الصؤول.

(3) ابن عُنين، ديوانه: 185.

وتتكرّر فكرة دنس الرّشيد، واشمئزاز الأشياء والموجودات من اللقاء به أو ملامسته؛ فهذا شعر ابن عُنين نفسه، يشكو إليه مغبّة هذه العلاقة المستكرهة، ويرى في ارتباطه به ما يقلّل من قيمته وشأنه[1]:

شَكَا شِعْري إليَّ وقالَ تَهْجُو … بمثلي عِرْضَ ذا الكَلْبِ اللّئيمِ

فَقُلتُ لَهُ تَسَلَّ فَرُبَّ نَجْمٍ … هَوَى في إثْرِ شَيطانٍ رَجِيْمٍ

ولم يكن هجاء ابن عُنين للرّشيد كلّه على هذه الشّاكلة؛ فقد أفحش في بعضه إفحاشاً بعيداً، يجلّ المقام - هنا - عن ذكْر شيء منه[2].

ويبدو أنّ الرّشيد النّابلسيّ، كان عرضه لسهام شعراء آخرين من مثل القاسم الواسطيّ الذي تعرّض له كذلك بالذّمّ والتّسفيه، ساخراً من رداءة شِعْره التي يعلّلها بسبب من رائحة فمه، يقول[3]:

لا تَعْجَبَنَّ لَدَلْويـ … ـهِ إذا بَدا شِبْهَ المريْضِ

قَدْ ذابَ مِن بَخَرٍ[4] بفيـ … ـهِ بَدا مِنَ الخُلْقِ البغيضِ

وَتَكَسَّرتْ أسْنانُهُ … بالعَضِّ في جَعسِ القَريضِ[5]

وَتَقَطَّعَتْ أنفاسُهُ … عَرَضاً بِتَقْطِيْعِ العَروضِ

---

(1) المصدر نفسه: 188.

(2) انظر: المصدر نفسه: 186،187.

(3) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: 16/ 305؛ وانظر صوراً أخرى من هذا التهاجي لدى فتيان الشاغوريّ في عدد من شعراء عصره في: ديوانه: 6، 360، 472، 517، 585.

(4) البَخَر: النتن في الفم وغيره، وكلّ رائحة كريهة.

(5) جعس القريض: رجيعه.

2

ويتّصل في الحديث عن التّهاجي بين الشّعراء، ما عرف "بالمراثي الهجائيّة" وهي أن يعمد الشّاعر إلى هجاء خصومه على سبيل المرثيّة، فيلجأ إلى الاستعانة بأسلوب الرّثاء الذي يهدف من استخدامه إلى السُّخرية والإمعان فيها، وممّن عرف بهذه الطّريقة الحكيم عبدالمنعم الجلياني"[1] الذي يتعرّض لشاعر يسمّى أبا الوحش؛ فيصوّر – بكلّ تهكُّم وازدراء – مراسم موته، ويعلن – على سبيل المفارقة – عن فرحه وسروره بهذا الحدث[2]:

إذا جاءني يوماً نعيُّ أبي الوحشِ	وَأبصرْتُهُ فَوْقَ الرّؤوسِ على النَّعشِ
وَقَدْ جَعَلُوا مِنْ نَهْرِ "قلوطَ" غُسْلَهُ	وَكُفِّنَ في كِرْشٍ وأُلحِدَ في حُشٍّ
وَظَلَّ لما يَلْقاهُ مِنْ هَوْلِ مُنكَرٍ	وَشِدَّةِ ضِيقِ القَبْرِ يَضْرطُ كالجَحْشِ
بَذَلْتُ لِصَحْبي زِقَّ خَمْرٍ وَقِيْنَةً	وَزَخْرَفْتُ داري بالنَّمارقِ والفَرْشِ
فإنْ قِيلَ لي ماذا التَّكرُّمُ والسَّخا	أَقُلْ لَهُمُ ماتَ الوَضيعُ أبو الوَحْشِ

وممن عُرف بها أيضاً عرقلة الكلبيّ الذي يتظاهر بالبكاء على أبي الحكم الأندلسيّ (وهو من المبرّزين في هذه الطّريقة كما سيتّضح بعد)، فيدعو له بعدم الرّحمة والسّقيا لفساد عقيدته ودينه كما يقول[3]:

يا عَينُ سُحّي بِدَمْعٍ ساكبٍ وَدَمِ	على الحكيمِ الّذي يُكْنى أبا الحَكَمِ
قَدْ كانَ لا رَحِمَ الرّحمنُ شَيْبَتَهُ	ولا سَقَى قَبْرَهُ مِنْ صيِّبِ الدِّيَمِ

---

(1) هو حكيم الزّمان أبو الفضل عبد المنعم الجلياني، كان بارعاً في صناعة الطّب، هاجر من الأندلس إلى الشام، توفي سنة 601هـ أو 603هـ. انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: 630-635.

(2) ابن سعيد الأندلسيّ، الغصون اليانعة: 105-106.

(3) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: 615؛ ولم ترد الأبيات في ديوانه.

شَيْخاً يَرى الصَّلَواتِ الخَمْسَ نافلةً ... ويَستحلُّ دَمَ الحُجّاجِ في الحَرَمِ

أمّا أبو الحكم الأندلسيّ، فقد بَرَع في هذا النوع من المراثي، وتفنّن في استخراج المعاني الطّريفة، والصّور الهزليّة التي تظهر قدرته الفائقة على التّصوير. ومن الأمثلة على ذلك ما قاله في شخص يسمّى نصير الحليّ، مصوّراً - بأسلوب تهكّميّ ساخر- الحال التي يلقاها حين يوارى التّراب، يقول[1]:

يا هذِهِ قُومي اندبي ... ماتَ نَصيرُ الحلبي

يَرْحَمُهُ اللهُ لَقَدْ ... كانَ طَويلَ الذَّنبِ

قَدْ ضجّتِ الأمواتُ مِنْ ... نَكْهَتِهِ في التُّرُبِ

وَوَدّهُمْ لو عُوِّضوا ... مِنْهُ بِكَلْبٍ أجْربِ

والقَوْمُ بَيْنَ صارِخٍ ... ومُمْعِنٍ في الهَرَبِ

ومُنكرٍ يقُولُ ذا ... أوْضَعُ مَيْتٍ مرَّ بي

ما ضمَّ بَطْنُ الأرْضِ بَيْـ ... ـنَ شَرْقِها والمغْربِ

أخْبثَ مِنْهُ طِيْنةً ... في عُجْمِها والعَرَبِ

وله قصيدة طويلة في هجاء ابن القيسرانيّ، نهج فيها نهجه في أبياته السّابقة. غير أنّه في هذه القصيدة كان أكثر إلحاحاً على استدعاء المعاني واستنباطها. وقد استثمر الشاعر الأسلوب القصصيّ الذي أضفى على الأبيات قدراً من الحيويّة والتشويق؛ إذ يصوّر - بإسهاب - ما يلاقيه ابن القيسرانيّ في القبر بعد أن يشتطّ منكر ونكير في حسابه والتّضييق عليه، يقول[2]:

---

(1) المصدر نفسه: 625 .

(2) الكتبي، محمد بن شاكر (ت764هـ)، عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة داود، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، 1977م: 12/ 483. وله قصيدة أخرى في الموضوع نفسه، وهي لا تكاد

..ثمَّ عَهْدِي بِـهِ وَقَـدْ أنْزَلُـوهُ الـ ـقبْرَ بَـيْنَ مُنْـكَرٍ وَنَكِيْـرِ

ثمَّ قـالا لَـهُ ألَـمْ تَـكُ في التَّنْـ ـجيْـمِ بَـيْنَ إفْـكٍ وزُورِ

ثُمَّ أسْرَفْتَ بَعْدَ ذلـكَ فـي قَـوْ لِـكَ بَيْـنَ المَنْظُـومِ والمَنْثُـورِ

تُفْحِشُ الهَجوَ لَيْس تُبقي على شيْـ ـخٍ ضَـنينٍ بِعِـرْضِهِ مَـسْتُورِ

لَمْ تُراقِبْ فيهِ الإلـهَ وَلَـمْ تَخْـ ـشَ عِقابـاً، فاصْـبِرْ علـى التَّعزيـرِ

فَمَـلا قَبْرَهُ سُلاحاً[1] مِـنَ الخَو فِ، وَأمْـسى في لَحْـدِهِ كالأسـيرِ

وَتَلقّاهُما بِلُطْفٍ مِـنَ القَـوْ لِ، وقـالَ ارْفُقـا بِـشَيْخٍ كبـيرِ

تابَ مِـنْ قَبْـلِ أنْ يَمُـوتَ بِحِيْنٍ وَتَبَـرّا مِـنَ الخَـنا والفُجُـورِ

فالحَـا عليـهِ صَفْعاً وَلَـمْ يَنْـ ـفَعْهُ عُـذْرٌ، ومـا لـهُ مِـنْ نَـصِيْرِ

4. شواذ الأهاجي

يراد بشواذّ الأهاجي هنا، ما خرج عن هجاء الأشخاص والأفراد إلى هجاء ما لا عقل له أو إدراك، وذلك كأن يتناول الشّاعر في هجائه بعض الحيوانات، أو النباتات، أو الأدوات المنزليّة، أو غير ذلك.

ولم يكن هذا النّوع من الهجاء جديداً أو طارئاً على هذا العصر، وإنّما كان شائعاً ومعروفاً في عصور سابقة[2]. ويمكن أن يُستدلّ – من خلاله – على شيءٍ من ذوق النّاس، وطبيعة موقفهم مما له علاقة ببعض جوانب من حياتهم من أشياء وموجودات.

تبتعد في مضمونها وأسلوبها عن القصيدة السابقة كثيراً. غير أنّه يلاحظ معاناة بعض أبياتها من خلل عروضيّ بيّن. انظر: المصدر نفسه: 12/ 480-481.

(1) السُّلاح: ما يخرج من البطن. .

(2) قحطان رشيد التميميّ، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجريّ، بيروت، بلا تاريخ: 78-85.

1

ومن النّماذج التي يمكن أن تُساق في هذا المقام، أبيات للبهاء زهير، يتهكّم فيها من بغلة لأحد أصدقائه، مُتفنّناً في استخراج المعاني الهزليّة، والصّور الفكهة التي يبيّن من خلالها، سوء حال هذه البغلة. فهي – كما يقول – لا تساوي خردلة، بطيئة في سيرها، لا تكاد تبارح مكانها[1]:

لـــكَ يـــا صـــديقي بَغْلـــةٌ　　ليـــسَـتْ تُـــساوي خَرْدلــــهْ

تمـــشي فتحـــسبُهـــا العيـــو　　نُ عـــلى الطّريـــقِ مُـــشكَّلهْ[2]

وتُخـــالُ مُـــدبرةً إذا　　مـــا أقبـــلتْ مُـــسْتعجلَهْ

مِقْـــدارُ خَطْوتِهـــا الطَّويـــ　　ـــلةِ – حـــين تُـــسرعُ – أنْمُلَـــهْ

تَهْتَـــزُّ وهـــيَ مـــكانَها　　فَـــكأنّما هِـــيَ زَلْزَلَـــهْ

وقد حقّق لهذه المقطوعة طرافتَها وحسنَ مأخذها أمران، أولهما: توسُّلها بالمفارقات؛ فالبغلة – على كبر حجمها وضخامتها – لا تساوي خردلة صغيرة. وهي حين "تقبل مستعجلة" تبدو كالمدبرة. ثمّ إنّ مقدار خطوتها "الطويلة" – في حال سرعتها – تساوي أنملة! وثانيهما: اعتمادها على هذا الوزن المجزوء الراقص الذي حقّق لها هذه الحيويّة والخفّة الظاهرتين.

ويعبّر في أبيات أخرى – تقترب في إيقاعها وأسلوبها من الأبيات السّابقة – عن حال فرس له، ذاكراً مساوئها العديدة التي لا تنتهي[3]:

وفـــرسٍ عـــلى المـــسا　　وي كُلُّـــها مُحْتَـــويـــهْ

---

(1) البهاء زهير، ديوانه: 227.

(2) مشكّلة: مقيّدة.

(3) المصدر نفسه: 300، وللاستزادة انظر: 230.

فـمـا مـسـاويها لِمَـنْ　　　عـدَّدها مُـنتهيهْ

وليـسَ فـيها خَـصْلَةٌ　　　واحـدةٌ مُـستويهْ

يـا قُبحَهـا مُقْبلـةً　　　وقُبْحَهـا مُـوَلِّيـهْ

مـالكُهـا في خَجْلـةٍ　　　كـأنّـهُ في مَخْـزِيهْ

مَـسْتَقْبَـحٌ رُكُـوبُها　　　مِثْـلَ ركـوبِ المَعْـصِيَهْ

ويصوّر ابن دانيال حاله مع برْذَوْنه[1] تصويراً ساخراً، يلمس منه – إلى جانب الهزل والدّعابة – ما كان يعانيه الشاعر من بؤس وتعاسة، فلا بُدَّ أنَّ فقره، وضيق ذات يده، قد دفعاه إلى ركوب برْذَوْن تجسَّدت فيه كلّ هذه العيوب[2]:

قَـدْ كَمّـلَ اللهُ برْذَوْنـي بمَنْقَـصَةٍ　　　وَشـانَهُ بَعْـدَ مـا أعْمـاهُ بـالعَرَجِ

أسِـيرُ مِثْـلَ أسـيرٍ وهـو يَعْـرجُ بـي　　　كأنّـهُ مـاشياً يَنْحَـطُّ في دَرَجِ

فَـإنْ رمـاني علـى مـا فِيـهِ مِنْ عَرَجٍ　　　فمـا عليـهِ إذا مـا مـتُّ مـنْ حَرَجِ

أمّا ابن عُنين، فيذمُّ – بأسلوب فكه – خروفاً هزيلاً، كان قد أهداه له الشّريف الكحّال[3] بعد أن وعده به مدّة، مشبّهه – من شدة هزاله – بعاشق شفّه الوجد والبين، حتّى بدا كالخيال الذي لا يُرى، يقول[4]:

أتـاني خَـرُوفٌ مـا شَـكَكْتُ بِـأنّـهُ　　　حليفُ هوىً قَـدْ شَـفَّهُ الهَجْـرُ والعَـذْلُ

إذا قـامَ في شَـمْسِ الظَّهـيرةِ خِـلْتَهُ　　　خيالاً سَـرى في ظُـلْمَةٍ ما لـهُ ظِـلُّ

(1) البرْذون: ما يُطلق على غير العربّي من الخيل والبغال.

(2) ابن دانيال الموصليّ، المختار من شعره: 80، وللاستزادة انظر: 81-83، 140-141.

(3) هو برهان الدّين أبو الفضل سليمان، أصله من مصر، انتقل إلى الشام، وعمل في خدمة السّلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حتى وفاته.انظر:ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء:660.

(4) ابن عُنين، ديوانه: 134

فَنَاشَدْتُهُ ما تَشْتَهي قالَ قَتَّةٌ[1] وقاسمتُهُ ما شفَّهُ قال لي الأَكْلُ

فَأَخْضَرْتُها خَضْراءَ مجّاجةَ الثَّرى مُسلَّمةً ما حصَّ أوراقَها الفَتْلُ[2]

فَظَلَّ يُراعيها بِعَيْنٍ ضَعيفَةٍ ويُنْشِدُها والدَّمْعُ في العَيْنِ مُنْهَلُّ

أَتَتْ وحِياضُ الموتِ بيني وبَيْنها وجادَتْ بِوَصْلٍ حَيْنَ لا يَنْفَعُ الوَصْلُ[3]

2

ولم يكتف الشّعراء في هذا النّوع من الهجاء بذمّ بعض الحيوانات والدّوابّ؛ وإنما تناولوا في أشعارهم أشياء أخرى، من مثل بعض المأكولات والمشروبات؛ فقد وجد كمال الدّين بن الأعمى[4] في صحن حلاوة لم يكن جيّداً، ضالته لإثارة صور من التندُّر والفكاهة، متطرّقاً إلى رداءة هذا الصّحن، وما يجلبه للقلوب من قساوة ومرارة، يقول[5]:

إنّ في صَحْنِكَ المُسمَّى حلاوهْ رقّةً تورثُ القُلوبَ قَساوهْ

كَمْ حَفَرنا فَلَمْ نَجِدْ غَيْرَ أَرْضِ الصَّـ ـصَحن يَبْساً كَمِثْلِ أَرْضِ السّماوَهْ

لَسْتُ أدري مِنْ سُكَّرٍ كانَ أَمْ مِنْ عَسَلٍ حِيْنَ لَمْ تُشُبْهُ نَداوهْ

غيرَ أنّي رأيتُ صَحْناً صغيراً ما عليْهِ مِنَ النَّعيمِ طَلاوهْ

---

(1) القتّة: الفِصْفِصة اليابسة، وهي نوع من النبات.

(2) مجّاجة الثّرى: تقطر ماء؛ حصّ الورق: تساقط.

(3) البيت الأخير لأعرابيّ. انظر: العاملي، محمد بهاء الدين (ت1031هـ)، الكشكول، ط1، دار الكتاب اللبنانيّ، 1983م: 3/ 554.

(4) هو علي بن محمد بن المبارك، المعروف بكمال الدّين بن الأعمى، أحد شعراء الدّولة الناصريّة، توفي سنة 692هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: 3/ 87.

(5) الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 91.

وقريب من هذا، ما قاله ابن دانيال في ذمّ خمر رديئة، مصوّراً حموضتها، وقذارة الكؤوس التي تُقدَّم بها، وذلك إذ يقول[1]:

وافى النّفيسُ لنا بخَمْرٍ حامضٍ ... كالخلِّ إلا أنّهُ ما دوّدا

وأتى يُحلّيه لنا بقُطَارةٍ ... لِنُسيغَهُ فَصَحَوْتُ فيهِ مُعَرْبِدا

وجَلاهُ والذّبّانُ في كاساتهِ ... عُقَداً فشَاهدْنا حُباباً أسودا

وأخيراً فقد توجّه بعض الشّعراء في هجائهم إلى شهور السّنة، مفضّلين بعضها على بعض. ومن الأمثلة على ذلك قول ابن السّاعاتي في شهر آب، حيث يصوّر شدّة حرّه وسمومه اللاهبة، شاكياً من طوله، وما يجلبه لنفسه من متاعب وآلام[2]:

قَبّحَ اللهُ آبَ ما آب شَهْراً ... وابتلاهُ بما بهِ مِنْ سُمُومِ

كُلَّ يومٍ بهِ عَذابٌ أليمٌ ... وهو يُنْجي مِن العذابِ الأليمِ[3]

وَجَبَ الصّومُ فيهِ شَرْعاً فصُمْنا ... في جحيمٍ رجاءَ قُربِ الجحيمِ[4]

لم يكنْ عَهْدُهُ كريماً ولكنْـ ... ـنَا حفظْناهُ للمقامِ الكريمِ

(1) ابن دانيال الموصلي، المختار من شعره: 195.

(2) ابن الساعاتيّ، ديوانه: 2/ 399.

(3) أي وهو بالصّوم ينجي من الجحيم.

(4) كذا الأصل: والأنسب أن يكون: "بعد الجحيم" أو "قرب النعيم".

ومن الواضح أنّ مثل هذا الهجاء لم يكن كلّه جداً خالصاً؛ وإنّما كان أغلبه بدافع الدّعابة والفكاهة التي نما فنّها وازدهر في تلك العصور، حتّى بدا ملمحاً بارزاً، وسمة واضحة من سمات أدبها[1].

(1) انظر حول ذلك: شوقي ضيف، الفنّ ومذاهبه في الشّعر العربي، ط10، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ: 477 ومابعدها؛ بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثمانيّ، ط3، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م: 279-287.

الفصل الثاني

الهجاء الاجتماعي

1. مدخل
2. هجاء أعيان الدولة ومستخدميها
3. هجاء أصحاب المهن
4. الهجاء المذهبيّ والطائفيّ
5. هجاء المدن وبعض المرافق
6. مظاهر أخرى



الفصل الثاني

الهجاء الاجتماعي

1. مدخل

قبل الإسهاب في الحديث عن الهجاء الاجتماعيّ وصوره التي تبدّت في شعر هذه الفترة، لا بدّ من التّأكيد على أنّ التّساؤل عن موضوعيّة هذا الهجاء يبقى أمراً مشروعاً؛ فقد يقال إنّ بعض هذا الشّعر الذي تناول الفساد كان بسبب من دوافع ذاتيّة ومصالح ضيّقة، وهو أمر محتمل الحصول، بل لا بدّ من حصول شيءٍ منه. ولكنّ الذي لا بدّ من قوله أيضاً، أنّ الموضوعيّة التامّة/ المطلقة تبقى مطلباً من غير الممكن تصوّره في الدّراسات الإنسانيّة عموماً. وعلى كلّ حال فإنّ ما يهمّ دارس الأدب في هذا المقام، هو تعرّف موقف الشّاعر ورؤيته لأحداث عصره فنيًّا، وهي رؤية مهمّة يجب ألا تغيب عن البال؛ ففيها من صفاء الشّعور والعاطفة ما يمكن أن يضيء جوانب كثير من واقع الحياة في ذلك الزّمن، ثمّ إنّ كثرة الشّعر الذي تناول الفساد بأنماطه المختلفة بهذه الصّورة اللافتة، واتّفاق نماذج وافرة منه على مواقف تكاد تكون – في أغلب الأحيان – متشابهة، أمر لا يمكن أن يكون وليد صدفة وفراغ، إذ من الواضح أنّ ثمّة أحوالاً مشتركة عاشها النّاس، والشّعراء من جملتهم، فعبّر عنها كلّ بأسلوبه الذي لا ينفي أسلوب الآخرين، بل يكمّله ويسدّ ما فيه من نقص. وفي هذا التعدّد – كما لا يخفى – إغناء للصّورة التي يحرص الدّارس على التقاطها، ومعرفة دقائقها.

2. هجاء أعيان الدّولة ومستخدميها

من أبرز مظاهر الهجاء الاجتماعيّ في شعر هذه الفترة نقد أعيان الدّولة ومستخدميها، من ولاة وموظّفي دواوين وقضاة وفقهاء وغيرهم؛ فقد تعرّض الشُّعراء لنفرٍ من هؤلاء المستخدمين، وكشفوا عن عددٍ من تعدِّياتهم وتجاوزاتهم، وما كان يصدر عن بعضهم من ظلم واستغلال. ويلاحظ على هذا الشّعر تراوحه بين النّقد المتّسم بقدر من الموضوعيّة الهادفة، وبين النّزعة الشخصيّة التي كانت الموجّه الفعليّ لبعض هذا

الهجاء. ولكن على الرّغم من الذّاتيّة التي صبغ بها هذا القسم الأخير، فإنّه يمكن للدّارس – من خلاله – تشكيل تصوّر ما عن معاناة الناس وظروفهم في ذلك العهد. ومع ذلك، فسيحاول الدّارس – قدر استطاعته – أن ينتقي من الشّواهد الشّعريّة ما يمكن أن يتضمّن دلالات واضحة لبعض صور الفساد ومظاهره.

1

كان لأصحاب السّلطة من ولاة ووزراء نصيب من شعر الهجاء في مصر والشّام زمن الحروب الصليبية؛ إذ أطلق الشّعراء ألسنتهم في هجاء هؤلاء بالتّصريح حيناً والتّلميح حيناً آخر، ويبدو أنّ قسوة بعض هؤلاء الحكّام قد دَفَعتْ عدداً من الشّعراء إلى اتّباع المجاملة والمصانعة خوفاً على أنفسهم وأموالهم من القتل أو النّهب، على نحو ما يظهر من قول ابن المسجّف العسقلانيّ الذي يصل به الأمر إلى اليأس وعدم الثّقة بأبناء جيله المتخاذلين – على حدّ رأيه – عن دَفْعِ أيّ ظلم، يقول[1]:

أنا في جِيلٍ خَسيسٍ وقَبيلٍ وَزَمانِ

أمْدَحُ السُّلطانَ كَيْ يُصْبِحَ مالي في أمَانِ

ومن الطبيعيّ أن يدفع هذا التّسلط النّاس إلى اصطناع شيءٍ من التّملُّق والرِّياء دفعاً للأذى عن نفوسهم. وهو أمر ينبي عن واقع غير سويّ. وقد صوّر ابن شمس الخلافة[2] مثل هذا بقوله في الوزير ابن شكر[3] "الذي بالغ في الظّلم وتفنّن"[4]، حتى تقارضت الألسن في مدحه خوفاً ونفاقاً[5]:

---

(1) الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 284.

(2) هو جعفر بن محمد بن مختار الأفضليّ، شاعر مصريّ توفي سنة 622هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 1/ 362؛ الزّركلي، الأعلام: 2/ 128.

(3) هو صفي الدين عبد الله بن عليّ بن شُكر، وزر للملك العادل وابنه الملك الكامل، وصف بالخبث والدّهاء، توفي سنة 622هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 193-196.

(4) النّعيميّ، عبدالقادر بن محمد (ت927هـ)، الدّارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسنيّ، مكتبة الثقافة الدينيّة، دمشق، 1988م: 2/ 263.

(5) الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 195؛ وفي هجاء الوزير ابن شكر انظر أيضاً: ابن عنين، ديوانه: 241.

مَـدَحَتْكَ أَلْسِنَـةُ الأَنَامِ مَخافَـةً وَتَقَارَضَـتْ لَـكَ بالثَّنَـاءِ الأَحْسَنِ

أتَـرى الزّمَـانَ مُؤخِّـراً في مُـدّتي حتّـى أعِـيشَ إلى انْطِـلاقِ الأَلْسُنِ

وقد جنح بعض هذا النّقد إلى التّعميم، فلم يكن يشير إلى شخصٍ باسمه أو حادثة بعينها، وإنّما كان الشّاعر يكتفي منه بالإشارة إلى بعض المساوئ والتّجاوزات؛ ولعلّ مردّ ذلك يعود – كما ذُكِر – إلى الخوف من العقاب الذي كان يمارس – أحياناً – في حقِّ عامّة الشّعب من قبل بعض الحكّام. ومن هذا القبيل ما قاله البهاء زهير في أحد الولاة الذي يصفه بالخِسّة والعداوة، حتى بات منبوذاً من النّاس، لكثرة مظالمه وتعدّياته[1]:

ورئيـسٍ ذي خِـسّةٍ كُـلّ مَـنْ شِـئْت لائمُـهْ

جَـنَّتُـهُ ولايـةٌ قَـلَّ فيهـا مُسـالِمُهْ

مـا رأى النـاسُ أنّـهُ قَـطُّ دَرَّتْ مَكارِمُـهْ

قُلْـتُ إذْ راحَ غـارِقـاً في بِحَـارٍ تُـلاطِمُهْ

عَـنْ قَرِيـبٍ تَـرونَ حـا سِـدَهُ وهـوَ راحِمُـهْ

لَعَـنَ اللهُ مَـنْ يُـشـا رِكُـهُ أو يُـزاحِمُـهْ

والأبيات تكشف عن مرارة وغبن ظاهرين، لذا نجد الشّاعر يتمنّى له نهاية غير سارّة، تجعل حاسده – على ما يحمل له من ضغينة وكره – مترحّماً عليه، لسوء العاقبة التي ستؤول إليها حاله.

ولئن حملت أبيات البهاء زهير فيضاً من مشاعره السّاخطة على هذا الصّنف من المسؤولين، دون أن تقرِّر – بصورة دقيقة – نقداً صريحاً محدّداً، فإنّ شعراء آخرين كانوا أكثر اقتراباً وتلمُّساً لأصل المشكلة؛ فرصدوا – على نحو أوضح – وإن لم يتّخذ صفة

(1) البهاء زهير، ديوانه: 250.

التحديد الدقيق – بعض سلبيّات هؤلاء الولاة والوزراء، وعبّروا عن عدم أهليّتهم لتولّي تلك المواقع التي يشغلونها. وقد استطاع ابن النقيب[1]، أن يجسّد صورة وزير لم يكن يتحلّى بأدنى قدر من شروط أهليّة هذا المنصب، وذلك إذ يقول[2]:

أبلمٌ قلّدوه أمرَ الرَّعايا ... وهو في حِلْيةِ الوزارةِ عُطُلُ

فهو بالسوقِ بالوزارةِ طَبْلٌ ... وَهْوَ في الدّستِ حِيْنَ يَجْلِسُ سَطْلُ[3]

وقريب من هذا قول ابن دقيق العيد[4] الذي يرسم لوزير آخر صورة ساخرة، أراد – من خلالها – أن يكشف عن خلل في المؤسّسة الوظيفيّة التي لم تحرص – أحياناً – على حسن الاختيار، وإسناد المسؤوليّة لمستحقّيها[5]:

مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ بَعِيْدٌ قَرِيْبٌ ... مُحْسِنٌ مُذْنِبٌ عَدوٌّ حَبِيْبُ

عَجَبٌ مِنْ عَجائبِ البَرِّ والبَحْرِ ... وَنَوْعٌ فَرْدٌ وَشَكْلٌ عَجِيْبُ

ومع أنّ أسلوب الطّباق الذي استخدمه الشّاعر قد جسّد ما في شخصيّة ذلك الوزير من تناقض، إلا أنّ مبالغته في هذا الاتّجاه قد صبغت أبياته بلفظيّة واضحة، دفعته إلى مجرد سوق كلمات متقابلة، دون أن يقدّم نقداً محدّداً، فجاء قوله على هذا النّحو من التّهويم الغائم.

---

(1) هو الحسن بن شاور بن طرخان بن الحسن، يصفه الكتبيّ بقوله: "وهو أحد فرسان تلك الحلبة الذين كانوا من مصر في ذلك العصر" توفي سنة 687هـ . انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 1/ 324.

(2) الكتبيّ، فوات الوفيات: 1/ 327.

(3) الدّست: هو مرتبة جلوس السلطان. انظر: القلقشندي، أحمد بن علي (ت821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلّق عليه وضبط نصوصه: محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1987م: 1/ 138.

(4) هو تقيّ الدين أبو الفتح محمد بن عليّ، المعروف بابن دقيق العيد، عالم وفقيه، تولّى منصب قاضي القضاة في مصر، توفي سنة 702 هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 442.

(5) الأفوديّ، الطّالع السعيد: 594.

وعند النظر فيما كان يصدر عن بعض هؤلاء المتنفّذين من سلوكيّات تجاه الرّعيّة، فسيبدو الأمر أكثر فداحة وخطورة؛ إذ تجاوزت تعدّياتهم – كما يستبان من بعض النّصوص الشّعريّة – حدود العقل والشّرع؛ فقد أورد أبو شامة المقدسيّ[1]– مثلاً – في كتابه "الذّيل على الرّوضتين" في حوادث سنة 646هـ صورة مؤلمة لصلب صبيّ صغير على يد أحد الأمراء، أعقبها بأبيات مؤثرة لأحد الشُّعراء في وصف هذه الحادثة، ومما جاء فيها قوله[2]:

..ومُنْفَردٍ مِنْ فَوْقِ أعْوادِ حَتْفِهِ ... يَجُودُ بِنَفْسٍ صانها خَوْفَ رَبِّهِ

تَسَمَّرَتِ الأَعْضَاءُ مِنْهُ فَلَمْ يُطِقْ ... سُجُوداً فَأَومَأ للسُّجُودِ بِقَلْبِهِ

تَمَكَّنَتِ الآلامُ مِنْهُ مُسَمَّراً ... كَئِيباً وَكَانَ المَوْتُ أَيْسرَ خَطْبِهِ

..الخ

---

(1) هو عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسيّ، فقيه ومقرئ ونحويّ، من أشهر مصنفاته كتاب "الرّوضتين في أخبار الدّولتين" والذيل عليه، توفي سنة 665هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 269؛ السّيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت911هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر، ؟، 1979م:2/ 77.

(2) أبو شامة المقدسيّ، الذيل على الروضتين: 181؛ وشبيه بهذا قول ابن دانيال حين تمّ صلب شخص يقال له (ابن الكازروني) لتعاطيه الخمر في عهد الظاهر بيبرس:

لقد كان حدُّ السُّكرِ من قبل صَلْبِهِ ... خفيفَ الأذى إذ كان في شَرْعنا جَلدا

فلمّا بدا المصلوبُ قلتُ لصاحبي ... ألا تُبْ فإنّ الحدَّ قد جاوز الحدّا

والبيتان يكشفان عن مدى الحيف وتجاوز الحدّ في تطبيق الحكم الشرعي من قبل بعض الحكّام. انظر: ابن دانيال، المختار من شعره: 105. وفي حادثة صلب (ابن الكازروني) هذا انظر: ابن إياس الحنفيّ، محمد ابن أحمد (ت930هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982: ج1، ق1، 326.

https://www.books4arab.com

ويعرِّض محمّد بن سوّار الإسرائيليّ[1] بأحد الولاة، فيصوّر سوء سيرته، وما كان يصدر عنه من قمع وبطش، جعل النّاس يضيقون ذرعاً بعهده المشؤوم[2]:

يـا فَاضِـحَ الـدِّينِ والـدُّنيا بِـسِيْرَتِـهِ ... وَقـامعَ العَـدْلِ والإحْـسَانِ والجُـودِ

قَدْ ضَاقَ ظَاهِرُ مـا في الأَرْضِ مِنْكَ فَمَـا ... بِبَـاطِنِ الأَرْضِ مَيْـتٌ غَيْـرُ مَحْسُودِ

خَفِّـضْ عَلَيـكَ فَـإنّ النّـاسَ قَـدْ أَيِـسوا ... مِنْ خُضْرَةِ العَيشِ في أيّامِكَ السُّوْدِ

ومن التجاوزات التي كشف عنها الشُّعراء، ما كان يمارسه بعض القائمين على المال العامّ من زكاة وأموال وقف وغير ذلك من اختلاس وتبذير لهذه الأموال على غير وجهها الحقّ، ولا شك أنّ استغلال مثل هذه المقدّرات والعبث بها من فئات قليلة متسلّطة، دون مراعاة للصّالح العامّ، من شأنه أن يحدث مزيداً من الضّعف والفساد في مؤسسات الدّولة وأجهزتها المختلفة، ولذلك نجد من الشّعراء، من حاول أن يبصّر الحاكم بحقيقة ما يقوم به بعض منفّذي سياسته؛ فقد خاطب ابن عُنين – مثلاً – الملك المعظّم عيسى في شأن القائم على خزانة دولته، مصوّراً جوانب من مساوئه وانحرافاته المتزايدة[3]:

يـا مليـكَ الدُّنـيا الّـذي أعظـم اللّـ ... ـهُ بـتأييدِ عـزِّه سُلطانَـهْ

أنـا أشكُـو إليـكَ جـورَ رقيـعٍ ... لقّـبوهُ الـصّفعانَ تـاجَ الخِزانَـهْ

---

(1) هو محمّد بن سوّار بن إسرائيل، شاعر متصوّف، توفي في دمشق سنة 677هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات:3/ 383؛ ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم (ت807هـ)، تاريخ ابن الفرات، حققه وضبط نصّه: قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانيّة، بيروت، 1942م: 7/ 131.

(2) الصقّاعيّ، فضل الله بن أبي الفخر (726هـ)، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سوبله، المعهد الفرنسي، دمشق، 1974م: 142.

(3) ابن عُنين، ديوانه: 220–221؛ وفي هذا المعنى انظر: المصدر نفسه: 138؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 358؛ الصّفدي، الوافي بالوفيات: 3/ 237.

عـدم العقـلَ والمـروءةَ والإحـ ـسانَ والـدِّينَ والحَيَـا والأمانـهْ

وحَـوى اللّـؤمَ والرّقاعـةَ والخِـسْـ ـسةَ والجهـلَ والخَنَـا والخِيانـهْ

.. زعمـوا أنّـهُ حفيـظٌ علـى المـا لِ أمـينٌ، قُلـتُ: اسـكتِ يـا فلانـهْ

وعلى الرغم من أنّ الأبيات – فيما يبدو – وليدة انفعالٍ حادّ، وذلك واضح من غضب الشّاعر الذي دفعه إلى المبالغة في كيل الشّتائم التي قد تكون – في أصلها – نتيجة موقف شخصيّ، إلا أنّ طرح الموضوع – بمثل هذه الجرأة البالغة – لا يتأتّى من فراغ، وهو يوحي – على أقل تقدير – بوجود بعض الخلل والفساد في أجهزة الدّولة والقائمين عليها.

وقد ظلّ ابن عُنين يؤكّد على مسألة "المال العام"، وعلى الأوجه التي يتم صرفه فيها، فبحث عن المظاهر السّلبيّة في هذا المجال، محاولاً كشفها ونشرها على الناس. ويبدو مثل هذا في تعريضه بأحد متولّي دار الزّكاة، الذي يتّهمه بسرقة الأموال المؤتمن عليها، وتسخيرها في بناء بيت له[1]:

وسـائقُ الـصّبيـانِ أضـحى ابنُـه يَـسرِقُ مـن دارِ الزّكـاةِ الـذّهبْ

لا تـسـألُـوهُ واسـألُـوا دارَهُ فـإنّها تُخـبرُ عمّـا نَهَـبْ

وبدلاً من أن توجّه مثل هذه الأموال الوجهة الصّحيحة، نجد الأمور تسير – أحياناً – على غير ذلك؛ فقد شكا أبو شامة المقدسيّ من سياسة بعض القائمين على أموال الوقف، الذين يحجبون هذه الأموال عن المحتاجين من أهل العلم، ويقدّمونها لفئات أخرى غير مستحقّة[2]:

...اتّخـذْ حـرفةً تعيشُ بهـا يـا طالـبَ العلـمِ، إنّ للعلـمِ ذِكـرا

(1) ابن عُنين، ديوانه: 237.

(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين: 222.

لا تُهِنْهُ بالاتّــكال على الوقـــ ــفِ، فيمضي الزّمانُ ذُلاً وعُسرا

إنّمـا تحصلُ الوقـوف لـشرّيــ ــرِ ونـذلٍ مـن العُلُـومِ مُبَـرّا

والأبيات من قصيدة طويلة، وعلى ما فيها من إشارات تفصيليّة ناقدة، فإنّها اتسمت بضآلة قيمتها الفنيّة، واقترابها من النّظم الجافّ الذي لا روح فيه.

وقد يتعدّى الأمر هذا، وذلك حين تمتدّ أيدي بعض المتسلّطين إلى أموال النّاس الخاصّة فيستملكونها؛ فهذا أبو عديّ النّعمان بن وادع[1]، يعبّر عن مثل هذا الواقع بقوله[2]:

يـا أيُّها المُلّاك لا ترتجُـوا الــ ــأملاكَ وارجُوهـا إلى القابـلِ

فالعـام قـد صحّت ولكنّهـا للعَـدلِ والمُـشْرفِ والعامـلِ

ومما يزيد الحال سوءاً، أنّ مثل هذه المواقع الوظيفيّة الهامّة، يتمّ إسنادها – في بعض الحالات – إلى أشخاص عرفوا بانحرافهم وطمعهم، على نحو ما يبدو من قول هبة الله بن وزير في مستخدم على أموال الزّكاة، كان يسمّى الزّكيّ، (ولاحظ ما في الاسم من مفارقة!) [3]:

واحـسرتـاهُ علـى الثّقـاتِ جُعِـلَ الزّكـيُّ علـى الزّكـاةِ

وهـو الـذي لخـيانةٍ أبـداً يُعـدُّ مِـنَ الجُـناةِ

ومتـى تأمّـلَ درهـماً في الجـوِّ صـارَ مِـنَ البُـزاةِ

---

(1) هو أبو عدي النعمان بن وادع المعريّ، من شعراء القرن السّادس الهجريّ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم الشّام): 2/ 41.

(2) المصدرنفسه: 2/ 42.

(3) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم مصر): 2/ 152

2

وتناول بعض الشّعراء أحوال المستخدمين وموظّفي الدّواوين، فأزاحوا النّقاب عن كثير من مساوئهم وعيوبهم، وما كان يصدر عن بعضهم من سلوكيّات سلبيّة، ولابن مِقْدام المحلّي – في هذا المقام – أبيات يُعرِّض فيها بنفرٍ من هؤلاء، مبيِّنًا استشراء الرّشوة بين صفوفهم، حتّى غدت من أبرز صفاتهم، وإن كانت نزعة الشّاعر الذّاتية تبدو ظاهرة من خلال قوله "فعادته احتجابي واعتزالي"، يقول[1]:

وكُتّابٌ لهم أبداً حُمَاتٌ ... تُعدُّ لها الرُّقى مِثْلُ الصِّلالِ[2]

وكلُّهمُ يَجُرُّ إليهِ نَفْعًا ... فعادتُهُ احتجابي واعتزالي

بأيدٍ تَبْتَدِرْنَ إلى الرَّشاوي ... كأيدي الخيلِ أبْصرتِ المخَالي[3]

ولعلّ شاعراً لم يعرض للمستخدمين كما فعل البوصيريّ، فقد شغل نقدُه لهم هوامشَ واسعةً من شعره، تناول فيها – بكثير من الإسهاب والتّفصيل – جوانب مختلفة من تعدّياتهم وانحرافاتهم. ومما قاله فيهم مبرزاً عدم نزاهتهم وميلهم عن جادّة الصّواب، مصوّراً شرورهم التي من شأنها أن تقلب الجنّة – على حدّ قوله – جحيماً[4]:

...أرى المستخدمين مَشَوا جميعاً ... على غيرِ الصِّراطِ المستقيمِ

---

(1) المصدر السابق: 2/ 42.

(2) حمات: جمع حمة وهي إبرة الزّنبور والعقرب. والصّلال: الأفاعي.

(3) المخالي: جمع مخلاة وهي الوعاء الذي يوضع فيه التبن والشعير للدابة، وعجز البيت تضمين من قول المتنبي:

لساحيهِ على الأجداثِ حَفْشٌ ... كأيدي الخيل أبصرتِ المخالي

انظر: المتنبي، أحمد بن الحسين (ت354هـ)، شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986م: 3/ 145.

(4) البوصيريّ، ديوانه: 255.

معاشرُ لو ولُوا جنّاتِ عَدْنٍ لصارتْ منهمُ نارَ الجحيمِ

فما مِنْ بَلدَةٍ إلا ومنهُمْ عليها كلُّ شيطانٍ رجيمِ

فلو كانَ النّجوم لها رُجُوماً إن خلتِ السّماءُ من النّجومِ

ومن الملاحظ أن تشهير البوصيريّ بهولاء المستخدمين، لم يكن ليقتصر على قصائده التي خصّهم بها، وإنّما تعدّى ذلك إلى موضوعات شعره الأخرى، وخاصّة في موضوع المدح، فهو لا يفتأ يذكّر بفسادهم وتجاوزهم. ومن أمثلة ذلك ما قاله من قصيدة مدح بها أحد الولاة، حيث يصوّر ما يصدر عنهم من تخريب وظلم، فهم – في رأيه – كالنّجس الذي لا بدّ من تطهير الأرض منه[1]:

..إذا تفكّرتَ في المستخدمينَ بدا مِنهُمْ لِعَيْنَيْكَ ما لَمْ يُبدِهِ النَّظَرُ

ظنُّوهُمُ عَمَرُوا الدُّنيا بِبذْلهمُ وإنّما خرّبوا الدّنيا وما عمرُوا

فَطَهِّرِ الأرضَ مِنْهمْ إنّهم خَبَثٌ لو يَغْسِلُونهُمُ بالبحرِ ما طَهَرُوا

نيرانُ شرٍّ كفانا اللهُ شرَّهُمُ لا يَرْحَمُونَ ولا يُبقونَ إن ظَفِروا

فاحْذرْ كِبارَ بَنِيْهمْ إنّهُمْ قُرَمٌ واحْذرْ صغارَ بنيهمْ إنّهُمْ شَرَرُ

وتعرّض البوصيريّ لبعض المحتسبين، فكشف عن جوانب من ألاعيبهم، والطّرق التي يلجأون إليها في استغلال الناس، حتى حصّلوا – حسب الشّاعر – أموالاً كثيرة، هي – في الأصل – من عرق الشّعب المنهوب وتعبه. يقول في وصف أحد هؤلاء من قصيدة طويلة، موضوعها الرّئيس المدح[2]:

.. حَصّلَ مالاً جَمًّا وعدّده مِنْ أصلِ مالِ الزّكاةِ والوَهْبَهْ

(1) المصدر السابق: 140.

(2) البوصيريّ، ديوانه: 100.

وصارَ عَدْلاً وعاقداً وأمينَ الـ ـحُكم من دونِ العدولِ في حِقْبهْ

غير أنّ أشهر شعره – في هذا المجال – قصيدتان. الأولى: قالها في هجاء عامل أسوان، ومطلعها[1]:

انظُرْ بحقِّكَ في أمرِ الدّواوينِ فَالكُلُّ قدْ غيّروا وَضْعَ القوانينِ

والثانية: تناول فيها المستخدمين بصورة عامّة، مفصّلاً الكثير من مساوئهم وانحرافاتهم، ومطلعها[2]:

ثَكِلْتُ طوائفَ المُستَخْدَمينا فلمْ أرَ فيهمُ رجلاً أمْينا

والقصيدتان طويلتان، قصر الشّاعر موضوعهما على المستخدمين، فتحدّث عن خيانتهم وسرقتهم وثرائهم على حساب الأغلبيّة، عن طريق كنزهم الأموال التي لا يتورّعون في سبيل تحصيلها عن اتّباع أيّة وسيلة. ثمّ تناول بعض سلبيّاتهم من مثل مجونهم وأخذهم الرّشوة بلا حياء أو حرج. وقد آثرتُ ألا أفصّل القول في هاتين القصيدتين؛ وذلك لأنّ كثيراً من الباحثين قد تناولوهما بالدّرس والتّحليل[3].

---

(1) المصدر نفسه: 262.

(2) المصدر نفسه: 266.

(3) من هذه الدّراسات على سبيل المثال:

- محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ط1، دار الحمّامي للطّباعة، القاهرة، 1965م: 8/ 235-238.
- محمد رجب النجار، الشّعر الشعبي السّاخر في عصور المماليك، مجلة عالم الفكر، م13، ع3، وزارة الإعلام، الكويت، 1982م: 131-135.
- فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول (قضايا المجتمع والفّن)، دار المعرفة الجامعيّة، بيروت، 1993م : 137-139.
- شفيق الرقب، النزعة الاجتماعيّة في شعر البوصيريّ، مجلّة مؤتة للبحوث والدّراسات، م10، ع2، جامعة مؤتة، 1995م: 168-174.

3

وطال الشّعراء في نقدهم الاجتماعيّ رجال القضاء، فقدّموا صورًا متعدّدة من سلوكيّاتهم المنحرفة وأحكامهم الجائرة. وقد كان النّقد - في هذا الجانب - حادًّا، ومن الطّبيعيّ أن يكون كذلك؛ فالقضاء من أخطر المناصب وأكثرها خصوصية، وذلك لارتباطه الدّقيق بحياة النّاس وشؤونهم، ولما قد يترتّب على ذلك - إن لم يتّصف القائمون عليه بالنّزاهة والاستقامة - من مظالم وتعدّيات من شأنها أن تملأ النّفوس بمشاعر ساخطة واحتقانات مدفونة!

وتكشف بعض النّماذج الشّعريّة عن حالة من الشّكوى والتّذمُّر للوضع المتردّي الذي وصل القضاء إليه في بعض الفترات. وقد جسّد أبو المجد المعريّ[1] شيئاً من هذا حين وصف سوء ما آلت إليه أحوال النّاس نتيجة ظلم بعض القضاة الذين باتوا كالذّئاب المتلهّفة لافتراس ضحاياه الضّعيفة على حدّ قوله[2]:

تولّى الحكمَ بين الناس قومٌ ... بِهِمْ نَزَلَ البلاءُ من السّماءِ
كَأنّهُمُ الذِّئابُ إذا تَعاوَتْ ... سواغِبُها على آثارِ شاءِ
يَقُولُ القائلونَ إذا رَأوهُمْ ... لَقَدْ جارَ القَضَاءُ على القَضَاءِ

إنّها حالة من المفارقة وقلب الموازين، فبدل أن يكون القاضي حريصًا على إقامة العدل، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، إذ به نفسه يتحول إلى خصم لدود لا يؤتمن جانبه!

ويعبّر أبو شامة المقدسيّ عن حالة مشابهة أُخرى لمآسي القضاء في عصره، وذلك حينما تولّى الحكم ثلاثة من القضاة، ممّن اشتهروا بالجور والفسق، فيذكر ما كانوا

---

(1) هو محمد بن عبد الله بن محمد، فقيه وأديب من أهل المعرّة، توفي سنة 523هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشّام): 2/ 7؛ الصّفدي، الوافي بالوفيات: 3/ 334.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم شعراء الشام): 2/ 12.

يتّصفون به من جهل وانحراف وعجمة، غير متردّد عن التّصريح بأسمائهم التي أثقل بها الأبيات، فجاءت على هذا النّحو من التقريريّة، وغلبة النّزعة العقليّة الجافّة[1]:

دمشقُ في عَصْرِنا مع فَضْلِها بُليتْ ... من القُضاةِ بِجُهّالٍ وأوْقاحِ

بأعجمينِ ومصريٍّ وصائغِهمْ ... والأربليّ وخيّاطٍ وفلاحِ

وتتردّد نغمة الاستياء من أحوال القضاء، حين عيّن الظّاهر بيبرس سنة 663هـ على ولاية القضاء أربعة قضاة يمثّلون المذاهب الأربعة، فنجد بعض "التّعليقات السيّارة" التي تختزل الموقف بأسلوب تكثيفيّ بالغ التّعبير من خلال أقلّ عدد من الكلمات، وممّا قيل في ذلك[2]:

أهلُ دمشق استرابُوا ... من كثرةِ الحكّامِ

وهم جميعًا شُمُوسٌ ... وَحَالُهُمْ في ظلامِ

وقيل أيضاً[3]:

أظلمَ الشّامُ وقدْ ... ولي الحكمَ شُمُوسُ

ليسَ فيهم من يبتُّ الـ ... ـحُكْمَ عِلْمًا أو يَسوسُ

والطّريف في الأمر أنّ هؤلاء القضاة المعيّنين، كان لقب كلّ واحد منهم يبدأ بـ "شمس الدّين"، فاستغلّ بعض الظّرفاء مفارقة الموقف، مجسّدين الواقع بهذه السّخرية المرّة. وهي أبيات لا يُعْرَف قائلُها على وجه التّحديد، ولكنّها تحمل نبض "الشّارع العّام"، وما كان يخالجه من شعور وإحساس تجاه كثير من القضايا والأحداث ذات الارتباط المباشر بحياته وواقعه.

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين: 214؛ وفي انحرافات القضاة وسوء سيرتهم انظر كذلك: المصدر نفسه: 201؛ الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 138.

(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين: 236.

(3) المصدر نفسه.

وقد ركزّ الشّعراء – في هذا المجال – على بعض المثالب والتّجاوزات التي تصدر عن بعض هؤلاء القضاة، قاصدين تجريدهم من هيبتهم وقيمتهم التي يفترض اتّصافهم بها، فما قيمة القاضي إن كان جاهلاً، لا علم له ولا دراية؟! أليس من شأن هذا أن يقوده إلى الظلم والقضاء على المعاني السّامية، على نحو ما يذهب سلامة السّنجاري[1] في أبيات لا تخلو – مع ذلك – من تمحُّك وتصنُّع ظاهرين[2]:

ضاقَ بحفظِ العلومِ ذرعًا   ضيقةَ كفّيهِ بالأيادي

قاضٍ ولكنْ على المعالي   والدِّينِ والعقلِ والسّدادِ

يعدلُ في حُكْمِهِ ولكنْ   إلى الرُّشا أو عن الرّشادِ

أو حين يكون ذا طبيعة ازدواجيّة متناقضة، يبدو في الظّاهر ورعاً زاهداً راغباً عن الدّنيا وزخرفها، ولكنّه – في سريرته – شره طمّاع، تميل به نفسه لأهون إغراء أو اختبار، وذلك كما يلمس من قول أبي المشرف الدّجرجاوي[3] في أحد القضاة[4]:

قاضٍ إذا انفصلَ الخصمان ردَّهما   إلى الخِصَامِ بحُكْمٍ غيرِ مُنْفَصِلِ

يُبدي الزّهادةَ في الدُّنيا وزُخْرُفِها   جَهْرا ويَقْبَلُ سِرًّا بَعْرَةَ الجَمَلِ

مُهلّلُ الدّهرِ لا في وَقْتِ هَيْلَلَةٍ   وَيَلْزَمُ الصّمتَ وَقْتَ القوْلِ والعَمَلِ

---

(1) من شعراء الخريدة، يذكر العماد أنّه عاش بعد خمس مئة هجريّة. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام): 2/ 400، الصّفدي، الوافي بالوفيات: 15/ 327.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام): 2/ 400.

(3) ترجم له العماد بقوله: "من أهل مصر، وكان في عصرنا الأقرب" ونسبه ياقوت الحموي إلى دَجِرْجا وهي بلدة بالصعيد. انظر العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم مصر): 2/ 66؛ ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 2/ 440.

(4) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم مصر): 2/ 66.

وقد يثير الثراء الفاحش لبعض القضاة حفيظة كثير من الناس، ويدفعهم إلى التّساؤل عن مصدر هذه الثّروة، والطّرق التي حُصّلت بها. وقد بدا مثل هذا مع ابن منير الطرابلسيّ الذي يقوده نصيبه إلى الدّخول في بيت القاضي الأعزّ[1]، حيث يصاب بالدّهشة حين يشاهد ما فيه من مظاهر الغنى والتّرف والنّعيم[2]:

... فدخلنا الدِّهليزَ وابتدرَ الإذْ ... نَ فأُغْرِقْتُ في دمقْسٍ وخَزٍّ

بينَ دَسْتٍ وسلّةٍ ودَوَاةٍ ... ورقيقٍ من تُستَريٍّ وقَزٍّ

ودعا بالطّعام فامتَرتُ من حُلْـ ... ـوٍ ومن حامضِ المذَاقِ ومزٍّ

إنّ منزلاً بمثل هذه المواصفات – إنْ صحّ ما ذهب الشّاعر إليه – يجعل المرء يتساءل عن مدى التّفاوت بين طبقات المجتمع، وما يمكن أن يثيره كلّ هذا من إحن وضغائن في النفوس!

4

وقد اتّسع نطاق هذا النقد، فشمل – زيادة على ما تقدّم – الفقهاء والخطباء وأئمة المساجد، ومن أبرز النّماذج وأطرفها – في هذا المقام – ما قاله عبد المنعم الجليانيّ في رسم صورة ساخرة لفئة من الفقهاء الجهلة الذين لا يعنّون أنفسهم في تحصيل العلم، وإنّما يكون غاية ما يطمحون إليه التّشبُّث بمظاهر شكليّة، لا تخدم واجبهم في شيء، من مثل ارتداء الملابس ذات الأكمام الفضفاضة، والصّراخ بصوتٍ عالٍ، وغير ذلك من ممارسات شكليّة واضحة، يقول[3]:

---

(1) هو أبو الفتح محمد بن هبة الله بن خلف التّميميّ، توفي في دمشق سنة 532هـ. انظر: ابن القلانسي، تاريخ دمشق: 418؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: 4/ 101.

(2) ابن منير، ديوانه: 146.

(3) ابن سعيد الأندلسيّ، الغصون اليانعة: 107؛ ويبدو أنّ هذه الصورة كانت صدى لحياة بعض الفقهاء آنذاك، فثمّة – في المعنى نفسه – مقامة طريفة للوهرانيّ، تناولت جهل بعض هؤلاء

يـــا ســـــاهراً في اقتنـاءِ علـــم   يَخْــــطبُ منـــهُ مقــــام مُحكَـــمْ

بـــدون هـــــــذا تُـــرى فقيْهَـــــا   فوسِّـــــع الكُـــــمَّ ثُـــمّ عمِّـــمْ

والــــبسْ مـــن الـــشّهبِ طيلـــساناً   واغمــــــدْه في المنكــــبين واختُـــمْ

واجلــسْ مــع القــــومِ في جــدالٍ   لا بالبُخـــــــاري ولا بمُــــــسلمْ

إلا صياحــــــاً ونفْــضَ كُـــــمٍّ   ونظْـــمَ "لالا" وقـــولَ "لَـــمْ لَـــمْ"

إنّها صورة سلبيّة تعكس واقع بعض الفقهاء، ولكنّها ليست الوحيدة؛ فقد تخطّت تعدّياتهم – حسب ما رسمها الشّعراء – هذا الحدّ، فهناك من تجاوز حدود الدّين والخلق، فجلُّ وقته يقضيه في ضروب من اللّهو والمجون، وقد عبّر الوهرانيّ[1] عن مثل هذا بقوله في فقيه يسمى (ابن الحكيم)، حيث يرصد بعضاً من تجاوزاته المشينة[2].

.. مـــدارسٌ درســتْ آي العلـومِ بهـا   فأصــبحتْ لخيـــولِ اللّهـــو ميدانــــا

لابْـنِ الحكيمِ أطــــالَ اللهُ مُـــــدَّتَهُ   مَغْنــىً رحيــبٌ عــنِ الحانـاتِ أغْنانــا

مَثْوى المغـاني ومــأوى كـلِّ زانيــةٍ   يلقَـــونَ درسَـــهُمُ شـــدواً وألحانــاً!

وليس غريباً أن تثير مثل هذه المنكرات استياء النّاس وغضبهم، وذلك لما لهذه الوظائف الدّينيّة من مكانة وهيبة في النّفوس. وقد عبّر الشّعراء عن رفضهم وتندّرهم من مثل هذه التّصرُّفات. وكان ابن عنين صاحب اليد الطولى في هذا المجال، فقد استثمر –

=الفقهاء، وقلّة معرفتهم بمثل هذه السّخرية اللاذعة. انظر: الوهراني، ركن الدين محمد (ت575هـ)، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان ومحمد نغش، دار الكاتب العربيّ للطباعة والنشر، القاهرة، 1968م: 97-102.

(1) هو أبو عبد الله، محمد بن مُحْرز الوهرانيّ، أصله من وهران (قرب تلمسان)، قدم إلى مصر في أيام السلطان صلاح الدّين، له مقامات ومنامات منشورة، توفي بدمشق سنة 575هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 4/ 385؛ الزركليّ، الأعلام: 7/ 19.

(2) الوهراني، منامات الوهراني: 215؛ وفي المعنى نفسه انظر: الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 138.

ببراعة واضحة – فكاهته وسرعة بديهته في السُّخرية من بعض رجالات الدّين في عصره، على نحو ما يبدو من تهكّمه من خطبة الدّولعي[1] التي يطيلها – كما يذهب ابن عنين – إلى حدّ الضّجر، إضافة إلى ما يضمّنها من أفكار منفّرة مفزعة[2]:

طـــــوّلتَ يـا دولعـيّ فقـصّـرْ فأنـــتَ في غَــــــيْرِ ذا مُقــصِّــرْ

خطــــابةٌ كلُّهــــــا خُطُـوبٌ وبَعْــضُها للــــوَرى مُنفِّــــــرْ

أو قوله في فقيهين كانا يتناظران، إذ يقرن أحدهما بالبغل والآخر بالجاموس، مصوّراً جهلهما، وافتقارهما إلى أصول الحوار القائم على الحجّة والمنطق[3]:

البَغْلُ والجَامُوسُ فــي جَدَليهـــــما قــدْ أصْبَحَــا مَـثلاً لكـلِّ مُنـاظرِ

برَزا عشيّــةَ ليلـــــةٍ فتَـــناظـــرا هــــذا بقَرنيــــه وذا بالحــــافِرِ

مـــا أحكـــما غيرَ الـصِّياحِ كـأنّــما لَقِنا جـدالَ المُرْتـضَى بـنِ عـساكـرِ

جلفـــانِ مـــا لهـــما شبيــةٌ ثالـثٌ إلا رقاعـــــةُ مدلويــهِ الــشّاعرِ[4]

ولا يغفل الإشارة – حتّى وهو في أقصى فكاهته – إلى النّقد والتّعريض؛ فحين أمر الملك العادل – مثلاً – سنة 610هـ أيام الجمع بوضع سلاسل على أبواب الطّريق إلى الجامع الأمويّ؛ لئلا تصل الخيول إلى قريب الجامع صيانة للمسلمين عن التأذّي بها[5]،

---

(1) هو جمال الدين محمد بن أبي الفضل الشافعيّ، خطيب دمشق لمدة طويلة، توفي سنة 635هـ. انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: 5/ 174

(2) ابن عُنين، ديوانه: 188؛ وللاستزادة انظر المصدر نفسه: 182-183

(3) المصدر السابق: 205.

(4) مدلويه الشاعر هو الرشيد النابلسيّ، وقد سبقت ترجمته.

(5) النعيمي، الدّارس في تاريخ المدارس: 2/ 392.

نراه يعمد إلى التّصرُّف بهذه الحادثة، ليوجِّه – من خلالها – نقده إلى القائمين على أمر ذلك المسجد، واتّهامهم بسرقة أمواله ونهبها، وذلك حين يقول[1]:

لـمّـا رأى الجـامـعُ أموالَـهُ   مأكـولةً مـا بـينَ نُوّابـهِ
جُـنّ فَمِـنْ خـوفٍ غـدا   مُسلسـلاً مـن كـلِّ أبوابـهِ
وكـيفَ لا تعتـادُهُ جِـنّةٌ   وَقَـدْ رأى المَسْخَ لأربابـهِ
القِـرْدُ في شبّـاكِهِ حـاكمٌ   والتّـيسُ في قُبّـةِ مِحـرَابِهِ

3. هجاء أصحاب المهن

لم يقف الشّعراء في هجائهم الاجتماعيّ عند مستخدمي الدّولة من ولاة وعمّال وموظّفين... وإنّما تعدّوا ذلك إلى نواحٍ مختلفة من الحياة الاجتماعيّة ونشاطاتها. وكان للمهنيين من أطباء ومغنّين ومزيّنين وغيرهم، جانب من هذا الهجاء. غير أنّ هذا الهجاء لم يكن – من حيث الكمّ – على درجة واحدة؛ ففي حين نجد هجاء وافراً لأصحاب بعض المهن (كالأطباء والمغنّين)، نكاد – في المقابل – لا نعثر على شيءٍ لأصحاب مهن أخرى (كالنجارين، والمعلّمين، والكتّاب، وغيرهم).

1

وقد كثر الشّعر الذي قيل في هجاء الأطباء بصورة تسترعي النّظر، ولعلّ لذلك غير ما دلالة، منها: انتشار مهنة الطّب في هذه الفترة انتشاراً واسعاً، وكثرة أعداد المشتغلين فيها. وقد ذكرت المصادر أسماء أعداد كبيرة من هؤلاء[2]. وفي هذا – كما لا

(1) ابن عُنين، ديوانه: 143 .

(2) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: 568 وما بعدها؛ أحمد أحمد بدوي، الحياة العقليّة في عصر الحروب الصليبيّة بمصر والشام، دار نهضة مصر للطبع والنشر، بلا تاريخ: 307-323.

يخفى – مؤشّر واضح على ما تمتّعت به البلاد من تقدّم حضاريّ تمثّل جانب منه في الاهتمام بهذه المهنة، وإقامة المرافق اللازمة لها[1].

ومن الدّلائل المستخلصة أيضًا، أنّ بعض الأطباء كان يرتكب في عمله تجاوزات وأخطاء، سببها – في أغلب الأحيان – جهله وعدم معرفته بأصول هذه المهنة. وقد ركّزت معظم أهاجي الشّعراء لهؤلاء الأطباء على هذه الناحية، فصوّروا ما كان يتّصف به بعضهم من قصور وقلّة معرفة. من ذلك ما قاله أميّة بن الصّلت في طبيب جاهل يلجأ إلى الرُّقى والشّعبذة في مداواة المرضى، ممّا كان له أثره السلبيّ عليهم[2]:

وطبيبٍ مُشَعْبذٍ ... يَمْزِجُ الطّبَّ بالرُّقى
ما رأيناهُ قطّ طَبْـ ... ـبَ عليلاً فوفّقا
بلْ عَدِمَ الصّحّةَ في الـ ... ـجسمِ والقلبِ والبَقا
ذو صفاتٍ تُغادرُ الْـ ... ـجِسْمَ ممّا به لقى
عادماً للحِراكِ والحسّ ... والخفّ والنّقا
قَدْ سقاهُ به الحِما ... مَ ولم يَدْرِ ما سقى

(1) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت614هـ)، رحلة ابن جبير، ط2، مكتبة الهلال، بيروت، 1986م: 15، 24، 207، 209، 230.

(2) أميّة بن أبي الصّلت، ديوانه: 126؛ وفي تعريض الشّعراء بجهل الأطباء انظر كذلك: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): 2/ 187، 387؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: 577، 581، 717.

أما ابن خروف الأندلسيّ[1] فيحصي من أخطاء الدّخوار الطّبيب[2] ومساوئ طبّه الكثير، نافيًا عنه معرفته بالطّب علمًا وعملاً، واصفًا جهله الذي أودى بأرواح النّاس[3]:

إنّ الأعيرجَ حازَ الطّبَّ أجمعَهُ ... أستغفرُ اللهَ إلا العلمَ والعَملا

وليسَ يجهلُ شيئاً من غوامضِهِ ... إلا الدّلائلَ والأمراضَ والعِللاَ

في حيلةِ البُرْءِ قلّتْ عندهُ حِيَلٌ ... بَعْدَ اجتهادٍ وَيَدْري للرَّدى حيلا

الرّوحُ تسكُنُ جُثمانَ العليل على ... علاّتِهِ فإذا ما طبّه رَحلا !

ويُكثِر فتيان الشاغوريّ من هجاء طبيب يسمّى (نَصْراً)، مبرزاً كثرة القتلى الذين ماتوا على يديه، ومما قاله فيه[4]:

إنْ دامَ طِبُّكَ هذا ... يا نَصْرُ في كَفْر عامِرْ

عمّرتَ عمّا قليلٍ ... بساكنيها المقابِرْ

فظاهرُ الأرضِ قَفْرٌ ... وباطنُ الأرضِ عامِرْ

وقد كشف الشّعراء عمّا كان يقوم به بعض الأطباء من ممارسات شكليّة لا تخفى وراءها سوى الجهل وقلّة المعرفة، ولعلّهم كان يتّبعون ذلك خداعاً للناس لا أكثر. يقول أحد الشّعراء في بعض هؤلاء[5]:

---

(1) هو علي بن محمد بن خروف الأندلسيّ، حضر من إشبيلية، كان إماماً من أئمة العربيّة، توفي سنة 609هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 246.

(2) هو عبد الرّحيم بن علي بن حامد، من أشهر أطباء دمشق، توفي سنة 627هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 315 .

(3) الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 317؛ وللاستزادة انظر: المصدر نفسه: 2/ 318.

(4) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: 204؛ وللاستزادة: 316، 585.

(5) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام): 2/ 186.

مـــا خَطَـر النّـبضُ عـــلى بالِـــهِ　　　يومـــاً ولا يعـــرفُ مـا المـــاءُ

بـَـــلْ ظــــنَّ أنّ الطِّـبَّ درّاعـــةٌ　　　ولحيــــــةٌ كــــالقُطْنِ بيـضـــاءُ

وصوّر الشّعر حال بعض الكحّالين، وما كانوا يلحقونه بأعين الناس من ضرر، ولهبة الله بن وزير أبيات في طبيب يدعى (ابن المدّ) يعبّر فيها عن صنعته التي لم يوافقها الرّشاد يوماً، وما كان يجلبه للأجفان من آلام شديدة، مصدرها كحله الذي يسبّب للعين الصّحيحة العمى المحقق – على حدّ قوله-[1]:

لنَجْــــلِ المُــدِّ عبدٌ ضرّ ما خلقَا　　　بميـلٍ مـالَ عـنْ طُـرُقِ النَّجـاحِ

إذا مـا حــلّ في الأجفـانِ أبـدى　　　بـهِ وَخْـز الأسنّـةِ بالرِّمـــاح

لَـهُ كُحْـــلٌ أعـــادَ اللهُ مِنْـــهُ　　　يَسُوقُ السّقمَ للحَدَقِ الصِّحاحِ

إذا كَحَـــلَ العُيـونَ بـهِ تـساوتْ　　　دُجى ليلِ المريضِ مـع الصَّباحِ

وقد رصد الشّعراء من تجاوزات هؤلاء الكحّالين الكثير، فهناك من كان "يضيّع كلّ يوم ألف عين!"[2]، على ما في هذا القول من مبالغة، وهناك من كانت كفّه تُذْهِبُ سواد العين، مخلّفة وراءها مآسي وبياضاً[3]، وهناك من كان يداوي "العين كالضّرس بالقلع!"[4].

ومن الطّبيعيّ – نتيجة هذا الجهل الفاضح – أن تكثر السّخرية والتّهكّم من هؤلاء الأطباء، فانبرى كثير من الشّعراء إلى هذه السبيل، فأخرجوا صوراً هزليّة في ذلك؛

---

(1) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): 2/ 144؛ وفي المعنى نفسه انظر: ابن عنين: ديوانه: 240 .

(2) ابن دانيال، المختار من شعره: 94.

(3) الكتبيّ، فوات الوفيات: 4/ 56.

(4) ابن دانيال، المختار من شعره: 93.

فالجليس بن الجباب[1]– مثلاً – يسخر من طبّ أحدهم، فيصوّره مفرّقاً بينه وبين العافية، وهو بدل أن يقضي على الحمّى مع أنّها "قد شاخت وباخت" إذ به يجدّد لها شبابها، فأعاد له السّقم ثانية بدل أن ينهيه[2]:

وأصـلُ بليَّتي مَنْ قَـدْ غزَاني ... مـن السّقمِ المُلحّ بِعَسْكرينِ

طـبيبٌ طِبُّـهُ كَـغُرابِ بَيْنٍ ... يُفـرِّقُ بَـيْنَ عـافيتي وبيني

أتـى الحُمّى وقـدْ شاختْ وباختْ ... فعـادَ لهـا الشّبابُ بنسختَينِ

ودبَّـرها بتـدبيرٍ لطيـفٍ ... حَكـاهُ عـنْ سِنانٍ أو حُنينِ[3]

وكـانتْ نَوْبـةً في كـلِّ يَوْمٍ ... فـصيَّرهـا بحـذقٍ نَـوْبتينِ

وينبغي أن يدرك أنّ بعضاً من هذا الشّعر كان يرد في سياق الدّعابة والفكاهة. ولكنّه – مع ذلك – لا يخلو من إشارات ناقدة. وبعضه كان يرد في سياق التّنافس بين أفراد المهنة الواحدة؛ فقد كان كثير من هؤلاء الأطباء شعراء. وقد أورد ابن أبي أصيبعة في كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" نماذج وافرة من هذا الشّعر[4].

---

(1) هو عبد العزيز بن الحسين بن الجباب، من شعراء الدّولة الفاطميّة، توفي سنة 561هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 332.

(2) المصدر السّابق: 2/ 333

(3) سنان: هو سنان بن ثابت بن قرّة الحرّاني، طبيب ذو منزلة رفيعة، خدم المقتدر العباسيّ، توفي سنة 331هـ. انظر: الزركلي، الأعلام: 3/ 141؛ أما حنين فهو: حنين بن إسحاق، طبيب ومترجم ومؤرّخ، اتّصل بالمأمون، وترك عدداً من المصنفات، توفي سنة 260هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 2/ 217.

(4) انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: 540، وما بعدها من صفحات.

2

وانتشر كذلك هجاء المغنّين والمغنّيات، ولعلّ لهذا ما يفسِّره أيضاً؛ فمن المعروف أنّ الغناء يشيع – عادة – في الأجواء المترفة، وبين الطّبقات التي تتمتّع بقدر من الغنى ويسر الحال. وبذلك فمن الواضح أنّ العصر لم يكن كلّه عصر فاقة وحرمان، وإنّما كان هناك وجه آخر للمشهد، تمثّل بما أدركته بعض الطّبقات من ثروات وأموال طائلة. ويكفي أن يتذكّر المرء – على سبيل المثال – ما ذكره أبو شامة المقدسيّ من مظاهر هذا الثّراء في كتابه "الرّوضتين في أخبار الدّولتين" حين أورد خبر سقوط الدّولة الفاطميّة سنة 567هـ واستيلاء صلاح الدّين على قصر العاضد[1] بعيد وفاته[2].

كما أنّ انتشار الغناء بهذا الشّكل، يعني أنّ صورة العصر لم تكن كلّها قاتمة وحزينة، بفعل ما تعرّضت له البلاد من أخطار فادحة، تمثّلت في غزوين خارجيّين مدّمرين. زيادة على ما كان يلحق الوضع الداخليّ من سوء، وما كان يعانيه عامّة النّاس – أحياناً – من تعسّف بعض الحكّام وظلمهم؛ فقد كان هنالك – بالرغم مما قد يعكّر الصّفو وينغّصه – وجه مشرق ضاحك، ترجمته هذه الأصوات التي تغنّت للحياة وانتشت بها.

وقد جاء هجاء الشّعراء لهذه الفئة، بما يتناسب وطبيعة عملها، فكان تركيزهم على الصّوت، وجماله ومناسبته للإيقاع، وغير ذلك من متطلّبات رئيسة لهذه المهنة؛ فعرقلة

---

(1) هو عبد الله بن يوسف بن الحافظ، الملقب بالعاضد لدين الله، آخر خلفاء الفاطميين، بويع بالخلافة سنة 555هـ، وتوفي سنة 567هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 3/ 109؛ الزّركليّ، الأعلام: 4/ 174.

(2) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: 2/ 193-194؛ وانظر صوراً من هذا الثّراء في: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 2/ 451(في ترجمة الأفضل الجماليّ)؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 194(في ترجمة صفي الدّين بن شكر).

الكلبيّ – مثلاً – يذمّ مغنياً يسمّى (عليّاً)، مشبّهاً وقع صوته على مستمعيه بوقع السّوط اللاذع، يقول[1]:

عـــليٌّ صــوتُـــهُ ســـوطٌ　　عـــلينا لا علـى الفَـــرَسِ

وجُمـــلةُ ضَـــرْبِهِ ضَـــرْبٌ　　لـــمـــدّرعٍ ومُـــتّرسِ[2]

يَقــولُ الــسّامــعُونَ لـــهُ:　　رمـــاهُ اللهُ بالخَـــرَسِ

وخُـــذْ يـــا ربُّ مُهْجَتَــهُ　　إذا غـــنّى: "خُـــذي نَفَــسي"

لقد رافق قبح صوت هذا المغنّي إيقاع صاخب مدوّ، لا يتناسب البتّة مع أغنية رقيقة كهذه!

أمّا ابن قلاقس، فيلحّ على الفكرة نفسها، وهي منافرة الصّوت للإيقاع، وعدم الانسجام بينهما. ويضيف للمشهد صورة طريفة لزامر، يبدو التّنافر – كذلك – بارزاً ما بين طول رقبته، وقصر نَفَسه، وذلك إذ يقول[3]:

يُنـــافِرُ إيقاعُـــهُ صَـــوْتَهُ　　فَهَـــذَا يَزِيــدُ وَذَا يَنْقـــصُ

ويتبعُـــهُ زامـــرٌ مِثْلُـــهُ　　تَـــليْعٌ لـــهُ نَفَـــسٌ أوْقَـــصُ[4]

فـــإنْ قـــامَ بيننـــا راقـــصًـــا　　فكـــلٌّ إلى بيتِـــه يَـــرْقُصُ[5]

---

(1) عرقلة الكلبيّ، ديوانه: 55.

(2) المدّرع: لابس الدّرع، والمتّرس: لابس التّرس.

(3) ابن قلاقس، ديوانه: 184.

(4) تليع: طويل الرّقبة، أوقص: قصير الرّقبة، والمقصود أنّ هذا الزّامر طويل الرّقبة إلا أنّه قصير النّفس.

(5) يرقص: المقصود بها يسرع.

ولم يكن قبح الصّوت وعدم انسجامه مع الإيقاع المصاحب للغناء، هما وحدهما المثلبتين اللتين رمى بهما الشّعراءُ المغنّين، وإنّما أضافوا إلى ذلك رداءة الشّعر المغنّى. وهنا يبدو الحرص على الاستماع لغناء يجمع ما بين عناصر الأغنية المتكاملة، وهي الصّوت، والإيقاع (اللّحن)، والكلمة (الشّعر). وذلك على نحو ما يبدو من قول ابن قلاقس نفسه الذي يذمّ مغنّيا آخر، مصوّرًا برودة هذا الشّعر المغنّى الذي أثار السّأم في نفوس المستمعين[1]:

غنّى فكلُّ حاضرٍ إصبعُهُ في أذنِهِ

شِعْراً كَبَرْدِ فكّهِ لفظاً وطُولِ قَرْنِهِ

فالحمدُ لله الّذي غنّى فلمْ يُثنِّهِ

وكان من الطبيعيّ أن يواجه هؤلاء المغنّون صدود الناس وإعراضهم. وقد عبّر الخطيب الحصكفي[2] عن مثل هذا حين وصف ما لاقاه أحد المغنّين من إعراض وازورار، فلا يكاد يستمع إليه أحد إلا كرها، وهو ممنوع من دخول أكثر البيوت، بل لقد تجاوز الأمر ذلك، فلم يسلم هو نفسه من الضّرب والصّفع، وكلّ ذلك بسبب ما أثاره في النّفوس من رتابة وملل، يقول[3]:

ومُسْمِعٍ قَوْلُهُ بالكُرْهِ مَسمُوعُ مُحَجَّبٌ عنْ بُيُوتِ النّاسِ مَمْنُوعُ

غنّى فَبَرّقَ عينيْهِ وحَرّكَ لحـ ـييه، فَقُلْنا الفتى لا شكّ مَصْروعُ

وَقَطّعَ الشّعْرَ حتّى ودّ أكثرُنا أنّ اللّسانَ الّذي في فِيْهِ مَقْطوعُ

---

(1) المصدر السابق: 189.

(2) هو أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين، كان شاعراً وخطيباً ومترسّلاً، توفي سنة 550هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): 2/ 471؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: 6/ 205.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان: 6/ 208؛ وللاستزادة انظر المصدر نفسه: 6/ 207.

لم يـــأتِ دَعْـــوةَ أقْـوَامٍ بِأمْـرِهِمُ ولا مَـضـى قَـطُّ إلاّ وهـو مَـصْفُوعُ

وكان حسن الهيئة وجمال الخِلْقة من المواصفات المطلوبة لدى المغنّيات خاصّة، إذ لم يكتف بحلاوة الصّوت واتّساقه فحسب، وإنّما كان يُفضَّل أن يصاحب هذا جمال وجه وقوام. ولذلك تندّر الشُّعراء ببعض المغنّيات اللائي كنّ يفتقرن لميسم الجمال؛ فقد سخر القاضي الفاضل من قينة كبيرة الأنف، معبّراً عمّا خالجه من شعور منفّر ساعة غنّت بهذه الصّورة (الكاريكاتوريّة) المضحكة[1]:

وَقَيْنَـةٍ كُـلُّ وَجْـهِها أنْـفُ كأنّـما وَجْهُهـا لَهَـا خَلْـفُ

غـنّتْ، فلَـمْ تَبْـقَ فيّ جارحـةٌ إلاّ تَـمَنَّتْ أنّهـا كَـفُّ

ويجسّد مثل هذا الموقف – بأسلوب طريف – أميّة بن أبي الصّلت، حين يهجو مغنّياً قبيح الصّورة، لكنّه حسن الصّوت، فيصوّر حالةً من التّناقض تبدّت في تعذُّب طرفه من معاينة وجهه، مقابل تنعُّم سمعه من طلاوة إنشاده، فتكون الحالة على درجة واحدة من المساواة، يقول[2]:

يُعـذَّبُ طَرْفِي حِيْنَ يَلْحَظُ وَجْهَهُ ويَـنْعمُ سمعـي دونَـهُ عِنْدَما يَشْدُو

إسـاءةُ مَـرآهُ لإحسَـانِ فِعْلِـهِ كفـاءٌ فَلا حُسْنٌ يدومُ ولا سَعْدُ

---

(1) القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي (ت596هـ)، ديوانه، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، ط1، دار الكتاب العربيّ، القاهرة، 1961م: 2/ 426؛ وانظر في المعنى نفسه: ابن الشّعار الموصليّ، قلائد الجمان، (مخطوط): 10/ 294؛ عرقلة الكلبيّ، ديوانه: 88.

(2) أميّة بن أبي الصّلت، ديوانه: 79.

3

وكان المزيّنون (الحلاقون) من أصحاب المهن الذين ورد – على قلّة – هجاؤهم في هذا الشّعر. وقد بالغ ظافر الحدّاد[1] في رسم صورة ساخرة لمزيّن يسمّى (مسعوداً)، جمع فيها ما بين قُبْح وجهه الذي لا يبهج ناظراً، وصنعته التي لم تقرن – يوماً – بنجاح، ذلك أنّ من يزره مرّة فلن يعاودها بأخرى، وكلّ ذلك لأنّه[2]:

.. لا يَحْلِقُ الرّأسَ إلا مَرَّةً وبِها تُغْنِيهِ عَنْ عَوْدَةٍ ما مدَّةُ العمرُ

لأنّ أَلْطَفَ لَمسٍ مِنْ أنامِلِهِ سَلْخٌ، وهلْ بَعْدَ سلْخٍ يَنْبتُ الشَّعَرُ؟

4

وثمّة ظاهرة بارزة بدت في شعر هذه الفترة، ولا سيما في أواخرها (أي ما يصادف بداية عهد المماليك) تلك هي هجاء بعض الشّعراء لمهنهم، وتبرّمهم من الأوضاع التي يعيشونها. فقد عرفنا في مدخل هذه الدّراسة أنّ بعضاً من شعراء هذا العصر كانوا أصحاب مهن، فكان منهم المعلّم، والحدّاد، والورّاق، والكحّال، وغير ذلك. ومن الواضح أنّ الذي ساقهم إلى ذلك هو الفقر والحاجة؛ إذ لم تعد حرفة الأدب تقيم الأود، وتحفظ للمرء كرامة العيش، كما كان العهد في عصور خلت، وقد عبّر غير ما شاعر عن

(1) هو أبو المنصور ظافر بن القاسم الجذاميّ الإسكندرانيّ، شاعر مصري مجيد، توفي في مصر سنة 529هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): 1-17؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: 2/ 540.

(2) ظافر الحدّاد (ت529هـ)، ديوانه، تحقيق: حسين نصّار، ط1، مكتبة مصر، القاهرة، 1969م: 133.

هذا الوضع؛ فابن منيرة الكفرطابي[1]، يشكو – بمرارة – كساد سوق الأدب، وسوء حال العاملين به بقوله[2]:

يا قَومُ خاب مَطْلبي ... لا آخذَ اللهُ أبي

لأنه درَّسني ... أصنافَ عِلْمِ العَرَبِ

وَعنْدَهُ أنّني بها ... أحْوي جَزيلَ النّسبِ

فما أفادني سِوى ... حِرْفَةِ أهلِ الأدبِ

فليتهُ دَرّسني ... في الطّينِ أو في الحَطَبِ

أو ليته علّمني ... صَنْعَتَهُ وهو صَبي

فإنّ نَسْجَ الكُبَبِ ... نظيرُ نَسْخِ الكُتُبِ[3]

ولعلّ من الأسباب التي أدّت إلى هذه الحال، وجود تلك الهوّة ما بين الحكّام – الذين لم يكن أكثرهم يتذوّق الشّعر ويفهمه بسبب عُجمته، وقصور ذائقته في اللّغة

---

(1) هو محمّد بن يوسف بن عمر، ابن منيرة الكفرطابيّ، أديب وفقيه نزل شيزر وتوفي سنة 553هـ. انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق (صورة عن نسخة المكتبة الظاهريّة في دمشق): 16/ 148.

(2) المصدر نفسه.

(3) الكُبَب: جمع كُبّة وهو ما جمع من الغزل.

العربيّة - والشّعراء الذين لم يجدوا ممدوحاً يقدّر ما يقولون[1]، وقد صوّر السراج الورّاق[2] جانباً من هذا الواقع المحبط في بدايات الفترة المملوكيّة، بقوله[3]:

وكانَ النّاسُ إنْ مُدِحُوا أثابُوا ... وللكُرماءِ في المَدْحِ افْتِخارُ

وكَانَ العُذْرُ في وقتٍ ووَقْتٍ ... فَصُرْنا لاعطاءُ ولا اعتذارُ

ومع هذا فلم تكن المهن الأخرى التي ظنّ الشّعراء أنّهم بمزاولتها سيتحسّن واقعهم أفضل حالاً؛ فابن دانيال – مثلاً – يبدي استياءه من حرفة الكحالة التي لم يكن يحصّل الدّرهم منها إلا مكابدة وعناداً[4]:

يا سائلي عَنْ حِرْفتي في الوَرَى ... وثَرْوتي فيْهم وإفلاسي

ما حالُ مَنْ دِرْهمُ إنفاقِهِ ... يَأخُذُهُ مِنْ أعْيِنِ النّاسِ

والتّورية واضحة في قولة : "من أعين الناس".

أما أبو الحسين الجزّار، فقد اشتهر بكثرة شكواه من حرفة الجزارة، وله في ذلك مقطّعات كثيرة يشكو فيها بؤسه وشقاءه، وما كانت تجلبه له هذه المهنة من متاعب

---

(1) بدأ هذا الواقع بصورة ملحوظة منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجريّ (بداية عصر المماليك)، في حين شهد الفنّ الشعريّ رعاية وتشجيعاً من قبل ملوك بني أيوب الذين كان أغلبهم أهل ثقافة وأدب. انظر: ناظم رشيد، الأدب عند بني أيّوب، مجلة المورد، م5، ع3، وزارة الإعلام العراقية، خريف 1976م: 35-40؛ هنرييت سابا، الشعر في بلاد الشام: 104-112، 120-125.

(2) هو عمر بن محمد بن حسن، سراج الدّين الورّاق، شاعر مصري فكه، توفي سنة 695هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 140؛ الزّركليّ، الأعلام: 5/ 63.

(3) الصّفدي، صلاح الدّين بن أيبك (ت 764هـ)، الغيث المسجم في شرح لاميّة العجم، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1975م: 2/ 351؛ ويلاحظ تنامي هذه النّغمة ووضوحها في شعر هذه الفترة بصورة عامّة. انظر على سبيل المثال: عرقلة الكلبيّ، ديوانه: 94؛ العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): 1/ 6؛ ابن السّاعاتيّ، ديوانه: 2/ 341؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 286.

(4) ابن دانيال الموصليّ، المختار من شعره: 92.

وأحزان. من ذلك قوله شاكياً من سوء أوضاع هذه المهنة، وقلّة أجرها المكتسب، على الرّغم من معاناته وتعبه فيها، مورداً كلّ ذلك بصور من المفارقة صارخة[1]:

حسْبِي حِرافاً بِمِهْنَتِي حَسْبِي … أصْبَحْتُ فِيْهَا مُعَذَّبَ القَلْبِ

موسّخ الثّوبِ والصّحيفةِ مِنْ … طولِ اكتسابي بلا كَسْبِ

أعملُ في اللّحمِ للعشاءِ ولا … أنالُ مِنهُ العَشَا فما ذنبي!

خلّى فؤادي ولي فمٌ وسخٌ … كأنّني في جزارتي كلبي

4. الهجاء المذهبيّ والطائفيّ

عبّر شعر الهجاء عن جوانب من النّزاع المحتدم بين بعض التّيارات المذهبيّة والطّائفيّة التي سادت البلاد في هذه الفترة. ويُمكن أن يُلْمس – من خلال هذا الشّعر – ما كان يسود السّاحة – أحياناً – من توتّر وجدل سببهما تعصُّب كلّ فريق لمذهبه ومعتقده.

1

وقد كان المذهب السُّنيّ هو السّائد في بلاد الشّام بصورة عامّة، في حين كان المذهب الشّيعيّ هو الغالب على مصر حتّى سقوط الدّولة الفاطميّة، حيث تحوّلت بعد ذلك إلى المذهب السّنيّ[2]. غير أنّه لا بد من الإشارة إلى وجود بعض الفرق الشّيعيّة في

---

(1) ابن سعيد الأندلسيّ، علي بن موسى (ت685هـ)، المغرب في حلى المغرب (القسم الخاصّ بمصر)، تحقيق: زكي محمد حسن وآخرين، مطبعة جامعة فؤاد الأوّل، 1953م: 316؛ وللاستزادة انظر المصدر نفسه: 333.

(2) مصطفى زايد، النثر الفني في عهد الدّولتين الزنكيّة والأيوبيّة بمصر والشّام، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأردنية، عمان،1993م: 170.

مصر والشّام التي وجدت إلى جانب المذهب السّنيّ، ومن هذه الفرق: الإماميّة والزّيديّة والإسماعليّة والنّصيريّة وغيرها[1].

ويستبان من الشّعر موضوع الدّراسة أنّ الخلاف كان يحتدم في بعض الفترات بين الشّيعة والسّنة؛ فقد حاول شعراء كلّ طرف الانتصار لأنفسهم من الطّرف الآخر. ومن أبرز الشُّعراء الذين عُرفوا بتشيُّعهم ابن منير الطّرابلسيّ الذي وصف – في موضع سابق من هذه الدّراسة – بمغالاته في تشيّعه. ومن أشهر قصائده التي تعبِّر عن ذلك، قصيدته المعروفة بـ"التّتريّة"[2]، وهي ممّا يدخل في باب الهزل الذي يراد به الجدّ[3]. والقصيدة تشفّ – في بعض أبياتها – عن سخرية غير ظاهرة ببني أميّة، يعقبه تعريض خفيّ ببعض الصّحابة، ومنها قوله[4]:

... وآلَيْتُ آلَ أُمَيَّةَ الطْـ	ـطُهْرِ الميامينَ الغُرَرْ
وجَحَدْتُ بَيْعَةَ حيدرٍ	وَعَدَلْتُ عَنهُ إلى عُمَرْ
وإذا جرى ذِكْرُ الصّحا	بةِ بَيْنَ قومٍ واشْتَهرْ
قُلْتُ: المقدَّمُ شَيْخُ تَيْـ	ـمٍ ثُمَّ صاحبُه عُمَرْ
وَبَكَيْتُ عُثْمانَ الشّهيـ	ـدَ بُكاءَ نِسوانِ الحَضَرْ

---

(1) ابن جبير، رحلة ابن جبير: 227

(2) سمّيت القصيدة بهذا الاسم، نسبة إلى مملوك اسمه تتر كان ابن منير قد عشقه وتعلّق به، وحول مناسبة القصيدة انظر: ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر (ت837هـ)، ثمرات الأوراق، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1971م: 327؛ داود الأنطاكي، تزيين الأسواق في أخبار العشّاق، مكتبة الهلال، بيروت، بلا تاريخ: 2/ 363.

(3) ابن حجّة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، ط2، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1991م: 1/ 324.

(4) ابن منير، ديوانه: 162.

وَرَثيـــتُ طلحَـــةَ والزُّبيـــ ـــرَ بكُـــلِّ شِعْـــرٍ مُبْتَـــكَرْ

وأزورُ قـــبرَهـــما وأزْ جُـــرُ مَـــنْ لحـــاني أو زَجَـــرْ

والأبيات – كما هو واضح – تقصد عكس ما تظهر. وهي تكشف – زيادة على ذلك – عن معرفة الشّاعر ببعض الأحداث والوقائع المرتبطة بالتاريخ الإسلاميّ.

أمّا طلائع بن رُزّيك[1]، فقد تصدّى للدّفاع عن الشّيعة، واصفاً ما حلّ بهم من مصائب عبر الحقب التاريخيّة المنصرمة، وذلك كمثل قوله[2]:

... يـــا فِعـــلةً جـــاءوا بهـــا في الغَـــدْرِ فاضِحَـــةً شَـــنِيْعَهْ

خـــابَ الـــذي أضْـحى الحسيـ ـــنُ لِطُـــولِ شقْـــوتِهِ صَريْعـــهْ

أفـــذَاكَ يَرْجُـــو أنْ يكـــو نَ مُحمّـــدٌ أبـــداً شَفِيْعَـــهْ

وقوله[3]:

... يـــا أمّـةً غَـدَرتْ بـآل نبيِّهـــا ونبيُّهـــا في مَـــوْتِهِ مـــا غمّـضا

فـــأتوا كما يـأتي غـريمٌ خَصْمَهُ حتّـى كـــأنّ لهـــم دُيُونـــاً تُقْتـضى

نكـــروا وَصيّةَ أحْمـدٍ واستبدلُوا ممّـــن أحـــبَّ بِعِلْمِهِـــمْ مَـــنْ أبغـــضا

فالشّاعر يؤكّد – من خلال الأبيات السّابقة – على ما أصاب آل البيت من محن ومآسٍ، تمثّلت – كما يرى – في الغدر بهم، وانتزاع حقّهم في الحكم، ولذلك نجده يشنُّ

---

(1) هو أبو الغارات طلائع بن رزّيك، الملقّب بالملك الصالح، كان متشيّعاً إماميّاً، ولي الوزارة في مصر، وقتل سنة 556هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 2/ 526؛ الزركلي، الأعلام: 3/ 228.

(2) طلائع بن رزّيك(ت556هـ)، ديوانه، تحقيق: محمد هادي الأميني، ط1، المكتبة الأهليّة، النّجف، 1964م: 93.

(3) المصدر السابق: 83؛ وفي المعنى نفسه انظر: ابن فضل العمريّ، مسالك الأبصار (مخطوط): 11/ 160.

حملة شديدة – وإن بدت ذات طابع تعميميّ – على خصومهم. وليس مثل هذا الموقف بمستغرب من طلائع الذي وُصفَ بالمغالاة "وفرط العصبيّة في المذهب"[1]، إلى جانب كونه أشهر رجالات الفاطميين ووزرائهم.

ومن الشُّعراء الذين بدا تشيّعهم – كذلك – واضحاً من خلال شعرهم عرقلة الكلبيّ، وذلك على نحو ما يبدو من قوله معرِّضاً ببعض الخلفاء الأمويّين[2]:

سقّياني كأساً على نهرِ ثُورا ... وَذَراني أبوها في يُزِيدِ[3]

أنا مِنْ شِيْعَةِ الإمامِ حُسينٍ ... لَسْتُ من سُنّةِ الإمام وليدِ

مذهبي مُذْهَبٌ ولكنّني في ... بَلْدَةٍ زُخْرِفتْ لكلِّ بَليدِ

وفي المقابل وقف شعراء السُّنة في وجه غلاة التّشيّع، ودافعوا عن الصّحابة الذين تعرّضوا للطّعن وتشويه الصّورة، فقد ردّ محيي الدّين الشّهرزوريّ[4] على من لامه في حبّ الصّحابة، مبرزاً ما كانوا يتمتّعون به من صفات حميدة، واصفهم "بسادة الورى.. وصفوة البشر"، وذلك إذ يقول[5]:

لائمي في هوى الصّحا ... بةِ ارْجِعْ إلى سَقَرْ

(1) عمارة اليمنيّ، نجم الدّين بن أبي الحسن (ت569هـ)، النّكت العصريّة في أخبار الوزراء المصريّة، اعتنى بتصحيحه هرتويغ درنبرغ، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991م: 48.

(2) عرقلة الكلبيّ، ديوانه: 33؛ وللاستزادة انظر المصدر نفسه: 14، 49.

(3) ثورا ويزيد: فرعان من نهر بردى. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 2/ 86، 5/ 436، والتورية واضحة في يزيد.

(4) هو أبو حامد محمّد بن القاضي كمال الدين بن الشهرزوريّ، ولي قضاء دمشق نيابة عن والده، توفي سنة 584هـ وقيل سنة 586هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): 2/ 329؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان: 4/ 246؛ الصّفديّ، الوافي بالوفيات: 1/ 210.

(5) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): 2/ 334.

لا بَلَغْتَ المُنى ولا نِلْتَ مِنْ رَفْضِكَ الوَطَرْ

كيفَ تَنهى عَنْ حُبِّ قو مٍ هُمُ السَّمْعُ والبَصَرْ

وَهُمُ سَادَةُ الوَرَى وَهُمُ صَفْوَةُ البَشَرْ

وفصّل شهاب الدّين محمود الحلبيّ[1] القول في هذا المعنى في أبيات طويلة، راح يظهر – من خلالها – فضل صحابة رسول الله عليه السّلام، مبيّناً ما قاموا به من أعمال وتضحيات في سبيل الدّين، من مثل نصرة الرّسول ومؤازرته في وجه أعدائه. وهو يريد أن يخلص – من كلّ ذلك – إلى بطلان موقف من يسبّ الصحابة، ويحاول النّيل من أقدارهم. ومما جاء في ذلك قوله[2]:

يا مُظْهِراً حُبَّ الرَّسولِ وجَهْلُهُ يُغْريهِ مِنْ سَفَهٍ بِبُغْضِ صِحابِهِ

رُمْتَ الهُدى فَضَلَلْتَ فيهِ لأنّهُ ما جِئْتَ حُبَّ محمّدٍ مِنْ بابِهِ

أتُحِبُّهُ وتُعيبُ قَوْماً آمنوا بِسَنى هُداه حالَ كَشْفِ حِجابِهِ

...نَصَرُوا النَّبيَّ وَوَازرُوه وقاطعُوا فيهِ العِدا وتمسّكوا بِجِنابِهِ

لَبَّوهُ طوْعاً إذْ دَعاهُمْ للهُدى وَهُمُ لدى ظُفْرِ العَدوِّ ونابِهِ

وقد دعا بعض الشّعراء – نتيجة تطرّف بعض الفئات – إلى انتهاج موقف وسطيّ معتدل، يدعو إلى حبّ الصّحابة جميعاً دونما تمييز لأحدهم على الآخر. وذلك كما يبدو

(1) هو محمود بن سلمان بن فهد الحلبيّ، ولد سنة 644هـ، وتوفي سنة 725هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 4/ 82.

(2) شهاب الدّين الحلبيّ (ت725هـ)، ديوان أهنى المنائح في أسنى المدائح، مطبعة جريدة الشورى، مصر، بلا تاريخ: 101-102.

من قول منتصر بن الحسن الأدفويّ[1] الذي يرى الفوز بمرضاة الله في نهج هذه السبيل[2]:

إنّ النّواصبَ في عليٍّ أفرطُوا ... إذْ أبْغَضُوهُ كما الرّوافضُ فرّطُوا

جَرَحُوا الصّحابةَ عامِدينَ فكلُّهمْ ... أهْلُ الجَهالةِ مُفْرِطٌ وَمُفَرِّطُ

فَالْفَوزُ عِنْدَ اللهِ حُبُّ جَمِيْعِهِمْ ... وَوَلاؤهُمْ هذا الطَّرِيقُ الأَوْسَطُ

2

ومن جانب آخر، كان ثمّة جدل عقائديّ بين أتباع بعض التيارات المذهبيّة. وقد اتّخذ هذا الجدل صوراً من الحاجّة العقليّة التي أثقلت على الشّعر روحه وحيويّته. ومن البيّن أنّ الشّعراء في هذا الاتّجاه، قد عدّوا الشّعر أحد الأسلحة التي استخدموها في الدّفاع عن معتقداتهم التي آمنوا بها. ومن هذا القبيل ما قاله محيي الدّين الشّهرزوريّ الذي دافع عن مذهبه في التّنزيه مقابل من كان يدعو إلى التّعطيل (من خلال التّشبيه والتّمثيل)، حيث يوضّح أصول هذا المعتقد بقوله[3]:

أقسمتُ بالمبعُوثِ من هاشمٍ ... والشّافِعِ المَقبُولِ يَوْمَ الجِدَالْ

ما ربُّنا جِسْمٌ ولا صُورَةٌ ... مَوْصُوفَةٌ بالميلِ والاعتدالْ

وهو على العَرْشِ اسْتوى كما ... تَستَوطِنُ الأَجْسَامُ فَوْقَ الرِّحالْ

نُزُولُهُ حقٌّ ولكنَّهُ ... مُقَدَّسٌ عَنْ رِحْلَةٍ وانْتِقالْ

---

(1) هو منتصر بن الحسن بن منتصر الكنانيّ العسقلانيّ الأصل، فقيه ومتصوّف ولد في أدفو سنة 649هـ وتوفي فيها سنة 734هـ. انظر: الأدفويّ، الطالع السّعيد: 66 .

(2) الأدفويّ، الطالع السّعيد: 661.

(3) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): 2/ 33.

هـذا هُـوَ الحــقُّ ومـا قالَـهُ الـ ـمُـشَبِّهِـيُّ الغِـرُّ المُحَـالْ

.. ومـنْ يقُـلْ: للهِ فـي خَلْقِـهِ مِثْـلُ فَقَـدْ جاوَزَ حَدَّ الضَّلالْ

وقريب من هذا الجدل المستفيض الذي أخذ أبعاداً واضحة من الشّرح والتّوضيح في سبيل إقناع الآخرين، قول البهاء زهير مخاطباً أحد الملحدين، إذ يذهب إلى تسفيه موقفه ودعواه، متّهمه بالجهل وقلّة المعرفة، واصفاً بطلان فكره وعدم جدواه[1]:

وجـاهلٍ يـدّعي في العِلْـمِ فَلْسَفَةً قَـدْ رَاحَ يَكْفُـرُ بـالرَّحمَنِ تَقْـليدا

وقـالَ أَعْـرِفُ مَعْقُـولاً فقُـلتُ لـهُ عَنَيْـتَ نَفْـسَكَ مَعْقُـولاً وَمَعْقُـودا

مِـنْ أيـنَ أنـتَ وهـذا الشّيءُ تَذْكُـرُهُ أَرَاكَ تَقْـرَعُ بابـاً عنـكَ مَسْـدُودا

3

ولم يسلم المتصوِّفة – في هذا الإطار – من النّقد والتّعريض. نلمسُ مثل هذا لدى كُتّاب النّثر؛ فقد سخر الوهرانيّ منهم ومن طريقتهم القائمة على العجز والكسل، وذلك حين يقول في إحدى مناماته: "فلمّا انتهى [الرّسول عليه الصّلاة والسّلام] إلى شاطئ المشرعة، وقف عندها، فتقدّمتْ إليه الصّوفيّة من كلّ مكان وعلى أيديهم الأمشاط وأخلّة الأسنان، وقدّموها بين يديه، فقال صلّى الله عليه: من هؤلاء؟ فقيل له: هؤلاء قوم من أمتك، غلب العجز والكسل على طباعهم، فتركوا المعايش، وانقطعوا إلى المساجد يأكلون وينامون، فقال: فبماذا كانوا ينفعون النّاس، ويعينون بني آدم، فقيل له: والله ولا بشيء البتّة، ولا كانوا إلا كمثل شجر الخروع في البستان، يشرب الماء، ويضيق بالمكان، فساق ولم يلتفت إليهم"[2].

(1) البهاء زهير، ديوانه: 77؛ وانظر أبياتاً مشابهة لهذا المعنى في: ابن دانيال، المختار من شعره: 226-228.

(2) الوهرانيّ، منامات الوهرانيّ ومقاماته ورسائله : 48.

أما الشّعراء فقد ركّزوا في هجاء المتصوّفة على بعض السلوكيّات غير السّويّة التي كانت تصدر من بعضهم ؛ فابن عنين – مثلاً- يكشف عن شيء من ذلك من خلال هجاء الملقّ الصّوفيّ[1] الذي حاد – على حدّ قول ابن عنين – عن أصول التّصوّف الحقّة، واتّبع طريق الإثم والزّلل، وفي ذلك يقول[2]:

أَخْلَقَ الشِّعْرَ مَدْلويهِ وأهْلِيهِ ... وَأَزْرى المُلِقُ بالصّوفيّهْ

حادَ عَنْ مَذهَبِ التَّصوُّفِ إلا ... كَثْرَةَ الأكلِ فيهِ واللُّوطِيّهْ

وعبّر ابن دانيال – على سبيل التظرّف الذي لا يخلو من دلالة – عن استشراء مظاهر من الانحراف الخلقيّ بين صفوف نفر من هؤلاء المتصوّفة بأبيات قالها في هجاء صاحب له كان قد ترك الغناء، وأزمع على التّصوّف. ومما جاء فيها قوله[3]:

..لا تقُلْ قدْ لبسْتُ صُوفاً فإنّ الـ ... ـكَبْشَ جُلبابُهُ مَعَ القَرْنِ صُوفُ

يُطْرِبُ الضّأنَ وهو مِثْلُكَ في الألْـ ... ـحانِ أسْمَاعُ قَوْمِهِ والخروفُ

طارَ مِنْكَ المقصوصُ في حَلْقِكَ الرّأْ ... سَ لِزُهْدٍ وفاتَكَ المنْتوفُ

هَبْكَ بُدِّلْتَ بالمُدامِ حشيشاً ... ثُمَّ آوى إليكَ عِلْقٌ نتيفُ

..الخ

وصوّر جوبان القوّاس[4]- بشيء من التّهكّم والسخرية – ما كان يصدر عن بعض المتصوّفة من شطحات ومواجد مزعومة، فيقول على لسانهم هازئا[5]:

(1) متصوّف، كان من مقرّبي الملك المعظّم عيسى. انظر: أبو شامة، الذّيل على الرّوضتين: 142.

(2) ابن عنين، ديوانه: 186.

(3) ابن دانيال، المختار من شعره: 86.

(4) هو جوبان بن مسعود بن سعد الله، سكن دمشق، وتوفي في حدود سنة 680هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوافيات: 1/ 303.

(5) المصدر السابق: 1/ 305.

مـــتُّ في عِـشْقِي وَمَعْـشُوقِـي أنــا   فَفُـــؤادي مِـــنْ فـــراقِي في عَنـا

غِبْـتُ عَنّـــي فمَتَـــى أجْمعُـــني   أنــــا مِـــنْ وجْـــديَ مـــنّي في فَنـا

أيّها السّـــامعُ تَــدْري مـا الـــذي   قُـــلْتُ: واللهِ ولا أدْري أنــــا

وقــد وُجِــد – مقابل هذا – من دافع عن الصّوفيّة، وحاول أن ينسب لهم كثيراً من المناقب والكرامات، على نحو ما يبدو من قول البهاء زهير الذي يبدي حماسة واضحة في الوقوف بوجه من يتعرّض لهم بالقدح و التّشهير[1]:

أتَقْـدَحُ فِيمَـــنْ شَـرَّفَ اللهُ قَـــدْرَهُ   وَمَا زالَ مَخْـصُوصاً بــهِ طيّبُ الثّنـا

لعَمْـرُكَ مـــا أحـسَنْتَ فـيما فَعَلْتَـهُ   ولَـيْسَ قَبِـيحُ القَـولِ في النّـــاسِ هيّنـا

نَطَقْتَ فَلَـــمْ تُحْسِنْ وَلَمْ تَبْـقَ ساكناً   لَقَـدْ فاتَـكَ الأمـرُ الّـذي كـانَ أحْـسنا

دَعِ القَـوْمَ إنّ القَـوْمَ عَنْـكَ بِمَـــعْـزِلٍ   وإنّـكَ عـنْ هـذا الحـديْثِ لفـي غِـــنى

رِجالٌ لَهُـمْ حـالٌ مَـعَ اللهِ خَـــالِصٌ   ولا أنْـتَ مِـنْ ذاكَ القَـــبيلِ ولا أنـا

ويلحظ النّاظر في هذه الأبيات، ما كان يتمتّع به أهل التصوّف من مكانة في نفوس النّاس، وهذا واضح من قول الشّاعر: "أتقـــدح فيمن شرّف الله قدره"، وقوله: "رجـال لهـم حال مع الله خالص"؛ فقد كان التصوّر يذهب إلى تميّزهم عـن غيرهـم بكرامـات ومعـارف ألقيت إليهم إلقاء[2]. ولذلك نجد البوصيريّ يؤكّد مثل هذا المعنى حين يعـرّض بالفقهـاء،

(1) البهاء زهير، ديوانه: 263.

(2) حول اعتقاد النّاس بالمتصوّفة وتبرّكهم بهم انظر: ابن الأثير، ضياء الـدين الجـزريّ (ت637هـ)، رسائل ابن الأثير، دراسة وتحقيق : نوري القيسيّ وهلال ناجي، دار الكتب للطباعة والنّشر، جامعة الموصل، بلا تاريخ: 147- 148.

واصفهم بأخذ علومهم من الكتب، في حين أنّ المتصوّفة يتلقّونها مباشرة من لدن الله تعالى، فهم – في رأيه– أكثر نقاء وصفاء من أولئك الفقهاء، يقول[1]:

قُلْ للّذينَ تكلّفوا زِيَّ التُّقى ... وتخيَّروا للدَّرْسِ ألْفَ مُجلَّدِ

لا تحْسَبُوا كُحْلَ العُيون بحيلَةٍ ... إنّ المَها لَمْ تَكْتَحِلْ بالإثمِدِ

ما النَّحْلُ ذلّلتِ الهدايةُ سُبْلَها ... مِثْلَ الحَميرِ تَقُودُها للمَوْرِدِ

مَنْ أمْلتِ التّقوى عليهِ وَأنْفَقَتْ ... يدُهُ مِنَ الأكوانِ لا مِنْ مِزْوَدِ

وتقتضي الإشارة إلى أنّ الصورة العامة للمتصوّفة لم تكن – كما يستقرأ من النصوص التاريخيّة– على هذه الشّاكلة من السّلبيّة والتّواكل والانحراف، ولا سيما في القرن السّادس الهجريّ الذي شهد ازدهاراً للتّصوّف السّنّي من خلال حظوة السّلاطين وتشجيعهم[2]. وقد نقل ابن جبير بعضاً من مآثرهم وصفاتهم، بقوله: "وهم على طريقة شريفة، وسُنّة في المعاشرة عجيبة، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة"[3]. وكان لهم – إلى جانب ذلك – دور فاعل في المشاركة في الأحداث الدّائرة في عصرهم؛ فحين حثّ نور الدّين – مثلاً– الناس في سنة 552هـ على الجهاد، "تبعه من الأحداث والمتطوّعة والفقهاء والصّوفيّة والمتديّنين العدد الكثير"[4]، وحين تمّ فتح بيت المقدس سنة 583هـ كانت جماعات من المتصوّفة من جملة من شهده[5].

(1) البوصيريّ، ديوانه: 124.

(2) ابن جبير، رحلة ابن جبير: 231.

(3) المصدر نفسه.

(4) ابن القلانسيّ، تاريخ دمشق: 521.

(5) ابن شدّاد، النوادر السلطانية: 84.

4

أمّا في مجال النّزعات الطّائفيّة، فقد أبرز الشّعر ما كان يطرأ- في بعض الأحيان- على العلاقة السّائدة بين بعض العناصر السّكانيّة من نزاع وخلاف، وبخاصّة بين المسلمين من جهة وأهل الذمة من يهود ونصارى من جهة أخرى. ويبدو أن نفوذ هؤلاء في الدّولة كان يتنامى في بعض الفترات؛ مما دعا شاعراً مثل فتيان الشّاغوريّ إلى الشّكوى والاستياء من قوّة سطوة اليهود في دولة الملك الأمجد بهرام شاه[1]، وذلك إذ يقول[2]:

المَلِكُ الأمجَدُ الّذي شَهِدَتْ ... لَهُ مُلُوكُ الزّمانِ بالفَضْلِ

أصْبَحَ في السَّامريِّ مُعْتَقِدًا ... ما اعْتَقَدَ السَّامِرِيُّ في العِجْلِ

والسّامريّون كالبرامِكِ مِنْ ... قَبْلُ فأينَ الرَّشيدُ للقَتْلِ

ومثل هذا ما قاله البهاء زهير في الأسعد بن صاعد الفائزيّ[3] الذي كان من المسالمة، ووصف بكثرة مظالمه، وإثقاله كاهل النّاس بما كان يَفرض من ضرائب[4]:

لَعَنَ اللهُ صاعِدًا ... وأباهُ فَصاعِدا

وبنيهِ فَنَازِلاً ... واحِداً ثُمّ واحِدا

(1) هو مجد الدين أبو المظفر، بهرام شاه بن فرّوخ شاه بن أيوب، صاحب بعلبك، كان شاعراً مجيداً، قتل على يد مملوك له سنة 628 هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 1/ 226؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب: 5/ 126.

(2) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: 359.

(3) هو الصّاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزيّ، ولي الوزارة، وكان صاحب حظوة عند الملوك، توفي سنة 655هـ. انظر: ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة: 7/ 58.

(4) البهاء زهير، ديوانه: 89؛ وتنسب الأبيات لابن مطروح كذلك. انظر: ابن تغري بردي، النّجوم الزاهرة: 7/ 58.

وقول البهاء – كما هو واضح – لا يتضمّن نقداً، ولولا الاعتماد على المصادر التاريخيّة في ذلك، لما استبان الدّارس منه شيئاً[1]. غير أنه - وهذا المهمّ- يعبّر عن شعور طافح بالمرارة – وإن تبدّى في صورة من الطّرافة- تمثل في لعنة الشاعر التي لم تقتصر على ذلك المستخدم، وإنما تجاوزته إلى تتبّع آبائه وأبنائه معاً، ومثل هذا الشعور هو استجابة لمسبّبات دفعت أصلا إليه.

وأكثر البوصيريّ من التّنديد بالنّصارى، فصوّر تعصّبهم لبعضهم بعضًا، وسوء معاملتهم المسلمين، مظهراً ما كان يصدر عنهم من تخريب وزعزعة للأمن، ولذلك نجده يحرِّض أولي الأمر على معاقبتهم، ووضع حدٍّ لخطرهم المتفاقم[2]. ويكشف في قصائد أخرى عن تحكّمهم في أموال الدّولة، والطّرق غير المشروعة التي ينفقون فيها هذه الأموال[3]. غير أنّ للبوصيريّ تجربة شخصيّة، واتّصالاً مباشراً مع كتّاب النّصارى في المحلّة، نشأ عنهما خصومة محتدمة بينه وبينهم، فقد ورد في بعض المصادر أنّ البوصيريّ كان قليل المعرفة بصناعة الكتابة، يباشرها ويبغض طائفة الكُتاب[4] ؛ فربما كان دافع هذا الهجاء أو بعضه بسبب من ذلك.

وقد أكثر الشّعراء من السّخرية بأهل الذّمة، وشكّكوا في صدق سرائر بعضهم وصحّة إسلامه. وهو أمر يعكس حالة من التوجُّس وسوء النّوايا بين الجانبين. فمن ذلك ما قاله ابن الذرويّ في أسعد بن المهذّب[5] الذي كان يتولّى ديوان الإقطاعات، فلمّا علم

---

(1) السيوطي، جلال الدين (ت911هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1968م: 2/ 216- 217.

(2) البوصيريّ، ديوانه: 163- 164.

(3) المصدر السّابق: 262- 265.

(4) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي(ت845هـ)، كتاب المُقفّى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1991م: 5/ 669.

(5) هو أسعد بن المهذّب مماتي، أصله من نصارى أسيوط، تولّى رئاسة الدّيوان في الدّيار المصريّة، توفي في حلب سنة 606هـ. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء: 6/ 100 .

علم أسد الدّين شيركوه بنصرانيّته عزله عن هذا العمل، فبادر (المهذّب) إلى اعتناق الإسلام، ممّا دفع شيركوه إلى إقراره – ثانية – على الدّيوان، ثمّ ما لبث أن عزله، وفي ذلك يقول ابن الدّروي ساخرًا[1]:

لم يُسلمِ الشّيخُ الخَطيـرُ لِرَغْبَةٍ في دينِ أحمَدْ

بَلْ ظَنَّ أنّ مِحالَهُ[2] يُبْقي لَهُ الدِّيوانَ سَرْمَدْ[3]

والآنَ قَدْ صَرَفُوهُ عَنْـهُ فَدِينُهُ فالعَوْدُ أحْمَدْ

وكان لهذا النّزاع الطائفيّ جانب آخر، تمثّل في جدل عقائديّ قام على الحجاج والنّقاش والتّعليل؛ إذ حاول كلّ طرف أن يدافع عن دينه وعقيدته مقابل خصمه الآخر. ويُعدُّ البوصيريّ أشهر من قام بهذا الدّور من الجانب الإسلاميّ؛ فقد وقف في وجه اليهود والنّصارى، مدافعاً عن عقيدته الإسلاميّة، طاعناً في كثير من معتقداتهم ومبادئهم، وقد أهّلته ثقافته الدّينيّة الواسعة التي تمثّلت في "دراسة الإنجيل والتّوراة دراسة دقيقة"[4] القيام بهذا الدّور خير قيام.

ومن أبرز قصائده في هذا المجال، قصيدة أسماها "المخرج والمردود على النّصارى واليهود"[5]، تجاوز عدد أبياتها مئتين وثمانين بيتاً، تناول فيها – بأسلوب مسهب – كثيراً من المعتقدات التي جاءت بها كتب اليهود والنّصارى. وهو لا يكتفي بذلك بل يتعدّاه إلى التّعليق على مقاطع هذه القصيدة نثراً، ليزيد الأمر توضيحاً وجلاءً.

---

(1) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: 6/ 109؛ وانظر مثل هذا المعنى في: ابن عنين، ديوانه: 194؛ ابن سعيد الأندلسيّ، المغرب في حلى المغرب (القسم الخاص بمصر): 318؛ ابن دانيال، المختار من شعره: 93.

(2) المحال: المكر والكيد والخديعة.

(3) سَرْمَد: دائم.

(4) البوصيريّ، ديوانه: 7 (مقدّمة المحقق).

(5) المصدر السابق: 175-219.

وقد حاول البوصيري تفنيد بعض معتقدات النصارى عن عيسى عليه السلام، والطعن في صحتها لاجئاً إلى أسلوب المحاجّة والجدل العقليّ. فبيّن – أولاً – حقيقة موقفه من السيّد المسيح، ثمّ يبرز موقف قومه منه، الذين حاولوا نصرته، ولكنّهم أساءوا له من حيث لا يدرون، وفي ذلك يقول[1]:

... جاءَ المسيحُ من الإلهِ رَسُوْلا ... فأبى أقلّ العالمين عُقُولا

قَوْمٌ رأوا بَشراً كَرِيْماً فادّعوا ... مِنْ جَهْلِهِمْ لله فيْهِ حُلُولا

فاعْجَبْ لأمّتِهِ الّتي قدْ صيّرتْ ... تَنْزِيْهَها لإلهِا التّنكيلا

هُمْ بجّلوهُ بباطلٍ فابتزّهُ ... أعداؤه بالباطلِ التّبجيلا

ومن معتقدات النّصارى التي سخر منها البوصيريّ، معتقد (التّثليث) الذي يرى أنه لا يستند في جوهره إلى أدنى قدر من المنطق والعقل، فيقول من همزيّته المشهورة التي مدح بها الرّسول عليه الصّلاة والسّلام[2]:

... إلهٌ مُركّبٌ ما سَمِعْنا ... بإلهٍ لِذاتِهِ أجْزَاءُ

الكلُّ مِنْهُمْ نصيْبٌ من المُلْـ ... ـكِ فهلّا تميّزَ الأنْصِباءُ

أمْ هُمُ حلّلوا بها شِرْكَةَ الأبـ ... ـدانِ أمْ هُمْ لِبَعضِهِم كُفَلاءُ

وعلى هذا النحو تتوالى الأبيات في التّهكّم من هذه الأفكار ونقضها. وكان لأسلوب الاستفهام الذي خرج به الشّاعر عن حقيقته، أثر في تأكيد سخريته واستنكاره لهذا المعتقد.

(1) المصدر السابق: 127-128.

(2) البوصيريّ، ديوانه: 63.

وبمثل هذه الطّريقة نجده يجادل اليهود في بعض معتقداتهم، وذلك كمثل تعريضه بعبادتهم العجل[1]، وذهابهم إلى تجسيم الله جلّ وعلا حين جعلوه يتصارع مع إسرائيل[2]. ثمّ ما كان يصدر منهم في حقّ أنبياء الله من قدح وتشهير[3].

والملاحظ على هذا الهجاء المذهبيّ والطائفيّ عامّة، غلبة النزعة العقليّة، وخفوت العاطفة فيه، مما قرّبه من الأسلوب التقريريّ المباشر، وهو أمر كان بتأثير من مضامين هذا الشّعر الذي لم ير فيه قائلوه إلا وسيلة لنشر مبدأ، أو لتشويه آخر.

5. هجاء المدن وبعض المرافق

1

لم يكن هجاء المدن ظاهرة جديدة على شعر هذه الفترة، إذ عرف واشتهر في عصور سابقة[4]، وقد استمرّ الشّعراء في هذه العصور على نهج سابقيهم، بل لقد أكثروا من القول فيه بصورة واضحة.

وعلى الرغم من أنّ هذا الهجاء قد عبّر – في بعض الحالات – عن موقف شخصيّ، ونزوع ذاتيّ، إلا أنّ نشأته كانت بفعل عوامل اجتماعيّة، نتجت عن علاقة الشّاعر بالمدينة وسكّانها، وما انبثق عن هذه العلاقة – أحياناً – من موقف عدائيّ، تمثّل في انتقاد الشّاعر لبعض قيم سكّان المدينة وسلوكيّاتهم؛ فتطوُّر المدينة وتعدّد مناحي

---

(1) المصدر نفسه: 93.

(2) المصدر نفسه: 182.

(3) المصدر نفسه والصّفحة نفسها؛ وانظر تفصيلاً وافياً لهذا الموضوع في: فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكيّ الأول: 223–237.

(4) انظر: محمد محمد حسين، الهجاء والهجّاؤون في صدر الإسلام، ط2، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1969م: 34–40؛ محمد مصطفى هدارة، اتّجاهات الشّعر العربي في القرن الثاني الهجريّ، دار المعارف، مصر، 1981م: 458؛ التّميميّ، اتّجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجريّ: 85–91.

نشاطها، "جعلها تتضمّن في وقت واحد عوامل جذب وعوامل تنفير. وهذه في الحقيقة صفة لكلّ مدينة كبيرة تستوعب قطاعات وشرائح مختلفة ومتفاوتة من المجتمع، كما تستوعب كلّ وسائل الثّقافة وألونها، وكلّ أسباب الحضارة والتمدّن"[1].

وكانت دمشق من أكثر المدن تعرّضاً للهجاء؛ فقد أمعن ابن عُنين – مثلاً – في الانتقاص من قدر أهلها بقصيدة طويلة سمّاها "مقراض الأعراض"، تناول فيها شخصيات اجتماعيّة متعدّدة من فقهاء وخطباء وقضاة وغيرهم. وقد أفحش الشّاعر في بعض أبيات القصيدة متجاوزاً حدود العرف والذّوق[2].

أمّا فتيان الشّاغوريّ، فقد تمحور هجاؤه لدمشق حول وصم أهلها بالبخل وقلّة الإحسان. ومما قاله فيهم، مشهّراً ببخلهم الذي قصّر – على حدّ قوله – عن بيوت الله[3]:

أهلُ دمشقٍ لهمُ جامعٌ لَيْسَ على ما فَيْهِ تَعْويْلُ

بالجامعِ الصَّحْنُ ولكنّهُ مِنْ كُلِّ ما يُؤْكَلُ مَغسُولُ

وَفِيْهِ أشجارٌ ولكنّها لم يُجْنَ مِنْها الدَّهرَ مأكولُ

ومن الملاحظ أنّ هجاء فتيان هذا ناتج عن موقف شخصيّ، يبدو أنه لم يَلْقَ على إثره ما كان يرجو من حفاوة وإكرام، وذلك لأنّه يصرّح في موضع آخر من ديوانه عن تجاهل أهل دمشق له، وإغضائهم عن محاسنه بقوله[4]:

أراني غَرِيبًا عَنْ دِمَشْقَ، وأهلُها بصيرونَ بيْ لكنْ عَمُوا عَنْ محاسني

(1) عزالدين إسماعيل، في الشعر العباسيّ (الرؤية والفنّ)، ط1، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1994م: 344.

(2) ابن عُنين، ديوانه: 179-184.

(3) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: 362؛ وللاستزادة انظر: 464.

(4) المصدر السابق: 518.

فيا ضَيْعَتي فيهمْ وَفَضْليَ ظاهرٌ كأنّيْ لديهمْ مُصْحَفٌ عِنْدَ باطني

وتتعرّض دمشق لمثل هذا الهجاء من ملك النّحاة الذي يذمّ – إضافة إلى أهلها – مناخها وطبيعتها، مصوّراً فساد مائها وهوائها، وذلك إذ يقول[1]:

لَأَرْحَلَنَّ مَطِيّتي عَنْ بَلْدَةٍ شَعْثاءَ يُكْرَهُ ماؤها وهواؤها

وَلَأَرْمِيَنّ دِمَشْقَ غَيْرَ مُجحّفٍ بفواقرَ التبستْ لها أنباؤها[2]

وَلَأَزْجُرَنّ العِيْسَ عَنْها مُعْرِضاً إنْ أَقْدَرَتْني دَوْلَةٌ ولِواؤها

وكان لحلب – كذلك – حصّة من هذا الهجاء، وذلك كما يبدو من قول ابن عنين الذي يعبّر عن إحساس فاتر تجاهها، مبرزاً – إلى جانب ذلك – ما كان يصطرع في المدينة من نزعات مذهبيّة متضاربة. وقد تجاوز الشّاعر هذا إلى الفحش في القول، والطّعن في أعراض أهل المدينة في أواخر الأبيات. ومما ورد فيها قوله[3]:

لا عادَ في حَلَبٍ زَمانٌ مرَّ لي ما الصُّبْحُ فِيْهِ من المساء بأمْثَلِ

سيّانَ في عَرَصاتِها رأدُ الضُّحى عِنْدي وديجورُ الظّلامِ المُسْبَلِ

في مَعْشَرٍ لَعَنُوا عَتِيْقاً، لا سُقُوا صَوْبَ الغَمَامِ، ومَعْشَرٍ لَعَنُوا عَلي

---

(1) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم العراق): 3/ 1/ 124؛ وفي هجاء دمشق انظر أيضاً: ابن منير، ديوانه: 167، ابن دنينير، ديوانه: 199، 592، 606، ؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: 1/ 136.

(2) مُجَحّف(بالتضعيف): مضرّ. الفواقر: الدواهي.

(3) ابن عُنين، ديوانه: 230.

ومن البلدان الشّاميّة الأخرى التي تعرّضت للقدح والهجاء: يافا[1]، والزّبداني[2]، وحماة[3]، وبعلبك[4]، والشّاغور التي هجاها فتيان ورمى أهلها باللصوصيّة، على الرّغم من انتسابه إليها، وذلك إذ يقول[5]:

وبَيْنَ نُهَيْرَي الشّاغورِ قومٌ ... يَرَوْنَ الفَخْرَ كونهُمُ لُصُوصا

وما طَبَخَتْ قُدُورُهُمُ حَلالاً ... فَلَيْتَهُمُ بِهَا طَبَخوا مَصُوصا[6]

ولو أنّا نُصافحُ خَيِّريهمْ ... لسلُّوا مِنْ خَوَاتِمنا الفُصُوصا

وفي البيت الأخير براعة واضحة؛ فإذا كان هذا حال "خَيِّريهم"، فكيف يكون حال الآخرين منهم ؟!.

أمّا مصر ومدنها، فقد كانت - أيضاً - عرضة لهجاء غير ما شاعر. ومن هؤلاء التّلعفريّ الذي يهجو القاهرة، مصوّراً ما لاقاه فيها من ذُلّ وخمول قدر[7]. وظافر الحدّاد الذي يذمُّ أهل الإسكندريّة - مع تغنّيه بها وبطبيعتها في غير ما

---

(1) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم مصر): 2/ 118 (أبيات لخالد بن سنان الإسكندريّ).

(2) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: 203، 464؛ والزّبداني: كورة مشهورة بين دمشق وبعلبك. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 3/ 130.

(3) ابن سناء الملك، ديوانه، تحقيق: محمد جاد الحق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، 1975م: 307؛ الصفديّ، الغيث المسجم: 2/ 405 (أبيات لمحاسن الشّواء).

(4) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: 361.

(5) المصدر السابق: 253؛ والشّاغور: محلّة بالباب الصّغير من دمشق. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 3/ 310.

(6) المصوص: طعام من لحم يطبخ وينقع في الخلّ.

(7) التّلعفريّ، ديوانه: 258.

موضع من ديوانه-[1] مبرزاً سوء خلقهم، وشدّة بخلهم من خلال إيراد صور من المقابلات اللفظيّة التي طغت عليها النّزعة المنطقيّة[2]:

لَهْفي على الإسكندريـ ... ـيَةِ كَيفَ يَسكنُها اللّئامُ

بلدٌ عَدِمْتُ بها السّرو ... رَ كما بها عُدِمَ الكِرَامُ

حَسُنتْ وقُبِّح أهْلُها ... فَضياؤها بِهِمُ ظَلامُ

قَومٌ إذا استيقَظْتَهمْ ... لمكارِمِ الأخلاقِ نامُوا

قَومٌ إذا قَعَدَ الكِرا ... مُ عَلى بِساطِ العِزِّ قاموا

فَحَلالُهمْ مِنْ شُحّهمْ ... في كلِّ مَسْألةٍ حَرَامُ

قومٌ إذا استَطْعَمتَهمْ ... في يَومِ عيْدِ الفِطْرِ صَامُوا

وواضح ما في البيت الأخير من تمحُّل تبدّى في تطلُّب الشّاعر لهذا المعنى المتكلّف.

غير أنّ هجاء الشّعراء – في هذا الجانب – كان – في أغلبه – منصبّاً على مصر، ومما جاء في ذلك قول العبدوسيّ[3] الذي يعبّر عن شحّ أهلها ونفاقهم بهذه الأبيات[4]:

يا أهْلَ مِصْرَ مَدَحْتُمْ ... مِصْراً بِلا بُرْهانِ

وقُلْتُمُ هي عَينٌ ... نَعَمْ بلا إنْسانِ

أرْضٌ عَدِمْنا لَدَيْها ... عَوَارفَ الإحسانِ

---

(1) ظافر الحدّاد، ديوانه: 18، 22، 26، 31، 97، ومواضع أخرى.

(2) المصدرالسابق: 293.

(3) هو محمد بن عبدوس الواسطيّ، ولد في واسط بالعراق، وتوفي في مصر سنة 601هـ. انظر: ابن سعيد الأندلسيّ، الغصون اليانعة: 12.

(4) ابن سعيد الأندلسيّ، الغصون اليانعة: 14؛ وفي المعنى نفسه انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 441.

وكــــــلُّ بـــرٌ تــــــراهُ ‏ فــــإنــــهُ في اللِّــــســـانِ

يــــومَ ارتحـــاليَ عَنْهـــا ‏ جَعَـــلتُـــهُ مِـــهْـرَجـــانِ

وقد تحوّل هذا الهجاء لدى شعراء آخرين إلى شعور مليء بالغيظ والكره تجاه مصر وأهلها. وذلك على نحو ما يبدو من قول التّلعفريّ الذي يدفعه مثل هذا الشّعور إلى الدّعوى لها بعدم السُّقيا والغيث[1]:

مـــالي ولمصـــرَ لا سَقاها رَبّـي ‏ غيْثاً غدقاً مِنْ ساريات السُّحُبِ

بالــــرُّوحِ دَخلْتُها وبالقلبِ فلا ‏ بالرُّوحِ خَرَجْتُ لا ولا بالقَلْبِ

وامتدّ هذا الهجاء ليشمل مدناً أخرى، خارج حدود مصر والشّام؛ فقد هجا الحافظ ابن عساكر[2] مدينة نيسابور، وشكا شدّة بردها، وقلّة الأصدقاء فيها[3]. وهجا ابن عُنين مدينة بخارى بقوله[4]:

آليْـــتُ لا آتـي بُخَـــارى بَعْـدَها ‏ ولـــو انّهـا في الأَرْضِ دَارُ خُلُـــودِ

فَلَقَـدْ حَلَلْـتُ بِهـا حَنِيْفـاً مُسْلِـماً ‏ وَرَحَلْـتُ عَنهـا باعْتِقـادِ يَهـودي

ولعلّ هجاء ابن عُنين لهذه المدينة، كان بتأثير من غربته وأزمته النّفسيّة التي ولّدها نفيه من دولة صلاح الدّين الأيوبيّ بسبب كثرة هجائه لأرباب السّلطة فيها، حتّى لم يسلم من هذا الهجاء صلاح الدّين نفسه[5].

---

(1) الكتبيّ، فوات الوفيات: 4/ 71؛ وانظر مثل هذا في: ابن الساعاتيّ، ديوانه: 2/ 70.

(2) هو علي بن الحافظ بن الحسن بن عساكر الحافظ الدمشقيّ، أحد أئمة الحديث المشهورين. من مصنفاته: تاريخ مدينة دمشق، توفي سنة 571هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام): 1/ 274؛ ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء:13/ 73.

(3) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: 13/ 87.

(4) ابن عُنين، ديوانه: 21؛ وللاستزادة انظر: 144.

(5) المصدر نفسه: 210-211.

والمتأمّل لهذه المقطوعات الهجائيّة، يلاحظ أنّ أغلبها قد تناول فكرة واحدة هي رمي هذه المدن وسكّانها بصفة البخل. وفي هذا ما يؤكّد أنّ دوافع هذا الهجاء كانت – في بعض الأحيان – ذاتيّة، حرّكتها أطماع الشّعراء ورغبتهم في العطاء، وإن لم يخل بعضه من مواقف ناقدة.

2

وتعرّض الشّعراء – إلى جانب ذمّ المدن – لبعض المرافق العامّة؛ وبخاصّة الحمّامات التي انتشرت في هذه الفترة انتشاراً واسعاً[1]، وباتت – كما يقول أحد الدّارسين – من أبرز ما تميّزت به الحضارة الإسلاميّة[2]. وقد تناول قسم من هذا الهجاء مجموعة من مساوئ هذه الحمّامات وافتقارها للنّظافة. وذلك على نحو ما يلمس من قول أميّة بن أبي الصّلت الذي انتقد – بأسلوب ساخر – أحد هذه الحمّامات، فبدل أن يخرج منه نظيفاً معافى كما هو مفترض، إذ به يغيّر سحنته، ويقلب لونه، حتّى غدا كأنّه من جنس آخر[3]:

حمّامُنا هَذا أشَدُّ ضَرُورةً ... ممّنْ يَحلُّ بهِ إلى حَمّامِ

تَبْيَضُّ ألوانُ الوَرَى في غَيْرِهِ ... ويُعِيرُها هذا ثِيابَ سُخامِ

قَدْ كُنْتُ مِنْ (سامٍ) فَحينَ دَخَلْتُهُ ... لِشَقاءِ جَدّي ردَّني مِنْ (حامِ)

---

(1) ابن جبير، رحلة ابن جبير: 202.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع الإسلاميّ في بلاد الشّام في عصر الحروب الصليبيّة: 221.

(3) أميّة بن أبي الصّلت، ديوانه: 144؛ وتنسب الأبيات – كذلك – للنّاجي المصريّ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم مصر): 2/ 103.

وفي هذا الاتّجاه ذاته، يورد ظافر الحدّاد ما حدث معه حين أراد الذّهاب إلى الحمّام؛ طلباً للرّاحة بعدما أحسّ من تعب وكلال. ولكنّه ما أن يدخل فيه حتّى يفاجأ بغير ما ظنّ، فإذا بداخله ما يسوء النّفس من حرّ وروائح نتنة كريهة، يقول[1]:

دَخَلْتُ حَمّاماً عَلى غِرّةٍ ... لَمّا دَعاني سُوءُ حظٍّ وحَيْن

تَوفُّراً منّي على راحَةٍ ... أحْظى بها إثْرَ كَلالٍ وأيْن

فَنِلْتُ مِنْها كلَّ ما ساءَني ... مِنْ هَمِّ نَفْسٍ ثمَّ إسْخانِ عَيْن

حَرٌّ أذابَ القَلْبَ غمًّا كَما ... يَفْعَلُ بالعُشّاقِ هَجْرٌ وَبَيْن

... وفَرطُ نَتْنٍ كامِنٍ خِلْتُهُ ... يُطالِبُ الأَنْفَ بثأرٍ وَدَيْن

وواضح من هذا الوصف المسهب الذي أورده الشّاعر بهذه الطّريقة الهازئة، سوء حال بعض هذه الحمّامات التي كانت تفتقد إلى أدنى شروط الصّحة العامّة.

أمّا القسم الآخر من هذا الهجاء، فقد تناول بالنّقد والسّخرية القائمين على هذه الحمّامات، أو ما كان يطلق على واحدهم اسم 'الحمّامي'، وهي مهنة عرفت وشاعت في ذلك الزّمن. ومن الأمثلة الطّريفة في هذا المجال، ما قاله زكي الدّين بن أبي الإصبع[2] في أحد هؤلاء، حين يصوّر المعاناة التي لاقاها من ذلك القيِّم الذي افتقر عمله لكلّ لطف ولين[3]:

وَقَيِّمٍ كَلّمَتْ جِسْمي أنامِلُهُ ... بِغَيْرِ ألسِنَةٍ تَكْلِيمَ خُرصانِ[4]

---

(1) ظافر الحدّاد، ديوانه: 301؛ وفي المعنى نفسه انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 1/ 307، 3/ 91.

(2) هو عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المصريّ، شاعر ومصنّف، توفي في مصر سنة 654هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 363.

(3) الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 365.

(4) الخرصان: الرّمح.

إنْ أمسَكَ اليدَ منّي كادَ يَخلَعُها — أوْ سَرَّحَ الشَّعْرَ بَعْدَ الغَسْلِ أبْكاني

فَلَيْسَ يُمْسِكُ بالمعْرُوفِ مِنْهُ يَداً — وَلا يُسرِّحُ تَسْرِيْحاً بإحْسانِ

3

ونستطيع أن ندخل في هذا الإطار، ذمّ الشّعراء لمنازلهم وأماكن سكناهم. ولهذا الشِّعر أهميّة خاصة؛ إذ يمكن – من خلاله – أن يتعرّف الدّارس أحوال بعض الشّعراء، وما كانوا يعانون من فقر وبؤس حال. وهو أمر سيكون له – بالتّالي – انعكاسه على هذا الشّعر الذي ينتجون، ولذلك فليس غريباً أن تكثر نغمة الشّكوى والحزن – كما سيتّضح بعد – لدى عدد من الشّعراء الذين كانوا ضحيّة لمثل هذه الأوضاع الاجتماعيّة القاسية. ولا بدّ أن يدرك أنّ هذا الوضع ليس مقتصراً على الشّعراء وحدهم، وإنّما هو يشمل – دون ريب – قطاعات اجتماعيّة أخرى، ممّن كانت ظروفهم معدمة كظروف هؤلاء الشّعراء.

وقد اقترن هذا الهجاء – في الغالب – بالسّخرية والتّهكّم، فصوّر الشّعراء منازلهم تصويراً ساخراً بيّن سوء أوضاعها الصّحيّة، وخلوّها من أبسط مستلزمات الحياة الكريمة، وقرنوا كلّ هذا بما كانوا يكابدون من تعاسة وشظف عيش. ومن الصّور المؤثرة في هذا المجال ما قاله ابن مكنسة في وصف قُبح منزله، وما كان يعانيه فيه من قسوة وسوء إقامة[1]:

لِيَ بَيْتٌ كأنّهُ بَيْتُ شِعْرٍ — لابنِ حجّاج مِنْ قَصيدٍ سَخِيْفِ

ضَايَقَتْني بناتُ وردان حتّى — أنا فيهِ كَفارَةٍ في كَنِيْفِ

أيْنَ للعَنْكَبُوتِ بَيْتٌ ضَعِيْفٌ — مِثْلُهُ وهو مِثْلُ عَقْلِ الضّعيفِ

---

(1) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم مصر): 2/ 211.

بُقْعَةٌ صَدَّ مَطْلَعُ الشَّمْسِ عَنْها ... فأنا مُذْ سَكَنْتُها في الكُسُوفِ

والأبيات تشفّ عن إحساس مؤثر، تبدّت – من خلاله – شدّة وطأة هذا الواقع البائس الذي كان يعيشه ابن مكنسة. وقد كان لاعتمادها على روح الدّعابة والنّكتة أثر في تقريبها من نفس القارئ، إضافة إلى ما تتسم به من بساطة وعفويّة ظاهرتين.

أما ابن دانيال الموصليّ، فيفصّل القول في هجاء منزله تفصيلاً، ويقلّبه على غير ما وجه في قصيدة طويلة، تناول فيها تفاهة مقتنيات هذا المنزل التي تنبي عن شدّة فقر صاحبه، حيث لم يبق منها إلا رسوم حصيرة ومخدّة باليتين، ذاكراً ما كان يعجّ في أرض هذا المنزل من حشرات وحيوانات متعدّدة، بدت أشبه ما يكون بجيوش متطاحنة لا يهدأ لها بال، ناقلاً ذلك بصور فكهة، ولكنّها واقعيّة انتقى أغلبها من محيطه والقريب، ومنها قوله[1]

..وتَرى بَراغِيْثًا بِجسمي عُلِّقتْ ... مِثْلَ المَحاجمِ في المساءِ وفي الغدِ

وَكذا البَعوضُ يَطيْرُ وهو بريشِهِ ... فمتى تمكّنَ فَوْقَ عِرْقٍ يَفْصُدِ

وَتَرى الخنافسَ كالزّنوجِ تَصَفّفَتْ ... مِنْ كلِّ سوداءِ الأديمِ وأسْودِ

ولربّما قُرِنَتْ بِجَمْعِ عَقارِبٍ ... قتّالةٍ قَدْرَ الحمام الرُّكّدِ

وليس غريباً – إن كان حال منزله على ما وصف – أن نجده متبرّماً منزعجاً من هذا المسكن الذي يشبّهه بالقبر، بل لقد بدا القبر لديه أهنأ مسكناً منه؛ ذلك لأنه يرى في القبر خلاصاً له من هذا الواقع القاسي[2]:

في مَنْزلٍ كالقَبرِ كَمْ قَدْ شاهَدتْ ... فِيْهِ نكيْرًا مُقْلتاي ومُنكَرا

---

(1) ابن دانيال، المختار من شعره: 155؛ وانظر في المعنى نفسه: ظافر الحدّاد، ديوانه: 224، 242؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 89-91.

(2) ابن دانيال، المختار من شعره: 152.

لو لَمْ يَكُنْ قَبْرًا لما أمْسيْتُ نسياً فِيْهِ حتّى أنّني لم أذكَرا

والقَبْرُ أهنأ مَسكِناً إذْ لم أكُنْ مع ضيقِ سُكْناهُ أطالبُ بالكرَى

6. مظاهر أخرى

1

شكوى ومعاناة: والشّكوى نتيجة حتميّة لسوء الأوضاع التي عاينها الشّعراء في مجتمعهم، وقد تمثّلت هذه الشّكوى في غير ما صورة؛ فهناك من بلغ به التشاؤم مداه، فهجا الزّمان كلّه، وكأنّ بوادر الأمل قد توارت، حتّى لم يَرَ في هذا الوجود ما يبهج النّفس. ولا شكّ أنّ مثل هذا الشّعور متأثر – إلى حدّ ما – بعاطفة الشّاعر المتأجّجة التي غلبت على نظرته الموضوعيّة، ولكنّه – مع كلّ هذا – يكشف عن شيءٍ من تعاسة الواقع وسوداويّته التي دفعت – أصلاً – إلى مثل هذا الموقف المتطرّف منه. ومن الأمثلة على هذا قول أسامة بن منقذ الذي يرى أنّ الضّرّ في زمنه قد انتشر وعمّ النّاس جميعاً، فبدا كاللّيل الذي يغشى البريّة كلّها[1]:

الضّرُّ في أيّامِنا هذه كاللّيلِ يَغْشى سائِرَ النّاسِ

وَكُلُّهُمْ راضٍ وَفَوْقَ الرِّضا ببُلْغَةِ الطّاعِمِ والكاسي

ودونَ ما يَرجُوْنَهُ مانِعٌ يَلْقَى وجُوْهَ النّاسِ باليَاسِ

فالشّاعر – كما يبدو من أبياته السّابقة – يجسّد حالة من اليأس واللامبالاة يعيشها النّاس في أيّامهم تلك؛ فهم راضون بواقعهم رضا المضطر المكره، فبين "ما يرجونه" و "ما

(1) أسامة بن منقذ، ديوانه: 302.

يتمنونه" موانع ومثبّطات. ولعل لموقف أسامة هذا ما يسوّغه، وبخاصّة إذا استذكرنا الجانب الشّخصي من حياته، وما تخلّله من آلام وأحزان[1].

ومن صور الشّكوى في هذا الشّعر الشّكوى من النّاس، ومن سوء أفعالهم وصفاتهم. وهي حالة ليست مقتصرة على عصر دون آخر، إذ إنّها تكاد تتكرّر في كلّ زمان. ولكنّ حدّتها وقوّتها تختلف من وقت لآخر، تبعاً لظروف كلّ مرحلة وأحوالها. وقد تنامت هذه الشّكوى وانتشرت في هذه الفترة بصورة واضحة، ولعل ذلك بتأثر من ظروف هذا العصر وأحواله المضطربة، سواء ما كان منها متعلّقاً بالوضع الدّاخليّ أو الخارجيّ، على نحو ما اتّضح في مدخل هذه الدّراسة.

ومن النّماذج الدّالة على هذا المعنى، أبيات لمعين الدّين بن تولوا[2]، عبّر فيها عن عدم ثقته بالنّاس، لقلّة مكارمهم وزيفها، واستشراء البخل بين صفوفهم، يقول[3]:

أمّا السَّماح فَقَدْ أقْوتْ مَعالِمُهُ ... فَمَا على الأرضِ مَنْ تُرْجَى مكارِمُهُ

فلا يَغُرّنْكَ مَنْ تَلْقَاهُ مُبْتَسِماً ... فَطالما غَرّ بَرْقٌ أنتَ شائمُهُ

لا تُتعِبِ النَّفْسَ في اسْتِخْلاصِ راحتِها ... مِنْ باخِلٍ لَوْمُهُ في الجُودِ لائمُهُ

أخى المذلّةَ إعزازاً لِدِرْهَمِهِ ... ويَصْحَبُ الذُّلَّ مَنْ عَزّتْ دَراهِمُهُ

---

(1) لمعاينة هذا الجانب من شخصيّة أسامة انظر: حلمي الكيلاني، الغربة في شعر أسامة بن منقذ، مجلة مؤتة للبحوث والدّراسات، م8، ع2، جامعة مؤتة، 1993م : 69-118؛ شفيق الرقب، ظاهرة الحزن في شعر أسامة بن منقذ، مجلّة دراسات، العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، م24، ع2، الجامعة الأردنية، 1997م: 459-479.

(2) هو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن، شاعر مصريّ، توفي سنة 685هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 440.

(3) الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 441؛ وفي المعنى نفسه انظر: البهاء زهير، ديوانه: 141؛ العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام): 2/ 193.

وبلغ التّشاؤم حدّه لدى مجير الدّين بن تميم[1] الذي افتقد الخير في كلّ النّاس، بل لقد طالت هذه الدّرجة من عدم الثّقة نفسه لم يبرّئها هي الأُخرى مما اتّهم به الآخرين[2]:

لَكَ الخَيرُ كَمْ صاحَبْتَ في النّاسِ صاحبًا فما نالني مِنْهُ سوى الهمِّ والعَنا

وَجَرّبتُ أَبْناءَ الزَّمانِ فَلَمْ أَجِدْ فَتًى مِنْهمُ عِنْدَ المضيْقِ ولا أنا

وكان من النّتائج المترتّبة على هذا الاتّجاه، أنْ دعا الشُّعراء إلى العزلة، واجتناب الاختلاط بالنّاس. وذلك على نحو ما يبدو – مثلاً – من قول أميّة بن أبي الصّلت الذي يفضّل لزوم بيته وحيداً؛ لأن سعادته وراحته – كما يرى – تتحقّق في ذلك[3]:

لمّا رَأيتُ النّاسَ قَدْ أصْبَحتْ صُدُورُهُمْ بالغلِّ مَغْشُوشَهْ

وكلُّ مَنْ أحْبَبْتُهُ مِنْهُمُ مُنْقَلب العَهْدِ ولا الرِّيْشَهْ

لزِمْتُ بَيْتي وَتَجنَّبْتُهُم فَصِرْتُ مِنْ أطْيَبِهِمْ عِيْشَهْ

ومن الواضح أنّ مثل هذا الموقف، يحمل مضموناً سلبيًّا، يدعو إلى التّواكل والهروب من الواقع ومواجهته.

وامتدّت شكوى الشّعراء – في هذا المجال – لتصل إلى أنفسهم؛ فتناولوا ظروفهم القاسية، وأحوالهم المعيشيّة الصّعبة. وكان الفقر هو المعنى الأكثر تردّداً في هذا السّياق؛ فابن دانيال – مثلاً – يصوّر تعاسة حاله التي تمثّلت في سوء مظهره، ورثاثة ثيابه، ويقرن كلّ هذا بفقر أولاده ومعاناتهم من العوز والجوع، يقول[4]:

(1) هو محمد ين يعقوب بن علي، مجير الدين بن تميم الإسعرديّ، سكن حماة وتوفي فيها سنة 684هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 4/ 54.

(2) الصفديّ، الغيث المسجم: 2/ 350.

(3) أميّة بن أبي الصّلت، ديوانه: 132؛ وللاستزادة انظر المصدر نفسه: 143.

(4) ابن دانيال، المختار من شعره: 72-73.

لي جُبَّةٌ فَنِيَتْ مِمّا أنشّيها ... وما أُخيِّطُها إلا بأشْراسِ[1]

ورثَّ شاشي[2] حتّى ظَنَّ مُبصِرُهُ ... أنّ العناكبَ قَدْ سَدّتْ على راسي

ولي عيالٌ بهِمْ قَدْ عِيلَ مُصْطبري ... وصِرْتُ للهمِّ فيهمْ مِثْلَ بُرْجاسِ[3]

يَسْعَوْنَ حَوالَيَّ كالجُرذانِ مِنْ سَغَبٍ ... مقرِّضينَ بأنيابٍ وأضْراسِ

أما أبو الحسين الجزّار، فقد أكثر من وصف فقره ونحس حظّه. وله في هذا المعنى غير ما مقطوعة، اتّفق أغلبها على تأكيد هذه الفكرة، وجاء طرحه لها بأساليب اتّسم معظمها بسخرية لاذعة. من ذلك قوله متحدثاً عن نفسه بضمير الغائب الذي كان لاستخدامه أثر في تعميق مأساويّة المشهد؛ فكأنّه يتحدّث عن شخصٍ مغيَّب لا أثر فاعلاً له، يقول[4]:

ولا تَغرَّنّكَ مِنْهُ جُوْخَةٌ ... فَصَلُّها وَهُوَ عَليها نادِمُ

كَمْ أعْجَبَتْهُ نَفْسُه فيها إلى ... أنْ نَفِدَتْ مِنْ كُمِّه الدَّراهمُ

وَبَيْعُها في البَرْدِ غَيْرُ مُمْكِنٍ ... وَرَهْنُها لا يَرْتَضيْهِ الحازمُ

ومنه قوله في وصف جانب من همومه التي كان للشّتاء بمتطلباته وأعبائه الثّقيلة وكساد سوق الشّعر، وسوء حال مهنة الجزارة، أثرها في زيادة بؤسه وحرمانه[5]:

أصْبَحْتُ في أمري ولا ... أشْكُو لِغَيرِ اللهِ حائرْ

---

(1) الأشراس: ما صغر من الشوك.

(2) الشاش: نسيج رقيق يستعمل لفافة للعمامة.

(3) البُرْجاس: هدف ينصب على رمح أو سارية.

(4) ابن سعيد الأندلسيّ، المغرب في حلى المغرب (القسم الخاص بمصر): 303؛ وللاستزادة انظر المصدر نفسه: 300، 316.

(5) المصدر نفسه: 331.

وَلَكَـــمْ يُــذكِّرُني الـــشِّتَـــا ءُ بــأَمْرِهِ وَلَكَــمْ أُكَـــاسِـــرْ

واللَّحــــمُ يَقْــبُحُ أنْ أعـــو دَ لِبَيْعـــهِ والــشَّعْـــرُ بـــائِرْ

يــا لَيْتَنـــي لا كُنْــتُ جَـــزْ زَاراً ولا أصْبَحْـــتُ شاعِـــرْ

2

انقـلاب قـيم: رصـد الـشّعراء في هـذا الجانـب بعـضاً مـن أوجـه المتناقـضات في مجتمعاتهم، فعبّروا عمّا كان يسود منظومة القيم الاجتماعيّـة مـن خلـل واضـطراب؛ فقـد ساء أسامة بن منقذ – مثلاً – أن يـرى تـضاؤل شـأن "ذوي الفـضل"، واستعلاء أمـر "ذوي النّقصان" كما يصفهم[1]:

زهّـــدني في العَقْـــــلِ أنّـــي أرَى عِنايـــةَ الأيّـــــام بالجَهْـــــلِ

والـــدَّهرُ كـــالمِيْزانِ: ذو الفَـــضْلِ يَنْـــحطُّ، وذو النّقـــصانِ يَـــسْتَعـــلي

وعلى ما في قول أسامة من تجسيد لمدى التناقض بين الواقـع والمثـال في زمنـه ذاك، فإنّه يشفّ عن منزع عاطفيّ، قد يتكرّر على لسان كل من لم يرقه واقـع الحـال؛ لإحـساسه بنكد الحظّ وسوء التّقدير.

ويسوق ابن الفرّاش[2] جملة من المتقابلات، مقارنـاً – بـصورة غـير مباشـرة – بـين سوء الأحوال السّائدة، وما يتمنّى أن يكون عليه واقع الحال فعلاً[3]:

فَتَبّـــــا لِـــدَهرٍ يُعِـــزُّ اللّئـــــام وَقَـــدْرُ الكِـــرَامِ بـــهِ مُطَّـــــرَحْ

---

(1) أسامة بن منقذ، ديوانه: 308.

(2) هو القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمّد بن محمّد، شاعر دمـشقيّ، عمـل في خدمـة نـور الـدّين زنكي، ومن بعده صلاح الدّين. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشام): 1/ 289.

(3) المصدر السابق: 1/ 293.

ذَلــولٌ إذا مــا امْتَطــاهُ الجَهُــــــولُ ومــــــا رامَـهُ الحُـرُّ إلا جَمَــــحْ

لَقَــدْ شَــاهَ في النّــاسِ وَجْــهُ القــريضِ وَلَــمْ يَبْــقَ في دَهْرِنـــــــا مُمْتَــدَحْ

وَقَــــدْ طُمِــسَتْ أوْجُــهُ الـمَكْــرُماتِ وَقَــدْ عُطِّلــتْ هُجْنُهــــا والـصُّرُحْ

غير أنّ الشّاعر قد أبان عن مكنون نفسه، حين كشف عن أسباب نقمته الـتي بـدت في البيت الثّالث بوضوح. وهي نقمة وإن بدت ذات نزوع ذاتيّ، إلا أنّها تعبّـر، في وجههـا الآخر، عن حالة الضّياع والإهمال التي آل إليها حال الشّعر والشّعراء في هذه العصور.

وممّن نقد هذه الظّاهرة مجير الدين بن اللمطيّ الذي يشير – بسخرية – إلى مقـاييس التّفاضل بين فرد وآخر في عُرْف نفر من أبناء مجتمعه؛ فيرى أنّهـا مقـاييس مغلوطـة، تقـيّم الشّخص بمظهره ولباسه، لا بجوهره وعلمـه؛ فالجاهـل مقـدّم لأنّـه غـنيّ، والعـالِم مـؤخّر ومنبوذ لأنّه لا يمتلك شيئاً[1]:

أعيـذُكَ إنّ القــومَ مَـنْ كَــانَ فِيْهـــمُ فَقِــيرًا رَمــوْهُ بالقطيعــةِ والهَجْـــــرِ

وعَــدُّوهُ ذا نَقْــصٍ وإنْ كــانَ كامِـــــلاً وغُــودِرَ فيمــا بَيْـنَهُمْ خامِـلَ الذِّكِــرِ

وَقَـدْ أصْـبَحَ المَرْمُــوقُ فِـيْهم بِـسُـــؤْدُدٍ وَرِفْعَــةِ قَـدْرٍ في الوجُـود هـو المُثْـري

وإنْ كــانَ ذا جَهْــلٍ وجُـبْنٍ وخِــسّـــــةٍ وتِلْــكَ وبيْــتِ اللهِ قاصــمةُ الظّهْـــرِ

ولا يختلف موقف ابن دقيق العيد عن هذا، فنجده يشكو من الإجحاف الذي لحـق بأهل العلم، وما كانوا يلاقونـه مـن زرايـة وإهمـال علـى يـد بعـض أصـحاب المناصـب والمتنفّذين الذين ربّما عاملوهم بهذه الطّريقة لشعورهم بضآلة قدرهم أمـام مـن هـو أكثـر منهم علماً ومعرفة[2]:

أهــلُ المناصـــبِ في الــدُّنيا وَرِفْعتِهــا أهــلُ الفَــضائِلِ مرْذُولُــونَ بيْــنَهمُ

(1) الأدفويّ، الطّالع السّعيد: 454.

(2) المصدر نفسه: 592.

قَـدْ أنْزَلُونـا لأنّـا غَيـــرُ جِنْـسِهِم ... منازلَ الـوَحْشِ في الإهمـال عِنْـدَهمُ

فما لَهُـمْ في توقّـــي ضُرّنـا نَظَـــرٌ ... وَمَـا لَهُـمْ في تَـوقّي قَـدْرِنا هِمَـــمُ

فَلَيْتَنـا لَـوْ قَدَرْنـــا أنْ نُعرِّفَهُـــمْ ... مِقْـدَارَهم عنـدَنا أو لَـو دَرَوهُ هُـــمُ

لهـم مُريحـانِ مـن جَهْـلٍ وفَـرْطِ غِنـىً ... وعنـــدنا المُتعبـانِ العِلـمُ والعَـدَمُ

على أنّ مثل هذه النّماذج الشعريّة، لا بدّ أن تؤخذ بقدر من التحفّظ، إذ لا يصحّ أن تقبل على إطلاقها، فلم تكن الحال كلّها - كما يستبان من بعض المصادر التاريخيّة - على مثل هذا السّوء وهذه السّوداويّة؛ فقد لقي العلم والعلماء - على طول هذه الفترة - كثيراً من التّقدير والاحترام وحسن الرعاية(1).

3

أمراض اجتماعيّة: يستدّل من بعض المصادر أنّ المنكرات والمعاصي كانت متفشّية بين قطاعات المجتمع؛ فقد ذكر ابن إياس - مثلاً - أنّه في سنة 665هـ أمر السلطان [الظاهر بيبرس] بإبطال ضمان الحشيشة وإحراقها، وأخرب بيوت المسكرات، وكسر ما فيها من الخمور وأراقها، ومنع الحانات من الخواطئ واستتوب العلوق واللواطي، وعمّ هذا الأمر سائر جهات الدّيار المصريّة، وبرزت المراسيم الشّريفة بمنع ذلك من سائر الجهات بالبلاد الشّاميّة، فطهّرت في أيّامه سائر البقاع، وامتنع الناس من ذلك غاية الامتناع"(2). وفي صدور مثل هذا المرسوم السُّلطانيّ دلالة صريحة على ما وصلت إليه

---

(1) حول ذلك انظر مثلاً: ابن الأثير، الباهر: 171-173؛ ابن شدّاد، النوادر السلطانيّة: 31 ؛ الصفديّ، صلاح الدّين خليل بن أيبك (ت764هـ)، أعيان العصر وأعوان العصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرين، ط1، دار الفكر، دمشق، 1998م: 5/ 207؛ ابن حجر، الدرر الكامنة: 4/ 212؛ السيوطي، حسن المحاضرة: 2/ 95.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدّهور: ج1، ق1، 326.

الحال – في بعض الأحيان – من تردّ وسوء. ومن الملاحظ أنّ هذا التّيار المجونيّ بدأ يتزايد – بصورة واضحة – منذ بداية العصر المملوكي"[1].

وقد وجد انتشار مثل هذه الظّواهر السّلبيّة صدى في شعر الهجاء. وأولى هذه المنكرات التي سجّلها الشّعر تعاطي الحشيش والإدمان عليه. وقد بدا شيء من هذا عند الحديث عن الخرافات المتصوّفة. غير أن الأمر تعدى ذلك؛ إذ وُجِدت هذه الظّاهرة بين طبقات اجتماعيّة مختلفة، من جملتها الفئات الفقيرة التي ربما أقبلت عليها بسبب رخص سعرها[2]. أو ربما كان ذلك بدافع من ظروفها المعيشيّة القاسية في محاولة للهروب من الواقع أو تناسيه. وقد عبّر الشّاب الظّريف[3] عن جانب من هذا الواقع حين صوّر ما تركته الحشيش في هؤلاء الفقراء من أضرار بالغة، بهذين البيتين اللذين كانا إلى لغة النثر المباشرة أقرب منهما إلى لغة الشّعر[4]:

هـذا الفقـيرُ الّـذي تـراهُ ... كـالفَرْخِ مُلْقَـى بِغَـيْرِ رِيْـشِ

قَـدْ قَتَلَتْـهُ الحـشيشُ سُـكْراً ... والقَتْـلُ مِـنْ عـادَةِ الحَـشيشِ

وممّن بيّن أضرار الحشيش، على نحو أكثر تفصيلاً، النّور الإسعرديّ[5] الذي يقول في معرض أبيات يفضّل فيها الخمر على الحشيش[6]:

...حَشيْشتُهُمْ تَكسُو المهيبَ مَهانةً ... فَتَلْقاهُ مِثْلَ القاتِلِ المُتعمّدِ

---

(1) لمزيد من التّفصيل عن هذا الجانب انظر: سعيد عاشور، المجتمع المصريّ في عصر سلاطين المماليك، ط1، دار النهضة العربيّة، القاهرة، 1962م: 225-233.

(2) فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكيّ الأوّل: 351.

(3) هو محمد بن سليمان بن علي التلمسانيّ، المعروف بالشّاب الظّريف، توفي في دمشق سنة 688هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 372؛ ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة: 7/ 381.

(4) الشّاب الظّريف، ديوانه، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط1، مكتبة النّهضة العربية، عالم الكتب، بيروت، 1985م: 33؛ وللاستزادة انظر المصدر نفسه: 101.

(5) هو محمد بن عبد العزيز بن رستم الإسعرديّ، كان من شعراء الملك الأيوبيّ النّاصر توفي سنة 656هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 271.

(6) الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 275؛ وفي هذا المعنى انظر المصدر نفسه : 1/ 152.

ويبدُو على خدّيه مِثْلُ اخضِرارِها ... فيضحي بِوَجْهٍ مُظْلِمِ اللّونِ أرْبَدِ

وَتُفْسِدُ مِنْ ذِهْنِ النَّديمِ خَيالَهُ ... فَيَنْظُرُ مبيضَّ الصَّباحِ كأسْوَدِ

وعلى الرّغم من أنّ هذه الأبيات جاءت على سبيل الفكاهة والدّعابة، حيث يذهب في أبيات سابقة إلى تفضيل الحشيش على الخمر[1]، إلا أنّها تعبّر – مع ذلك – عن انتشار هذه العادة، واستفحال أمرها بين بعض أفراد المجتمع آنذاك.

ومن الظواهر التي انتقدها الشّعر، تفشي بعض الموبقات من انحلال وشذوذ ومجون، وقد فصّل الشّاب الظّريف – في قصيدة طويلة – القول في ضروب مختلفة من مظاهر الفساد والانحلال في مجتمعه[2]. وأسهب ابن دانيال في ذكر صور من اللهو والمجون في أبيات قالها بعدما أصدر الظّاهر بيبرس – كما ذكرنا – مرسوماً بإبطال المنكرات في مملكته، فقدّم وصفاً دقيقاً لإراقة الخمور، وتعطيل الحانات وإغلاق بيوت الدّعارة. ومما قاله فيها واصفاً وقع هذا الأمر على نفر من الخلعاء ممّن لم يطب لهم مثل هذا الإجراء[3]:

... وذوو القَصْفِ ذاهِلُونَ وَقَدْ كادَ ... تْ عَلى سَلْها تَسِيلُ النُّفُوسُ

كَمْ خَليعٍ يَقُولُ ذا اليَومُ يَوْمٌ ... مِثْلَما قِيلَ قَمْطَرِيرٌ عَبُوسُ

وظهرت – كذلك – صور من الشّذوذ الجنسيّ، بين الرِّجال والنّساء على حدّ سواء، وذلك على نحو ما يبدو – مثلاً – من قول سيف الدّين المشدّ[4]:

بَطَلَ التَّناسُلُ في الوَرَى ... بَينَ اللياطَةِ والسّحاقَهْ

وَغَدا الّذي لا يَرْتَضِي ... هَذَيْن مِنْ أهْلِ الحَماقَهْ

---

(1) المصدر نفسه: 3/ 273-274.

(2) الشّاب الظّريف، ديوانه: 115-116.

(3) ابن دانيال، المختار من شعره: 112.

(4) سيف الدين المشد، عمر بن قزل (ت656هـ)، ديوانه(ميكروفيلم) رقم 833، الجامعة الأردنية: 49؛ وسيف الدين المشد هو: علي بن عمر بن قزل المشد، ولد في مصر سنة 602هـ، وتوفي في دمشق سنة 656هـ. انظر: الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 51.

الفصل الثالث
الهجاء السِّياسيّ

أولاً : في الصّراع الدّاخليّ

1. نزعة تعميميّة
2. هجاء أمراء الشّام
3. شعر الهجاء والدّولة الفاطميّة

ثانياً : في الصِّراع الخارجيّ

1- هجاء الفرنجة
2- هجاء المغول



الفصل الثالث

الهجاء السّياسيّ

أولا: في الصراع الداخلي

يتضمن شعر الهجاء السّياسي في هذه الدِّراسة جانبين رئيسين:

أوّلهما: يتناول موقف شعر الهجاء من الصّراعات السِّياسيّة الدّاخليّة التي شهدتها مصر والشّام في هذه الفترة، والمتمثّلة في بعض الحركات المناوئة لخطّ السِّياسة العامّ؛ كانشقاقات أمراء الشّام، ومحاولاتهم الرّامية إلى الانفصال في عهد كلّ من نور الدِّين وصلاح الدّين. وتتمثل – كذلك – في الصِّراعات التي شهدتها السّاحة المصريّة في أواخر عهد الدَّولة الفاطميّة، وما كان يتخلّلها من نزاعات دامية في سبيل الاستئثار بالحكم.

وثانيهما: يتناول موقف شعر الهجاء من الصِّراع الخارجيّ الذي تمثّل – تحديداً – في الصّراع مع الصّليبيين. وتناولُ هذا المحورِ يشكّل أهميّة بالغة نظراً لخطورة هذا الصّراع، وما تركه على المنطقة من آثار جسيمة.

ولا بدّ من التّنبيه إلى أنني لم أقصد أنْ أقدّم في هذا الفصل عرضاً مفصّلاً لصورة الحياة السّياسية كما تبدّت ملامحها في شعر هذه الفترة؛ فهذا مما لا يتوافق وخطّة البحث المرسومة. كما أن شعر الهجاء لا يمكنه أن يقوم وحده بمثل هذا المطلب. وإنّما هدفت من ذلك إلى الوقوف عند بعض النّصوص الشِّعرية الرّافضة والناقدة لبعض المواقف السّياسية التي لم ترق الشّعراء؛ فعبّروا- بطريقة أو بأُخرى – عن رفضهم واستهجانهم لها.

1. نزعة تعميميّة

1

اتّخذ جانب من شعر الهجاء السّياسيّ في مصر والشّام زمن الحروب الصّليبيّة طابعاً تعميميّاً، لجأ الشُّعراء من خلاله إلى انتقاد الأوضاع السّياسيّة القائمة في البلاد، دون اللجوء إلى تخصيص حادثة بعينها، أو التّعريض بأشخاص باسمهم. ومن الأمثلة على هذا المنحى أبيات لابن القلانسيّ[1]، صوّر فيها حالة الضّعف والتفكّك التي آلت إليها أوضاع الشّام عقب مقتل عماد الدِّين زنكي سنة 541هـ[2]. وهي حالة مصدرها – حسب الشّاعر- العبث بمقدرات الدّولة، ونهب أموالها، وتفرّق كلمة أمراء البلاد لاختلاف مآربهم وغاياتهم[3]:

.. وأضْحتْ بُيُوتُ المالِ نُهْبَى لغَيْرِهِ ... يُمزِّقُها أبْناؤه ومظالِمُهْ

فَلمّا تولّى قَامَ كلُّ مُخالِفٍ ... وشامَ[4] حُساماً لَمْ يَجُدْ وهو شائمُهْ

وأطْلَقَ مَنْ في أسْرِهِ وحُبُوسِهِ ... وَفُكّتْ عَنِ الأَقْدامِ مِنْهُ أداهِمُهْ

وعادَ إلى أوطانِهِ بَعْدَ خَوْفِهِ ... وطابَتْ لَهُ بَعْدَ السّغوب[5] مَطاعِمُهْ

(1) هو حمزة بن أسد بن علي أبو يعلى التّميميّ الدّمشقيّ (-555هـ)، أديب ومترسّل، صاحب كتاب "ذيل تاريخ دمشق". انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزّاهرة: 5/ 332.

(2) أبو شامة، كتاب الروضتين: 1/ 154 وما بعدها.

(3) ابن القلانسيّ، تاريخ دمشق: 448.

(4) شام الحسام: سلّه.

(5) سغب: سَغْباً وسُغوباً: جاع بعد تعب.

ومع أنّ الأبيات السابقة لا تعبّر عن هجاء مباشر، إلا أنّ استقراء الموقف الذي تمخّضت عنه يدلّ على انتقاد للأوضاع التي آلت إليها البلاد بعد مقتل عماد الدين. والأبيات من قصيدة طويلة تضمّن القسم الأكبر منها رثاءً حاراً لعماد الدِّين، وتعداداً لمآثره ومناقبه المتمثّلة في عدله وجهاده وقوّة بأسه في ردع أعداء الدّين.

وعبّر ظهير الدّين السّمرقنديّ[1]– على الرّغم مما يبدو في قوله من سلبيّة وعدم مبالاة بما يجري– عن سوء أحوال الشّام واضطراب أوضاعها التي يبدو الظّاهر منها بخلاف المستور[2]:

الشّامُ كامرأةٍ لَها دَلٌّ، بها ... شُغِفَ الرِّجالُ وإنّها حَسْناءُ

فاقْنَعْ بذاكَ وخلِّها بقناعِها ... لا تكشِفَنَّ، فإنّها قَرْعاءُ

وتبدّت في هذا الهجاء التّعميمي صور من الشّكوى والاستياء؛ وذلك على نحو ما يبدو – مثلاً- من قول أبي المجد المعريّ[3] الذي يُعبِّر – في وقت مبكّر نسبيًّا من هذه الفترة – عن تردّي الواقع السّياسيّ نتيجة تسلُّط بعض العناصر، وتمكّنها من أمر النّاس[4]:

زَمانٌ غاضَ أهلُ الفَضْل فيه ... فَسُقْيا للحِمامِ بِهِ وَرُعْيا

(1) هو أبو بكر أحمد بن علي البلخي السّمرقنديّ، المعروف بالظهير، قدم حلب في أيّام نور الدّين، توفي في دمشق سنة 553هـ. انظر: ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت660هـ)، بغية الطّلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، 1988م: 1/ 4341.

(2) المصدر نفسه: 10/ 4342.

(3) هو القاضي أبو المجد محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي المجد المعريّ(–523هـ). انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام): 2/ 7.

(4) العماد الأصفهاني، الخريدة (الشّام): 2/ 11.

أســـــارى بَـــيْنَ أتْـــــراكٍ وروم　　　وفَقْـــدِ أحِبَّـــةٍ ورِفـــــاقِ شَغْيـــــا[1]

وقد ظلّت نغمة الاستياء هذه تلازم شعر هذا العصر حتى مرحلة متأخّرة؛ فهذا – مثلاً– البهاء زهير الذي عاصر أواخر عهد الدّولة الأيوبيّة (وهي فترة تميّزت بكثرة صراعاتها ونزاعاتها المتجدّدة كما سيتّضح في هذا الشّعر لاحقاً)، والسّنوات الأولى من حكم المماليك، يعبّر عمّا يخالجه من شعور تجاه واقع البلاد السّياسيّ بقوله[2]:

دَوْلَـــةٌ كَـــــمْ قَـــــدْ سَألْـــنا　　　ربَّـــنا التَّـــعويـــــضَ عَـــــنْها

وفَرِحْـــنا حِـــــينَ زَالَـــتْ　　　جـــاءَنـــا أنْحَـــسُ مِنْهـــا

2

وقد اتّخذت هذه النّزعة التّعميميّة في الهجاء السّياسي – إلى جانب ما سبق – صوراً من المقارنة التي كشف استحضارها عن سياسة بعض الحكّام المتقاعسين عن الجهاد. فثمّة – كما يتّضح من الشّواهد الشّعريّة – نموذجان من الحكّام؛ نموذج الحاكم المجاهد التّقيّ، ونموذج الحاكم المتخاذل. ومن الواضح أنّ الإشادة بالنّموذج الإيجابيّ والوقوف عند منجزاته، تمكّن الشّاعر – على نحو بيّن – من نقد النموذج الآخر، وكشف مساوئه. وقد ساعد على استدعاء هذه الصّور من المقابلة، ظهور أبطال المسلمين الكبار في هذه الفترة، من أمثال عماد الدّين زنكي، وابنه نور الدّين، وصلاح الدّين الأيوبيّ.

---

(1) رِفاق: مصدر رافقه في السفر. وشَغْيا هو غلام أبي المجد (الشاعر). انظر: المصدر نفسه.

(2) البهاء زهير، ديوانه: 288.

فحين تزعّم عماد الدّين حركة الجهاد في بلاد الشّام والجزيرة الفراتيّة، وحمل على عاتقه عبء تنظيم قوى البلاد لمقاومة الوجود الصّليبيّ المتفاقم[1]. أخذ الشُّعراء – بدافع من هذا الواقع المبشّر – يقارنون بين هذا البطل المجاهد، وغيره من حكّام عصره، دون أنْ يعيّنوهم أو يخصّصوا واحداً منهم بالاسم. ومن النّماذج على هذا التوجّه ما قاله ابن منير الطّرابلسيّ مخاطباً عماد الدِّين من قصيدة أنشده إيّاها سنة 540هـ، يهنّئه بالعافية من مرض ألمّ به، مصوّراً مقدار التّمايز والخلف بينه وبين غيره من الملوك[2]:

ملوك أطرافٍ حمى أطرافَها ... عَزْمُكَ هذا اللاحقُ السَّباقُ

لو لمْ ترق ماءَ كرى العين لَمَا ... ساغَتْ بأفواههم الأرْياقُ

شَقَقْتَ منْ دونهِمْ مَوْجَ الرّدى ... وشقَّ أكبْادَهُمُ الشِّقاقُ

أُقسمُ: لَوْ كَلّفتَهُمْ أن يَسْمعُوا ... حَديثَ أيّامِكَ ما أطاقُوا

لما اشتَكيتَ دبَّ في أهْوائِهِمْ ... توجُّسٌ للسّمعِ واستِراقُ

تَطاولُوا، لا عَدِمَتْ آمالُهُمْ ... قصراً ولا جانبها الإخفاقُ

تَوهّموها غَسَقاً ثمّ انْجَلَتْ ... والصَّفو مِنْ مَشْرَبِهمْ غَسّاقُ[3]

وتغدو المقارنة التي ترمي إلى إبراز التّباين في المواقف أكثر وضوحاً في الشِّعر الذي قيل في الملك العادل نور الدّين؛ ولعلّ ذلك يعود إلى الإنجازات العسكريّة التي حقّقها،

---

(1) حول دور عماد الدِّين زنكي في هذا الجانب انظر مثلا: ابن الأثير، التاريخ الباهر: 32 وما بعدها؛ فايد حمّاد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (العصر الفاطميّ والسلجوقي والزّنكيّ): 179 - 204.

(2) ابن منير، ديوانه: 202.

(3) الغَسّاق: ما يسيل من جلود أهل النار وصديدهم.

والسّمات الشّخصيّة الحميدة التي كان يتّصف بها[1]؛ فقد عرّض ابن القيسرانيّ- مقابل إشادة وتقدير ظاهرين بنور الدّين – بركون بعض الحكّام إلى حياة الدّعة، وتثاقلهم عن الجهاد في سبيل تحقيق بعض المكاسب الدّنيويّة الآنية[2]:

يا ساهدَ الطّرفِ والأجفانُ هاجعةٌ ... وثابتَ القلبِ والأحشاءُ تضْطَرِبُ

منْ كانَ يغزو بلادَ الشّركِ مُكْتَسباً ... مِنَ المُلوكِ فنُورُ الدِّين مُحْتَسِبُ

هذا وهَلْ كانَ في الإسلامِ مكرمةٌ ... إلا شهدْتَ وعبّادُ الهوى غُيُبُ

ويقدّم العماد الأصفهانيّ[3]- في معرض مدحه لنور الدّين وإشادته بجليل أعماله – جملة من المقابلات الهادفة إلى نقد مواقف بعض القادة المتقاعسين عن واجب الجهاد، وذلك إذ يقول[4]:

يا أعظمَ النّاسِ قَدْراً ... وَهَلْ لِغَيْرِكَ قَدْرُ؟

وساهراً حِيْنَ ناموا ... وقائماً حِيْنَ قرُّوا

ما اعْتَدْتَ إلا وفاءً ... وعادةُ القومِ غَدْرُ

وَفِعْلُكَ الدَّهرَ غَزْوٌ ... للمُشْركينَ وقَهْرُ

وفِعْلُ غَيْرِكَ ظُلْمٌ ... للمُسْلِمينَ وقَسْرُ

---

(1) في مآثر نور الدّين وصفاته، انظر: ابن الأثير، الكامل: 11/ 403- 405؛ أبو شامة، كتاب الرّوضتين: 1/ 31- 50؛ محمود السرطاوي، نور الدّين زنكي في الأدب العربيّ (في عصر الحروب الصّليبيّة)، ط1، دار البشير، عمان، 1990م: 60-74، وغيرها من صفحات.

(2) ابن القيسرانيّ، شعره: 65 -73.

(3) في ترجمة العماد الأصفهانيّ انظر: ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء: 19/ 11؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: 5/ 147.

(4) العماد الأصفهاني، ديوانه، تحقيق: ناظم رشيد، جامعة الموصل، 1983م: 175.

أما ابن منير فيصف بعض هؤلاء الحكّام "بالثّعالب" التي خنست حين سمعت زئير "الأسد- نور الدّين"، واختبأت في قصورها خوفاً من بطشه، وقوّة بأسه[1]:

خَنَس[2] الثّعالبُ حينَ زَمْجَرَ مُصْحرٌ ... ملأَ البلادَ هماهماً وزَئيرا

تُرِكُوا مُشاجَرَةَ الرِّماحِ لحاذقٍ ... جَعَلتْ مَخافتُهُ القُصورَ قُبُورا

وأكثر الشّعراء في عصر صلاح الدّين من التّعريض الذي أخذ شكل المقارنة ببعض الحكّام المتوانين عن الجهاد. وذلك على نحو ما يبدو من قول سعادة الأعمى[3] الذي أنشد صلاح الدّين سنة 571هـ قصيدة بدمشق، ندّد - في بعض أبياتها - بسياسة من يسعون إلى عرقلة جهود صلاح الدّين في مواجهة الصّليبيين، كاشفاً - بشيء من المفارقة - عن سموّ غاية صلاح الدّين، ونبل مساعيه، وزيف همم أولئك الحكّام وصغر مراميهم[4]:

لا يُقْعِدَنَّكَ ما حَلُّوا وما عَقَدوا ... هُمُ الذّئابُ وأنتَ الضَّيْغَمُ الأَسَدُ

كم يَخْطِفُون بُرُوقًا ما بها مَطَرٌ ... ويقصِفُونَ رُعودًا ما بها بَرَدُ

والقومُ قدْ قَعَدُوا عمّا نَهضْتَ بهِ ... من السِّدادِ، فلا قامُوا ولا قَعَدُوا

فلا ثيابُ المعالي فَوقَهُمْ جُدُدٌ ... ولا طريقُ الأماني نَحْوَهُمْ جَدَدُ[5]

---

(1) ابن منير، ديوانه: 218.

(2) خنس: تأخّر.

(3) هو سعادة بن عبد الله بن أحمد من أهل حمص، كان ضريراً مملوكاً لبعض الدمشقيين، سافر إلى مصر في أول عهد صلاح الدين. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشام): 1/ 406؛ الصّفدي، خليل بن أيبك (ت764هـ)، نَكْت الهِمْيان في نُكَت العميان، تحقيق: أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية، مصر، 1911م: 157-158.

(4) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشّام): 1/ 412.

(5) الجَدَد: الأرض المستوية.

ويقابل ابن جبير الأندلسيّ[1]– في الإطار ذاته – بين حياة بعض الملوك، وما يتخلّلها من دعة وعيش نضر، وحياة صلاح الدِّين المجاهد المصابر، وذلك إذ يقول[2]:

تبيتُ المُلُوكُ على فُرشِهِمْ ... وتَرْفُلُ في الزَّرِدِ السَّابري

وتُؤْثِرُ جاهدَ عَيْشِ الجهادِ ... على طِيْبِ عَيْشهِمُ النّاضرِ

وتَسْهَرُ لَيْلَكَ في حقِّ مَنْ ... سيُرْضيكَ في جَفْنِكَ السّاهرِ

أمّا ابن سناء الملك، فيعبِّر – في سياق ابتهاجه بتولّي صلاح الدِّين مقاليد الحكم – عن غياب القيادة القادرة على إصلاح حال البلاد، وإنقاذها من مهاوي التردّي التي سقطت بها بفعل إدارة بعض القيادات غير المؤهّلة، يقول[3]:

..أرْضُ الجزيرةِ لم تَظْفَرْ بمالكِها ... بمالكٍ فَطِنٍ أو سائسٍ دَرِبِ

ممالكٌ لمْ يُدبِّرْها مُدبِّرُها ... إلا برأيِ خصيٍّ أو بعَقْلِ صبي

حتّى أتاها صلاحُ الدِّين فانصلحَت ... من الفسادِ كما صحّت من الوَصَبِ[4]

ولا يكاد العماد الأصفهانيّ - على ما في أبياته من ركاكة بادية وتكرار مُخِلّ – يخرج عن المعاني التي ذكرها الشّعراء السّابقون حين يقارن بين صلاح الدِّين الذي يستهلّ يومه بالتّقى والصّلاح ومجاهدة الأعداء، وغيره من الحكّام الغارقين في ضروب من اللّهو والفجور[5]:

---

(1) هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير...الكناني الأندلسيّ، ولد في بلنسية، ورحل إلى المشرق ثلاث مرات، توفي سنة 614هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 6/ 221؛ الزركليّ، الأعلام : 5/ 319.

(2) أبو شامة، كتاب الرّوضتين:3/ 372.

(3) ابن سناء الملك، ديوانه: 3؛ أبو شامة، كتاب الرّوضتين: 3/ 164.

(4) الوصب: التعب والمرض.

(5) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: 194.

..إليكَ هَجَرْتُ مُلوكَ الزَّمانِ فَمالَكَ، واللهِ، فيهِمْ نَظيرُ
وفَجْرُكَ فيهِ القِرى والقُرانُ جميعاً، وفَجْرُ الجميعِ الفُجُورُ
وأنتَ تُريقُ دِماءَ الفِرَنْجِ وَعِنْدَهُمُ لا تُراقُ الخُمُورُ

وفي الاتّجاه نفسه، يلحّ ابن الدّهان الموصلي[1] على جملة قضايا؛ منها: سؤال العدالة المفقود لدى فئة من الحكّام. وانشغال بعضهم بالتّرف والمجون وإشباع الرغبات، على حساب ما هو أولى وأهمّ، كالإنفاق في الخيرات (باعتبار ذلك من واجبات الحاكم التّقيّ الذي يحرص على قدر من العدالة الاجتماعية)؛ وجمع الأموال للتّعبئة، وإمداد الجيوش بالعدد والعدّة (وهو أمر يتطلّبه الظّرف التّاريخيّ على نحو مُلِحّ)، وذلك إذ يقول مخاطباً صلاح الدّين[2]:

مُلوكٌ جُلّهُمْ مُغْرىً بِظُلْمٍ وَمَشْغُولٌ بِلَهْوٍ أوْ بِراحِ
إذا ما جالَتِ الأبطالُ ولّى ويُقْدِمُ نَحْوَ حاملةِ الوِشاحِ
يرى الإنفاقَ في الخيراتِ خُسْراً وأنتَ تَراهُ مِنْ خَيرِ الرِّباحِ
هُمُ جَمَعُوا وَقَدْ فَرّقْتَ لكنْ جمعتَ بهِ الرِّجالَ مَعَ السِّلاحِ
وبونٌ بَيْنَ مالِكِ بَيْتِ مالٍ ومالكِ رقِّ أملاكِ النّواحي

(1) هو المهذب عبد الله بن أسعد بن علي الموصليّ الشافعيّ، توفي في حمص سنة 581هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام): 2/ 279؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 6/ 100.

(2) ابن الدهان، ديوانه، تحقيق: عبد الله الجبوري، ط1، مطبعة المعارف، بغداد، 1968م: 64-65.

3

غير أنّ هذا المنزع التّعميميّ في نقد الأوضاع السّياسيّة في مصر والشّام في هذه الفترة، قد تحوّل لدى بعض الشّعراء إلى نقد مباشر وصريح تناول بعض الأحداث المعاصرة، والشّخصيات السّياسيّة المعروفة التي كان لها مواقف سلبيّة أثارت الاستياء الشّعبيّ العامّ. وذلك على نحو ما حدث سنة 593هـ، حين قصد الفرنج بيروت في جمع كبير[1]، وكان بها صاحبها عزّ الدين أسامة[2] الذي تركها حين أحسّ بالخطر، وولّى هارباً. فقال فيه العماد الأصفهانيّ مقرّعاً وموبّخاً على فعلته تلك[3]:

إنّ بيعَ الحُصُونِ مِنْ غيْرِ حَرْبٍ ... سُنَّةٌ سنّها بِبيروتَ سَامَهْ

لَعَنَ اللهُ كُلَّ مَنْ باعَ ذا البيـ ... ـعَ وأخْزى بخَزْيِهِ مَنْ سامَهْ

ومثل هذا الاستياء نلمسه – على نحو أوضح – حين تمّ تخريب بيت المقدس وهدم سوره سنه 616هـ[4] على يد الملك المعظّم عيسى، بسبب خوفه – كما يذكر المؤرّخون – من استيلاء الفرنج عليه. ومما قيل في استنكار هذا العمل واستهجانه، وذمّ الملك المعظّم هذان البيتان لمجهول[5]:

في رَجَبٍ حَلَّلَ الحُميّا ... وأخْربَ القُدْسَ في الْمُحَرّمْ

---

(1) ابن واصل، محمد بن سالم (ت697هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيّوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، بلا تاريخ: 3/ 74.

(2) من أمراء الدولة الأيوبيّة، كان بيده قلعة عجلون وكوكب، اعتقله الملك المعظّم ومات رهن الاعتقال سنة 609هـ، وقيل سنة 608هـ. انظر: الصفدي، الوافي: 15/ 97؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 6/ 205.

(3) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: 445-446.

(4) أبو شامة، الذيل على الرّوضتين: 115-116.

(5) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب: 5/ 66.

واستخدمَ القِبْطَ والنّصارى   وبَعْدَ ذا وَزرَ المُكَرَّمْ

ومن الطبيعيّ ألا يعذر النّاس الملك المعظّم على فعلته تلك مهما حسنت نواياه؛ وذلك لما لبيت المقدس من مكانة دينيّة عظيمة في نفوس المسلمين جميعاً. وإن كان الشّعر الذي عبّر عن صدى هذا الفعل – لسبب أو لآخر – يُعدُّ باهتاً وضعيفا[1].

ومن الأحداث المهمّة التي لاقت صدى من النقد والتّعريض لدى الشّعراء، تنازل الملك الكامل سنة 626هـ عن بيت المقدس، وتسليمه للفرنجة بدافع من خلافات البيت الأيوبيّ المتكرِّرة. غير أنّ أغلب الشّعر الذي عبّر عن هذا الحدث يقع تحت باب البكاء والاستعبار[2]. ومن النّماذج القليلة التي تصادف الدّارس في التّنديد بالحكّام الذين فرّطوا ببيت المقدس قول شاعر مجهول على لسان بيت المقدس[3]:

إنْ يَكُنْ بالشّآم قلَّ نصيري   وَتَهَدَّمْتُ ثُمّ دامَ هُلُوكي

فَلَقَدْ أصبحَ الغَداةَ خرابي   سِمَةَ العارِ في جباهِ المُلوكِ

ولعله بسبب من موقف الملك الكامل ذاك، وجد الشُّعراء في موته سنة 635هـ فرصة لهجائه والنيل منه، وذلك على نحو ما يبدو لدى شرف الدّين الرّحيّ[4] الذي يُعبِّر عن حادثة موته بقوله[5]:

..وَافاهُ مقضيُّ الحِمام ولمْ يُرَعْ   حيٌّ ولم يَحْفِلْ بهِ اثنانِ

---

(1) عبدالجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة، ط1، دار البشير، عمان 1989م: 177.

(2) انظر نماذج من ذلك في: عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبيّة (جمع وتحقيق وتقديم)، دار البشير، عمان، 1989م: 240-246.

(3) الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت876هـ)، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون العراقية، 1978م: 312-313.

(4) هو شرف الدين أبو الحسن علي بن يوسف الرّحي، له في الطّب غير مؤلف، توفي بدمشق سنة 667هـ. انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: 675.

(5) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: 678-679.

فَغَدا لقى[1] تَحْتَ التُّراب مُجَنْدَلاً | لَمْ يَنْتَطِحْ في مَوْتِهِ عَنْزانِ
فلبئسما ذَهَبَتْ وساوسُ فِكْرِهِ | مِنْهُ إلى دَعوى بغيرِ بَيانِ
أنّى وما فَوْقَ البسيطةِ فاسِدٌ | إلا ويَخْلِفُهُ بديلٌ ثانِ

وعلى الرغم من ذاتيّة هذا الهجاء، وخلوّه - تقريباً - من أيّ نقد واضح، إلا أنّه يعبّر - مع ذلك - عن شعور باد من التّشفّي والمرارة، ومثل هذا الشعور من الجائز أنْ يكون انعكاساً لحالة من الاستياء وعدم الرّضا تجاه ذلك الحاكم[2].

2. هجاء أمراء الشام

1

كان لبعض حكّام الشّام مواقف مناهضة لجهود نور الدّين الرّامية إلى توحيد بلاد الشّام. ومن هؤلاء حكّام دمشق الذين استعانوا - في سبيل إعاقة الوحدة - بالصّليبيين، وعقدوا المعاهدات معهم[3]. وقد دفعت هذه المواقف نور الدّين إلى حصار المدينة غير مرّة لمحاولة ضمّها إلى حلب ومن ثمّ، توحيد الإمارات الشّاميّة، في ظلّ دولة زنكيّة موحّدة، تقف متماسكة بقوّة في وجه الصّليبيين[4].

---

(1) لقى: منبوذ.

(2) يؤكد حالة الاستياء هذه ما ورد على لسان بعض مؤرّخي هذا العصر؛ فابن الأثير ينقل وقع خبر تنازل الملك الكامل عن بيت المقدس على نفوس المسلمين بقوله: "استعظم المسلمون ذلك وأكبروه". الكامل: 12/ 483؛ وابن واصل يقول في المناسبة ذاتها: "وأنكروا [المسلمون] على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه". مفرج الكروب: 4/ 243.

(3) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: 1/ 239.

(4) محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبيّ في شعر ابن القيسرانيّ: 118.

ففي سنة 546هـ فرض نور الدّين حصاراً على دمشق "لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم"[1]. وقد استثار هذا الموقف الشّعراء، فراحوا يعنّفونهم على فعلتهم تلك، محرّضين نور الدّين عليهم، وممّا جاء في ذلك، قصيدة لابن منير يصوّر في بعض أبياتها، محاولة أولئك الحكّام تثبيط أيّ مسعى وحدويّ مرجوّ، إلى جانب تعبيره عمّا كانوا يتّصفون به من نفاق، وإثارة فتن بغيضة[2]:

يا نـــورَ دِيْـنِ اللهِ وابـنَ عـــمادِهِ ... والكَـوثَرِ ابـنِ الكَـوثَرِ ابْـنِ الكَـوثَرِ[3]

صَـفِّرْ بِحـدِّ السّيفِ دارَ أشــائبٍ ... عَقَلُـوا جِيـادَكَ عـن بنـاتِ الأَصْـفَرِ[4]

هُـمْ شـيَّدُوا صَـرْحَ النّفـاقِ وأَوْقَـدُوا ... نـاراً تُحَـشُّ بهـم غـدًا في المَحْـشَرِ

أذكـوا "بجِلِّـقَ" حَرَّهـا، واسْتَـشْعَرتْ ... لفحاتُهـا بَـيْنَ "الصَّفا" و"المَشْعَرِ"

شـرِّدْ بهـمِ[5] مَـنْ خَلْفَهُـمْ مُـسْتَنْجِدًا ... مـا ظـاهرَ الكُفّـارَ مَـنْ لم يَكْفُـرِ

لا تَعْفُ، بل شُقَّ الهُدى نفسَ الذي اذ دَرِعَ الضَّلالَ على أغرَّ مُشَهَّرِ.

قَلِّدْهُ مـا أهـدى علـيُّ لمـرحَبٍ[6] ... فَلَقَـدْ تَهَكَّـمَ في الخِـداعِ الخَيْبَـري

---

(1) أبو شامة، كتاب الرّوضتين: 1/ 259؛ وكان نور الدين قد ضرب حصاراً آخر على المدينة سنة 544هـ للأسباب ذاتها. انظر تفصيل ذلك في: ابن القلانسيّ، تاريخ دمشق: 478-479؛ أبو شامة، كتاب الرّوضتين: 1/ 240-241.

(2) ابن منير، ديوانه: 229.

(3) الكوثر: الرجل السّخي.

(4) الأشائب: أخلاط الناس.

(5) في الديوان: شرّدتهُمْ، وهو تصحيف. انظر توجيه محقّق كتاب الرّوضتين: 1-259، (حاشية رقم 5).

(6) مرحب هو اليهودي الذي قتله علي بن أبي طالب في خيبر سنة 7هـ، وقيل إنّ الذي قتله محمد بن مسلمة. انظر: ابن الأثير، الكامل: 2/ 218-219.

مـا الغِـشُّ مِمّـن أمُّــهُ نـصـــرانــةٌ   لَـمْ تُــخْتَتِنْ كـالغِشّ مـــنْ مُتَنـصِّرِ

وفي المناسبة ذاتها، ينال ابن منير في قصيدة أخرى مـن مجير الـدّين أبـق[1] صـاحب دمشق وقتذاك، ويحمل عليه حملة عنيفة، فيها من الازدراء والسّخرية الكثير. متــوسّلاً - في سبيل أن يكون لهجائه حدّتـه وقوّتـه - بالمعـاني الدّينيّـة الـتي مـن شـأنها أن تـستثير مشاعر السّامعين، وتستحوذ على اهتمامهم، باعتبار أنّ لموقف هذا الحـاكم المنحـرف عـن خطّ الجماعة الإسلاميّة أثراً في إضعاف شوكة هذه الجماعة أمام عدوّها الخارجي"[2]:

فيـا راكبـاً إمّـا عَـــرَضْتَ فَبَلِّغَـــنْ   بيـــوتاً علـى "جَيْـرونَ"[3] بالــذُّلِّ تُعْمَـدُ

وَقُــلْ لِـ"مُـبير الـدِّينِ" وهـو"مُجـيرُهُ"   بـزَعْمٍ لَـهُ وَجْـــهُ الحقيقـــةِ أرْبـدُ[4]

حَمَلْـتَ الـصَّليبَ باغيـاً، ونَبَذْتَــهُ   وَتَغْـرُكَ مطـــووس[5] النّبـــاتِ وأدْرَدُ[6]

وحارَبْــتَ حِــزْبَ اللهِ، واللهُ نـــاصِرٌ   لناصِـــرِهِ، ودِيــنُ أحمـــدَ أحمـــدُ

تَنَـصّرْتَ حينـاً، والبـــلاءُ مُوكَّـــلٌ   ولا بُــدَّ مِــنْ يــومٍ بـهِ تَتَـــهوَّدُ

ويحطّ ابن منير من قدر مجير الدّين، فينفي عنه صفة الرّجولة، ويصوّره عـاجزاً عـن القيام بجليل الأعمال:

وَجالَـدْتَ جـلاداً وأنــتَ مُـــؤنَّثٌ   تَــذَكَّرْتَ، والجلّــادُ أدْهـــى وَأجْلَـــدُ

---

(1) هو مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طَغْتكين، ولي دمشق بعد أبيه، ومنه أخذها نور الدين سنة 549هـ، توفي سنة 564هـ أو 565هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 5/ 381؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: 4/ 211-212.

(2) ابن منير، ديوانه: 231.

(3) جَيرون: حصن بدمشق. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 3/ 199.

(4) اربدّ: اختلط سواده بكدرة.

(5) مطووس: جميل.

(6) أدرد: أهتم، أي ليس في فمه أسنان.

تَطَاوَلْـتَ لا نَفْـسٌ تُـسمّى ولا أبٌ   وراءكَ زَحْفًـا، إنّـما أنـتَ مُقْعَـدُ

وإمعاناً في التّهكمّ منه، والانتقاص من شأنه، يعمد الشّاعر إلى مقارنته بنور الدّين، فيبدو الفارق كبيراً:

أَمَسْعاةَ نورِ الدّين تَبْغِي ودُونَها الـ   أسـنّةُ بُتْـرٌ والعوامـلُ تُعْـضَـدُ

وَهَلْ يَستَوي سارٍ تأسّـدَ طـاوياً   ونـشْوانُ يُغْلـي مِغْـصماً ويُـؤيَّـدُ

ثمّ يبيّن أنّ من أسباب سوء أحوال مجير الدِّين اتّخاذه البطانة الفاسدة المنحرفة:

تَخِـذْتَ بـني الـصّوفيّ[1] أسْـرا[2] وأسْـرَةً   لكـي يُـصْلِحُوا مـا في يـديكَ فَأفْـسَدُوا

لعَمْري لَنِعْـمَ العبدُ أنـتَ، تُجيعـهُ الـ   ـموالي، وتُـوليه هَوانـًا فَيَحْمَـدُ

ومن أمراء الشّام الذين ساءت علاقتهم بنور الدّين، الأمير غازي بن حسّان[3] صاحب مَنْبج[4] الذي أرسل إليه نور الدّين سنة 563هـ من قام بحصاره، وانتزاعها

---

(1) من الأسَر التي كان لها دور في واقع دمشق السياسيّ، ومن أشهرهم الوزير مؤيد الدّين بن المسيب بن علي. انظر: أبو شامة، كتاب الروضتين: 1/ 222-223؛ وقد كشف أسامة بن منقذ – كذلك – عن انحراف هذه الأسرة، وخطرها على سياسة حكّام دمشق، وذلك على نحو ما يتّضح من قوله محذراً معين الدين أنر (حاكم دمشق) من سوء سريرتهم:

هُمُ الأعادي، وقاكَ اللهُ شرَّهُمُ   وهُمْ بزعْمِهِمُ الأعوانُ والخَـدَمُ

إذا نهضْتَ إلى مَجْدٍ تؤثّلُـهُ   تَقاعَدُوا فإذا شيّدتَهُ هَدَمُـوا

وإنْ عرتْكَ من الأيّامِ نـائبةٌ   فكلُّهُمْ للّذي يُبكيـك مُبتَسِـمُ

انظر: أسامة بن منقذ، ديوانه: 197.

(2) الأسْر: القوّة.

(3) من أمراء نور الدين زنكي. انظر: أبو شامة، كتاب الروضتين: 2/ 32.

(4) مَنْبج: بلدة كبيرة، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وهي من حلب على عشرة فراسخ. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 5/ 206.

بالتالي منه[1]، وفي ذلك يقول العماد الأصفهانيّ – من قصيدة له في مدح نور الدّين – ساخراً من عصيان ذلك الأمير، وساسة الأمر في هذه المدينة[2]:

مــا أعْجَزَتْـكَ الـشُّهْبُ في أبراجِهـــا ... طَلَبًــا، فكيـفَ خَـوارجٌ في أبْــــرُجِ

وَلَقَـدْرُ مَـــنْ يعـصيكَ أحْقَـرُ أنْ يَـرى ... أثَــرَ العُبُــوسِ بوَجْهِـــكَ المتبلِّجِ

لَكِـنْ تُهـذِّبُ مَـنْ عَـصاكَ سيــاسَـةً ... في ضِـمْنِها تقـويمُ كـلِّ مُعــــوَّجِ

2

غير أنّ هذه الجهود الوحدويّة التي حرص نور الدّين على تحقيقها في فترة حكمه (541-569هـ) ما لبثت أن أصيبت بانتكاسة مؤثّرة عقب وفاته، فاضطربت "الأمور في تلك البلاد بعد أن سيطر على ولده الصّبيّ جماعة من الطّامحين الذين كانت مصالحهم الشّخصيّة هي المحرّكة لتصرّفاتهم، وبلغ الأمر أن تنازلوا عن أجزاء من بلاد المسلمين في الشّام للفرنج في مقابل سكوت هؤلاء عنهم، ونصرتهم على إخوانهم من المسلمين إذا استلزم الأمر ذلك"[3]. وكان لا بدّ – والحالة هذه – أن يسعى صلاح الدّين الذي كان يحكم مصر في هذا الوقت، إلى العمل على وحدة البلاد، والحفاظ على ما تمّ إنجازه في عهد نور الدّين[4]، ويلحظ أنّ صوت الشّعر كان قويّاً في تأييد هذا الاتّجاه، فراح الشّعراء يسخرون من أيّ توجّه انفصاليّ، مصوّرين الآثار السّلبية التي يمكن أن يجلبها مثل ذلك

(1) أبو شامة، كتاب الروضتين: 2/ 32.

(2) العماد الأصفهانيّ، ديوانه:102.

(3) محمود إبراهيم، حطّين بين أخبار مؤرّخيها وشعر مُعاصريها، ط1، دار البشير، عمان، 1987م: 40.

(4) حول موقف صلاح الدّين في هذا الشّأن، انظر: عبد الكريم حتاملة، صلاح الدّين وموقفه السّياسيّ من أمراء الشّام بعد وفاة نورالدّين زنكي، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، م1، ع2، 1985م: 7-28.

التوجّه على المسلمين. ومن الشّواهد على هذا ما قاله وحيش الأسدي[1] بمناسبة استيلاء صلاح الدّين على مدينة دمشق سنة 570هـ[2]، مُعبِّراً عن فرحته بصلاح أحوالها بعدما أصابها من خراب وسوء[3]:

رأيتَ جلّقَ ثغراً لا نَظِيرَ لَهُ ... فَجِئْتَها عامِراً منها الّذي خَرِبا

نادتْكَ بالذُّلِّ لما قَلَّ ناصِرُها ... وأَزْمَعَ الخَلْقُ مِنْ أوطانِها هَرَبا

أَحْيَيْتَها مِثْلَ ما أحييتَ مِصرَ فَقَدْ ... أَعَدْتَ مِنْ عَدْلِها ما كانَ قد ذَهَبا

وكان لموقف حكّام حلب المناوئ لمبادرات صلاح الدّين تلك، صدى أكثر وضوحاً وأشدّ نبرة في شعر الهجاء السياسيّ في هذا العصر؛ ولعلّ ذلك يعود إلى تشبّث الشّعراء وتعلّقهم بكلّ مسعى وحدويّ يهدف إلى تقوية الجبهة الإسلاميّة الدّاخليّة في وجه الأخطار المحدقة بها من جهة، وإلى شدّة المقاومة التي لقيها صلاح الدّين من أولئك الحكّام من جهة أخرى؛ مما دفع صلاح الدّين إلى ملاقاتهم في معركة قرون حماة سنة 570هـ[4]، حيث ألحق بهم هزيمة نكراء. وقد كان لنتيجة هذه المعركة رنّة فرح وارتياح بالغين في نفوس عدد من الشّعراء الذين وجدوا في هذه المناسبة فرصة لهجاء الحلبيين والمواصلة والنّيل منهم. ومن هؤلاء ابن الفرّاش الدّمشقيّ الذي عبّر عن الموقف بقدر من الدّقة والتّفصيل، فبيّن ضراوة مقاومة هذه المدينة، وسوء سيرة حكّامها، ومحاولتهم

(1) هو الأديب سبع بن خلف بن محمد بن عبد الله .. الأسديّ الفقعسيّ، يحدّد العماد مولده بحدود سنة 504هـ، ويذكر أنه لقيه شيخاً بدمشق. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشّام): 1/ 242.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانيّة: 50.

(3) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشّام): 1/ 242؛ وانظر أبياتاً مشابهة لابن نفاذة الدمشقي في المصدر نفسه: 1/ 329-330.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانيّة: 51.

الهيمنة على ابن نور الدّين الذي استغلّوا صغر سنّه لتحقيق ما في نفوسهم من مطامع وغايات، وذلك إذ يقول[1]:

عَصَتْ حَلَبٌ وقاتَلَ ساكنوها ... وَلَيْسَ قِتالُهمْ لَكَ بالعَجِيْبِ
لأنَّكَ ناصِرُ الإسلامِ حَقّاً ... وهُمْ رَهْطُ المُغيرة أو شبيبِ
جِهادُكَ إنْ طَلَبْتَ الغَزْوَ فِيْهِمْ ... أهمُّ إليكَ مِنْ غَزْوِ الصّليبِ
أناسٌ دبّتِ الأَغْلالُ فِيهِمْ ... وليسَ لَهُمْ كسيفِكَ مِنْ طبيبِ
وَلَمْ يَدّخِرْكَ نُورُ الدّينِ إلا ... لِتَدْفَعَ عَنْهُ نائبةَ الخُطُوبِ
فَخَلِّصْ ابنَهُ بالسَّيفِ مِنْهُمْ ... فَقَدْ حَبَسُوهُ في بَلَدٍ جَدِيْبِ
يَبِيْتُ وَقَلْبُهُ المَحْزُونُ أشْهى ... إلى لُقْياكَ مِنْ ضَمٍّ الحَبيبِ
صَغِيرٌ بَيْنَهُمْ، لا بَلْ أسِيرٌ ... غَضِيضُ الطَّرْفِ مَبْخُوسُ النّصيبِ
تَذَكَّرْ عَهْدَهُ واحْنُنْ عليهِ ... وَنَفِّسْ عَنْهُ تَضييقَ الكُرُوبِ
ولا يَغْرُرْكَ مَنْ يُوْلِيكَ وداً ... ويُلْوي عَنْكَ أجْفانَ المُريبِ

ويدعو سعادة الأعمى – في الاتّجاه ذاته – إلى اتّخاذ القوّة وسيلة لتحقيق وحدة المدن الإسلاميّة، فيحرِّض – من أجل ذلك – ممدوحه على انتهاج الحزم مع هؤلاء المنشقّين. مستمراً – في سبيل هذه الغاية – بعدين، الأوّل: استثارة العاطفة الدّينيّة من خلال الإلحاح على المعاني الإسلاميّة. والثّاني: تذكير صلاح الدّين بعداوة أولئك القوم، ومواقفهم المناهضة لمساعيه[2]:

..سَيَرْتِقُ فَتْقَ هذا المُلْكِ مِنْهُ ... قواضِبُ، للرّؤوسِ بها انْقِضابُ

(1) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشّام): 1/ 300.

(2) المصدر نفسه: 1/ 426–427.

وَيُمرِعُ بالبَوارِ جَنابُ قَومٍ لَهُمْ عَنْ نُصرَةِ الدِّينِ اجْتِنابُ

فَلا تَقْبَلْ لَهُمْ ما عِشْتَ، عُذْراً وإنْ خَضَعُوا لَديكَ وإنْ أنابُوا

هُمُ حَشَدُوا عَلَيكَ بِكُلِّ وادٍ عَصائبَ، بالضَّلالِ لها اعْتِصابُ

وجيشاً مُذْ دَعاكَ على اغْتِرارٍ صلاحَ الدِّينِ، عاجَلَهُ الصَّوابُ

أمّا العماد الأصفهانيّ، فيساوي بين الحلبيين والمواصلة من جهة، والصّليبيين من جهة أخرى، باعتبار كلا الطّرفين مصدر ضرر وخطورة. ويعمد – في الوقت نفسه – إلى استحضار جانب من صفات صلاح الدّين وأعماله السّامية؛ لإظهار مدى التّفاوت والاختلاف بين هذا القائد المسلم المجاهد، وبين أولئك القادة[1]:

وَأنتَ أجَرْتَ الشّامَ مِنْ شُؤْمِ جارِهِ وَلَمْ يَكْفِ رهط الكُفْرِ حتّى بَغى رَهْطُ

أجَرْتَ وَقَدْ جارُوا، وَدِنْتَ وَقَدْ عَدُوا وَصُلْتَ وَقَدْ خارُوا، وَلِنْتَ وَقَدْ لَطُّوا[2]

فلا يعْبأُ المولى بِمَنْ مِلءُ جَأشِهِ هَوىً، ويقَوْمٍ حَشْوُ جَيْشِهِمْ زُطُّ

كثيرٌ تعدّيهمْ، قليلٌ غناؤهمْ وهُمْ لا أصابُوا رُشْدَهُمْ هَمَلٌ رهطُ

ولم تقف مناوأة الحلبيين والمواصلة لصلاح الدين عند هذا الحدّ؛ ففي سنة 571هـ التقى الجمعان ثانية في مكان يُدعى (تلّ السّلطان)[3]، حيث دارت معركة أسفرت – أيضاً – عن انهزام معسكر الموصل وحلب. وللعماد الأصفهانيّ في ذلك قصيدة طويلة، سخر فيها من المصير الذي آل إليه أولئك المنهزمون، يقول في بعض أبياتها[4]:

---

(1) العماد الأصفهانيّ، ديوانه:282؛ وللاستزادة: 165،288.

(2) لطّوا: جحدوا

(3) ابن الأثير، الكامل: 11/ 427؛ وتل السّلطان: موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 2/ 42.

(4) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: 108.

عَادَ العدوُّ بِظُلْمةٍ مِنْ ظُلْمِهِ ... في لَيْلِ وَيْلٍ قَدْ خَبا مِصْباحُهُ

رَكَدتْ قبولُ قبولِهِ مِنْ بَعْدِ أنْ ... هَبَّتْ غُرورًا بالرِّياءِ رِياحُهُ

أوفى يُريدُ لَهُ بِجَرٍّ جُنُودِهِ ... رِبْحًا فَجرَّتْ خَسْرَةً أرباحُهُ

وَجَنَى عَلَيهِ جَهْلُهُ بِوقوعِهِ ... في قَبْضَةِ البازي، فَهِيضَ جَناحُهُ

حَمَلَ السِّلاحَ إلى القِتالِ وَما دَرَى ... أنّ الذي يَجْني عليهِ سِلاحُهُ

ولّى بِكَسْرٍ لا يُرَجّى جَبْرُهُ ... وَبِقَرْحِ قَلْبٍ لا تُبلُّ جِراحُهُ

ويعمد الشّاعر إلى ضروب من السخرية والاستخفاف بهم، فيصوِّر جيشهم لا يضمّ إلا الرّعاع غير المدرَّبين على حمل السّلاح وخوض معترك الحروب:

عَدِمُوا الفَلاحَ مِنَ الرِّجالِ فَجاءَهُمْ ... مِنْ كلِّ صَوْبٍ مُكْرَهًا فلاحُهُ

فَهُمُ لِحَرْثٍ لا لِحَرْبٍ حِزْبُهُمْ ... أيُثيرُ قُرْحاً مَنْ يُثارُ قراحُهُ[1]

ويتّفق حديث العماد عن هذه الواقعة مع ما ذكره بعض المؤرّخين من أنّ عسكر الموصل كان كالحانة لكثرة ما فيه من خمور ولهو ومغنّيات[2]. وهو إذ يورد ذلك، فإنّما ليتّخذه مدعاة لثلبهم، والانتقاص من قدرهم، من خلال اتكائه على هذه الصّور من المقابلة التي جسّدت ما بين صلاح الدّين وأعدائه من فارق:

راحُ النَّجيعِ بها صِحافُ صِفاحِكُمْ ... مَلأى وتَمْلأُ كُلَّ كاسٍ راحُهُ

وَتَجولُ في صَهَواتِها فُرْسانُكُمْ ... وتَدُورُ في خَلَواتِهِ أقْداحُهُ

وَيَروقُهُ الخَمْرُ الحَرامُ، وعِنْدَكُمْ ... مما يُراقُ من الدِّماءِ مُباحُهُ

---

(1) القرح: العض بالسلاح، القراح: الأرض المخلصة للزرع والغرس.

(2) أبو شامة، كتاب الروضتين: 2/ 401-402.

3

واستكمالاً لهذا المحور، لا بدّ من الإشارة إلى ما حصل بين أبناء البيت الأيوبيّ عقب وفاة صلاح الدّين سنة 589هـ من نزاع وشقاق كانت نتائجه على المسلمين قاسية؛ فقد تفاقم الخلاف بين الإخوة والأقارب، وطمع كلّ منهم بالآخر، حتّى بلغ الأمر بهم إلى أنْ استعان الأخ على أخيه أو ابن أخيه أو عمّه بالأجنبيّ. وقد أصاب القاضي الفاضل في وصف واقع حال الأيوبيين في هذه الفترة حين قال: أمّا هذا البيت، فإنّ الآباء فيه اتّفقوا فملكوا، والأبناء اختلفوا فهلكوا، وإذا غَربَ نجم فما في الحيلة تشريقه، وإذا بَدا خرق ثوب فما يليه إلا تمزيقه[1].

وعند النظر في الشّعر الذي عبّر عن جوانب من هذا النّزاع، يلاحظ أنّ أغلبه يدخل في باب الاستعطاف والشّكوى وإسداء النّصح[2]، مما يجعله خارجاً عن نطاق هذه الدّراسة واهتمامها. غير أنّ بعض هذا الشّعر قد حمل موقفاً رافضاً لما كان يجري، وإن جاء هذا الرّفض هادئاً غير جارح؛ ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ المقام الذي كان يقال فيه هذا الشّعر هو مقام ملوك، وهذا يتطلّب تلطُّفاً في القول إمّا احتراماً وتقديراً، أو رهبة وخشية، أو هما معاً. إضافة إلى أنّ هؤلاء المتخاصمين هم في النتيجة إخوة وأقرباء، لرابطة الدّم بينهم سند كبير، وهذا ما يجعل الشّاعر في موقف المصلح الذي يسعى إلى تأليف القلوب بدل تفريقها.

ومن الشّواهد الشّعريّة التي يمكن إيرادها في هذا السّياق، أبيات للرّشيد النّابلسيّ، قالها بمناسبة الصّلح الذي تمّ بين ابني صلاح الدّين: الملك الأفضل[3] والملك العزيز

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان: 3/ 420.

(2) انظر نماذج من ذلك في: ابن واصل، مفرج الكروب: 3/ 37-37، 69، 185- 186، 5/ 365-368.

(3) هو الملك الأفضل علي بن السلطان صلاح الدّين يوسف، ملك الشّام في حياة أبيه، ثم من بعده، توفي سنة 622هـ. انظر: ابن تغري بردي، النُّجوم الزّاهرة: 6/ 366.

https://www.books4arab.com

عثمان[1]، بعدما حصل بينهما من خلاف، إذ يعمد الشّاعر إلى التّأنيب وانتقاد ما جرى من خلال الكلمة الرّقيقة النّاصحة، يقول[2]:

.. لَمْ يَكُنْ لائقًا بِنَجْلِ صلاحِ الـدْ ... دِيـنِ حـالٌ معذوقـةٌ بِفَسادِ

حاشَ للهِ ما عهِدْنا النُّجومَ الـزْ ... زُهْـرَ يُدْعـى في شَمْلِها ببِدادِ

أرأيتَ الأشْبالَ تخرجُ يومـاً ... خُلْقُها عَنْ خلائقِ الآسادِ؟

أيّما والـدٍ بهِ رَحِمَ اللـ ... ـهُ البرايا وأيّما أوْلادِ؟

وتبدو أبيات فتيان الشّاغوريّ التي يُعرِّض فيها بالخلاف بين الملك الأفضل من جهة، وأخيه الملك عثمان، وعمّهما العادل من جهة أخرى، أكثر حدّة في نقد خلافات بني أيّوب، التي بدت آثارها شديدة على دمشق التي عانت – حسب ما يذهب الشّاعر – من الجدب والغلاء بسبب الحصار المفروض عليها من قبل عساكر الملك العزيز[3]، زيادة على ما نجم عن ذلك من فتن وقع في براثنها كثير من الناس[4]:

وعساكرُ المصريِّ مُحدِقَةٌ بنا ... أطلابُها[5] كأجيجِ نارِ المَوْقدِ

نارٌ أتتْ مِن مِصْرَ أذكتْها لنا ... إحَنٌ أثيرَ كَمينُها مِنْ صَرْخَدِ

هُمْ أطلقُوا طِرفَ الغلاءِ فجاءنا ... عَنْ طَرْفِ رُخْصٍ بالغلاة مُقيَّدِ

---

(1) هو الملك العزيز عماد الدّين أبو الفتح، ابن السلطان صلاح الدّين، سلطان الديار المصريّة التي وليها في عهد والده، ثمّ استقلّ بها بعد وفاته، توفي سنة 595هـ. انظر: ابن تغري بردي، النُّجوم الزّاهرة: 6/ 120.

(2) الحنبلي، شفاء القلوب: 237.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب: 3/ 62-63.

(4) فتيان الشاغوريّ، ديوانه: 131-132.

(5) الأطلاب: جمع طلب، وهو لفظ كرديّ معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال. انظر: ابن شداد، النوادر السلطانيّة: 62 (حاشية رقم 3).

مـا بَيْنَ جَـدْبٍ نحـنُ فيـهِ ورُخْـصِهِمْ ... إلا كَغَلْـوةِ سَهْـم رامٍ جـيِّدِ[1]

لَمّـا رأيـتُ النّـاسَ هـرّوا فِتْنَـةً ... ضـبثتْ بَراثنُهـا بِكُـلِّ مُوحِّـدِ[2]

وتفرّقـوا صِـنْفَيْنِ: سُنيّـاً وشِيـ ... ـعيّاً وكُـلٌّ قـائلٌ: أنـا مُهْـتَدِ

هـذا يَمـيلُ إلـى أبي بـكرٍ وذا ... يَبْغـي عليّـاً مُخْلِـصَاً بِتَـودُّدِ

وَسَـقَتْهُمُ الأهـواءُ كـأساً لم تَـدَعْ ... ذا مُـسْكةٍ[3] في النّـاسِ غـيرَ مُـعَرْبِدِ

وقريب من هذا قول ابن عنين من قصيدة صوّر فيها حصار كتائب كلّ من الملك الأفضل، والملك الظّاهر لمدينة دمشق عقب وفاة الملك العزيز سنة 597هـ[4]. والقصيدة – أصلاً – في مدح الوزير ابن شكر، وإبراز دوره في إنهاء هذه المحنة دون إراقة دماء. غير أنّ بعض أبياتها تضمّن تعريضاً وسخرية بالمحاصرين الذين لم يحقّقوا ما أرادوا العزم عليه، على نحو ما يذهب الشّاعر[5]:

..حتى إذا أشرفتْ مِنهُمْ دِمَشْقُ على ... حربٍ لها الويلُ من عُقباهُ والحَرَبُ[6]

فكانَ رأيُكَ فيها رايةً طَلَعتْ ... بالنّصرِ، فانجابَتِ اللأواءُ[7] والكُرَبُ

وباتَ أثبتُهُمْ جَأشاً وأحزمُهُمْ ... رأياً، وأمْضى سلاحًا عَزْمُهُ الهَرَبُ

وكانَ ظَنُّهُمُ أنْ تلتقي بهمُ ... مِصرُ البوارَ وتَغْشى النُّوبةَ النُّوبُ

---

(1) الغلوة: المرة.

(2) ضبثَ بالشّيء: قبض عليه، هرَّ هرّاً: ساء خلقه، وهرّ في وجهه: صوّت.

(3) المُسكة: حصّة من عقل.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب: 3/ 123،125.

(5) ابن عنين، ديوانه: 48.

(6) الحَرَب: الهلاك.

(7) اللأواء: الشدّة.

فأجفَلُوا وزعيمُ القومِ غايةُ ما يَرْجُو من اللهِ أن تَبْقى لهُ حَلبُ

أمّا راجح الحليّ[1]، فيذهب – من باب النّصح والإرشاد – إلى تأنيب الملك المعظّم عيسى، وتحذيره من مغبّة الخلاف الذي حصل بينه وبين أخيه الملك الأشرف[2]، مذكّراً بما كان عليه سلفهما الصّالح من تآلف واتّفاق، وذلك إذ يقول من قصيدة أنشده إياها سنة 624هـ[3]:

أعيذُ عُلاكمْ أنْ يُباحَ لملكِكمْ حمىً وبكُمْ غُرُّ الممالكِ تحتَمي

أَبتْ لكُمُ آباءُ صِدْقٍ نَمَتْكُمُ تخيُّلَ ضغْنٍ يَقْتَضي نقْضَ مُبْرَمِ

نصيحة عبدٍ عاشَ في ظلِّ مُلْكِكمْ تُقابلُهُ بالنُّجْحِ أوجهُ أنْعُمِ

ومن الواضح أن مواقف بعض الشّعراء في هذا الإطار، تحمل ميلاً إلى هذا الطّرف دون ذاك، ممّا قد يدفع الدّارس إلى التّشكيك في موضوعية هذا الطّرح[4]. غير أنّ المهمّ في هذه النّصوص الشّعريّة هو تعبيرها عن هذا الصّراع، وإبرازها ما تركه من آثار كانت نتائجها سلبيّة على المسلمين عامّة.

---

(1) هو راجح بن إسماعيل بن أبي القاسم الحليّ الأسديّ، مدح ملوك الشّام ونادمهم، توفي في دمشق سنة 627هـ. انظر: ابن العديم، بغية الطلب: 8/ 3529؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: 2/ 72.

(2) هو أبو الفتح مظفّر الدين، ابن الملك العادل، ملك الرّها أيام أبيه، ثم دمشق، وفيها توفي سنة 635هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 6/ 300.

(3) ابن العديمّ، بغية الطّلب: 8/ 3545.

(4) من الشّواهد التي تمثّل انحيازاً بيّناً في الموقف أبيات لشرف الدين الأنصاريّ، من قصيدة قالها في مناصرة الملك المظفّر الثاني (ملك حماة) حين تمكّن من أخذ قلعة (بارين) من أخيه الملك الناصر، ملحقها بمملكته حماة. انظر: شرف الدّين الأنصاريّ، ديوانه: 163.

3. شعر الهجاء والدّولة الفاطميّة

شهدت الفترة الأخيرة من حكم الدّولة الفاطميّة في مصر اضطراباً شديداً، وفساداً بيّناً في شؤون الحكم. ومن الظّواهر اللافتة في هذه الفترة تعاظم شأن "الوزارة" وأهميتها؛ إذ بات الوزراء هم المتحكّمين الحقيقيين في سياسة الدّولة، ولم يكن للخلفاء – في هذا العهد – دور يذكر، "وظلّ ذلك حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطميّة، فقد أصبح الخلفاء الفاطميّون وراء الحجاب، ولا أمر لهم ولا نهي، إلا أن يخرجوا في مواكب أوّل العام الهجريّ ولصلاة الجمعة في رمضان وصلاة العيدين"[1].

وفي ظلّ هذا الواقع، كثر الصّراع حول الوزارة، وزاد عدد الطّامعين فيها. وقد دفع ذلك مصر إلى فوضى واضطرابات مدمّرة، كانت آثارها وخيمة على البلاد التي تعرّضت – في الوقت نفسه – لأخطار خارجيّة، تمثّلت – بصورة أساسيّة – في الخطر الصّليبيّ الذي تمكّن – في هذا الوقت – من السّيطرة على ممتلكات مصر الفاطميّة في بلاد الشّام، دون أن تستطيع له دفعاً[2].

ولم يكن الشّعراء بمنأى عن هذه الأحداث السّياسية، فقد رصدوا بعضها، وعبّر كلّ عن موقفه المساند لهذا الجانب أو ذاك، ويهمّنا هنا أن نتوقف عند الجانب الهجائيّ، دون أن نتعداه إلى الجوانب الأخرى؛ فحين غدر عبّاس الصّنهاجي[3] وابنه بدر بالخليفة

(1) شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (مصر): 25.

(2) فايد حمّاد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، (العصر الفاطميّ والسلجوقيّ والزنكيّ): 116-124.

(3) هو أبو الفضل عبّاس بن يحيى بن تميم بن المعزّ بن باديس، قتل سنة 549هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 3/ 417 (ترجمة ابن السّلار).

الظّافر[1]، وتآمرا على مقتله سنة 549هـ[2]، وجد ابن الدّهان الحمصيّ في ذلك مناسبة للنّيل من عبّاس، والتّنديد بفعلته تلك، يقول[3]:

..ولمّا رأى عبّاسُ للغَدْرِ مَذْهبًا وأظْهَرَ ما قَدْ كَانَ عَنْهُ يُنافِقُ

وأنْفَقَ مِنْ أنْعامِهِمْ في هَلاكِهِمْ جَزاءً بِهِ عمري خَليقٌ ولائقُ

ومَدّ يَداً هُمْ طَوّلوها إليهمُ وَحَلّتْ بأهْلِ القَصْرِ مِنهُ البَوائقُ

وفي المناسبة ذاتها، يستوحي القاضي ثقة الملك بن جرادة[4] أحداث التّاريخ، فيحمل على عبّاس، وينعته بالغدر والظلم، وذلك من قصيدة يمدح بها الصّالح بن رزّيك، حين قام بنصرة أهل القصر من الفاطميّين بعد ما حلّ بهم من قتل وتعذيب، يقول[5]:

..حاملُ الأعباء عن أهلِ العَبا آخذٌ بالثّأر مِنْ باغٍ وَعادِ

مِنْ عُصاةٍ أضْمَرُوا الغَدْرَ فَهُمْ أهْلُ نَصْبٍ ونِفاقٍ وعِنادِ

---

(1) الظافر هو: أبو منصور إسماعيل بن الحافظ، تاسع الخلفاء الفاطميين، قتل سنة549 هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 5/ 288.

(2) أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق: فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، 1930م: 25.

(3) ابن الدهان، ديوانه: 229.

(4) هو القاضي ثقة الملك الحسن بن علي بن أبي جرادة، شاعر من أهل حلب، سافر إلى مصر، وكان على صلة بالوزراء فيها، توفي سنة551هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة(الشام): 2/ 197.

(5) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشام): 3/ 199.

قَتَلُوا الظّافرَ ظُلْمًا وانتحوا ... لبني الحافظِ[1] بالبِيْضِ الحِدادِ

واعتدى عبّاسُ فيهمْ وابنُهُ ... فَوقَ عُدْوانِ يَزيدٍ وزيادِ

مِثْل سَفْرٍ قَتَلوا هاديَهُمْ ... ثمّ ضَلُّوا ما لَهُمْ مِنْ بَعْدُ هادِ

وقد تحوّل بعض هذا الهجاء على أيدي شعراء آخرين إلى مادّة من التّحريض؛ وذلك على نحو ما يبدو من أبيات للقاضي الجليس بن الجباب الذي يحثّ الصّالح بن رُزّيك، على إدراك ثأر الخليفة الظّافر وأهله، مذكّراً – في سبيل تحقيق هذه الغاية – بمصرعهم، وما يمكن أن يكون له من تأثير عاطفيّ مؤثّر[2]:

فأينَ بنو رُزّيك عنها ونصرهم ... وما لهمُ مِنْ منعةٍ وزيادِ

فَلَوْ عايَنتْ عَيْناكَ بالقَصرِ يَوْمَهُمْ ... ومَصْرَعَهُمْ لَمْ تَكْتَحِلْ بِرُقادِ

تَداركْ مِنَ الإيمانِ قَبْلَ دُثُورِهِ ... حُشاشةَ نَفْسٍ آذنتْ بنفادِ

فَمَزِّقْ جُمُوعَ المارِقينَ فإنّها ... بقايا زُرُوعٍ آذنتْ بِحَصادِ

وواضح أنّ الشّاعر يعمد – في سبيل التّأثير – فضلاً عن تصوير مشهد مقتلهم- إلى تطويع العنصر الدّينيّ في صالح توجّهه، وهذا يظهر من خلال إيراده عبارات لها إيحاءات دينية بارزة، من مثل: "الإيمان" الذي كاد يندثر، و"جموع المارقين" التي لا بدّ من تمزيقها.

---

(1) الحافظ هو أبو الميمون عبد المجيد، الخليفة الفاطميّ الذي سبق الظافر، ولي الخلافة سنة 525هـ وتوفي سنة 544هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 3/ 235؛ والإشارة هنا إلى ولدي الحافظ (يوسف وجبريل) اللذين قتلهما عباس. انظر المصدر نفسه: 3/ 491.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): 1/ 190.

وحين يتحقّق لطلائع الظّفر بخصومه والانتصار للخليفة الفاطميّ وأهله[1]، ينبري بعض الشّعراء لتسويغ هذا الموقف ومباركته؛ فهذا الشّريف أسعد بن الجوانيّ[2]، يُبدي تشفّيه بمقتل عبّاس بهذه السّخرية التي تتبدّى من خلال مخاطبته طلائعاً قائلاً[3]:

لَئِنْ كُنتَ قَدْ نَجّيْتَ عبّاسَ مِن ظُبا ... فَرَنْجَةَ لَمّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مُسْتَعفى

وأنْقَذْتَهُ مِنْ أَسْرِهِ وهُو ذاهِلٌ ... يَرُدُّ عَنِ الأَهْوالِ في المَأزقِ الطَّرفا

فَقَدْ سُقْتَهُ إذْ فَرَّ مِنْكَ إلى مَدىً ... تَمُدُّ مُداهُ نَحْو مُقْلَتِهِ الحَتْفا

وما فَرّ مِن وَقْعِ الأَسِنَّةِ صاغِراً ... وَجدُّكَ إلا حِيْنَ لَمْ يَرَ مُسْتَخْفى

ولا يحتاج الأمر كبير عناء لمعرفة سبب موقف الشُّعراء السّابقين من تلك الحادثة، فقد كان أغلبهم من شعراء الملك الصّالح طلائع وحاشيته المقرّبة. وكان هجاؤهم في هذا الجانب، عرضيّاً جاء في سياق مدحهم له، ومن الطبيعيّ – إذن – أن يدافع كلّ منهم عن شرعيّة سيّده، وأن يتبنّى من المواقف ما يخدم توجّهه، ويرضي هواه. غير أن الإنصاف يقتضي أن نشير أيضاً، إلى أنّه ربّما كان لمواقف طلائع الجهاديّة أثر في استمالة قلوب الشُّعراء نحوه، وبخاصّة إذا استحضرنا جانباً من رسائله الشّعرية مع أسامة بن منقذ، وما كان يتخلّلها من دعوة صريحة إلى الجهاد وتحرير المقدّسات[4].

وبعد أن تمكّن طلائع بن رُزّيك من الثأر للخليفة الظّافر، واستقرّ في كرسي الوزارة، لم تلبث أن ظهرت في عهده بعض الفتن والثّورات الدّاخليّة، كثورة (طَرْخان) في

---

(1) أبو شامة، كتاب الروضتين: 1/ 309.

(2) هو الشريف محمد بن أسعد علي بن معمر الجواني، نقيب الأشراف بالديار المصريّة، توفي سنة 588هـ. انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم مصر): 1/ 119؛ الصّفدي، الوافي بالوفيات: 2/ 202.

(3) العمادالأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر):1/ 119

(4) عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة: 40-42.

الإسكندرية[1]، التي سرعان ما يتمكّن من إخمادها والقضاء عليها. وفي ذلك يقول أحد الشّعراء معرِّضاً بطَرْخان هذا الذي لم يكتب لثورته النّجاح[2]:

لَقَدْ طمحتْ بطرْخانٍ أمانٍ ... لـهُ ولمثلِهِ فيها بَوَارُ

وحاولَ خطّةً فيها شماسٌ ... على أمْثالِهِ وبها نِفارُ

أتتْكَ بخائنٍ قَدَماهُ سعْياً ... كما يَسْعى إلى الأسدِ الحِمارُ

ولعمارة اليمنيّ في طَرْخان بعدما تمّ صلبه أبيات تكشف عن طرافة لافتة في التّصوير، وهي قوله[3]:

أراد عُلُوَّ منزلةٍ وَقَدْرٍ ... فأصْبَحَ فَوْقَ جِذْعٍ وهو عالِ

وَمَدَّ على صليبِ الجذْعِ مِنْهُ ... يميناً لا تطولُ على الشّمالِ

وَنَكّسَ رَأسَهُ لعِتابِ قلْبٍ ... دَعَاهُ للغِوايةِ والضّلالِ

ومن الثّورات الدّاخليّة التي شهدها عهد طلائع بن رزّيك أيضاً، ثورة بَهْرام الغُزّيّ[4] الذي حاول الاستقلال بالصّعيد، غير أنّ ثورته تنتهي بالفشل كسابقتها، وقد سخر عمارة اليمنيّ – مقابل ارتفاعه بممدوحه إلى آفاق سامقة – من تمرّد بَهْرام، وصوّر العاقبة التي انتهى إليها بقوله[5]:

.. لمّا تمرَّدَ بَهْرَامٌ وأسْرَتُهُ ... جَهلاً، وراموا قِراعَ النَّبعِ بالغَرَبِ

(1) عمارة اليمني، النكت العصريّة: 113.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر):1/ 192؛ وفي هجاء طرْخان انظر أيضاً: ابن الدهان، ديوانه: 118-122

(3) عمارة اليمني، النكت العصريّة: 47؛ وللاستزادة انظر: 113-114.

(4) المصدر نفسه: 46

(5) عمارة اليمني، المختار من ديوانه (ضمن كتاب النكت العصرية): 165.

صَـدعتْ بالنّاصـرِ الحيـي زُجـاجتَهم ... وللزُّجاجـةِ صَـدْعٌ غَيْـر مُنْـشَعِبِ

ظنّـوا الـشَّجاعةَ تُنجـيهم فَقـارَعَهُمْ ... أبـو شُـجاعٍ قَريـعُ المَجْـدِ والحَسَـبِ

سُـقُوا بأسْـكَرَ سُـكْراً لا انقـضاءَ لـهُ ... مِـنْ قَهْـوَةِ المـوتِ لا مِـنْ قَهْـوةِ العِنَـبِ

وحين تطال لعنة الوزارة طلائعاً نفسه، ويقتل بتدبير من عمّة الخليفة العاضد سنة 556هـ[1]، ينبري عمارة – ولست أدري إن كان ذلك وفاء وثباتاً على موقف، أو تبدّلاً وانتهازاً للفرصة حيثما وجدت – للنّيل من قاتليه، والتّعريض بهم، مستثمراً – في ذلك – البعد الدّينيّ استثماراً واضحاً؛ "فالإله" قد غضب على هؤلاء القتلة الذين يقرنهم بعقّار "ناقة صالح"، وطلائع قد حلّ بعد قتله في "دار الكرامة"، بينما حلّ قاتلوه في "البوار والنّار". وأخيراً فقد أوقع "القصاص" بهم، على الرغم من فظاعة جرمهم الذي لا يعادله عقاب حسب ما يذهب[2]:

..غَـضِبَ الإلـهُ عَـلى رجـالٍ أقـدَموا ... جَهْـلاً عليـهِ وآخـرين أشـارُوا

لا تَعْجَـبَنْ لقُـدارَ ناقـةِ صـالحٍ ... فَلِكُـلِّ عَـصْرٍ صالـحٌ وقُـدارُ

أحْلِلْـتَ دارَ كَـرامَةٍ لا تَنقَـضِي ... أبـداً وحـلَّ بقاتليـكَ بَـوارُ

وَقَـعَ القِـصاصُ بهِـمْ وَلَـيْسَ مُقْنِعًـا ... يُرْضَى وَأَيْـنَ مِـنَ الـسَّماءِ غُبـارُ

ضـاقَتْ بِهِـمْ سِـعَةُ الفِجـاجِ وربّمـا ... نـامَ الولـيُّ ولا يَنـامُ الثّـارُ

وكما كانت الأحوال السّياسيّة في مصر، تمرُّ بمثل هذه الفوضى والاضطراب، في أواخر حكم الدّولة الفاطميّة، كان بعض الشّعر يعيش حالة شبيهة بتلك إلى حدّ ما؛ فقد استغلّ الشّعراء الظّروف، وانساقوا وراء المنتصر، يعظّمونه ويقلّلون من شأن خصومه، وكأنّهم بذلك كانوا يسيرون على نهج خلفائهم الفاطميين الذين كانوا " إذا غلب شخص

(1) ابن الأثير، الكامل: 11/ 274؛ أبو شامة، كتاب الروضتين: 1/ 390.

(2) عمارة اليمني، النكت العصرية: 64.

صاحب المنصب، وعجز صاحبُ المنصب عن دفعه، وقعوا للقاهر منهم، ورتّبوه ومكّنوه، فإن قوّتهم إنما تكون بعسكر وزيرهم"[1]. ولعلّ مثل هذا قد اتّضح في مجمل ما ورد من شواهد، ويتّضح مثله لدى ابن النّحاس[2] الذي ينتقص من قدر آل رزّيك حين زالت وزارتهم، وآلت إلى شاور، وذلك إذ يقول من قصيدة له في مدح طيّ بن شاور[3]:

يا ابْنَ مَنْ خَلَّصَ الخَلائقَ مِنْ ظُلْـ ـمٍ وَعَسْفٍ وَفَكَّهُمْ فاستراحوا

وَغَزا في ديارِهِم آلَ رُزّيْـ ـكٍ فَلَمْ يُغْنِ جَمْعُهم والسِّلاحُ

أيْنَ وَرْدٌ وبائسٌ وحُسامٌ رَأَوا الذُّلَّ قَدْ أحاطَ فَرَاحُوا

---

(1) أبو شامة، كتاب الروضتين: 1/ 406.

(2) هو يحيى بن علم الملك المعروف بابن النّحاس المصريّ كان من المقرّبين في عهد ابن رزّيك وولده، ثم في عهد شاور، وقد خدم صلاح الدّين، توفي سنة 589هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): 2/ 121.

(3) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم مصر): 2/ 123؛ وتعبّر عن مثل هذا الموقف أبيات لعمارة اليمنيّ في مناصرة شاور نفسه، حينما ثار عليه يحيى بن الخيّاط في الصعيد، وذلك إذ يقول من قصيدة يمدح بها شجاع بن شاور، ويعرّض فيها بابن الخياط:

.. جلبْتَ إليه عُصبةً كامليّةً بأمثالِهم تُبْنَى المعالي وتُهْدَمُ

إذا نطَقَتْ يومَ الجلاد سيوفُها فإنّ لسانَ النّصرِ فيهنّ يُفْهَمُ

تُريكَ سنا الإصباح منها أسنّةٌ حكتْهنّ في ليل العجاجةِ أنْجُمُ

صدمْتَ بها يَحيى وقد كاد أمْرُهُ وتدبيرُهُ الثاني يُتَمُّ ويُبْرَمُ

فعثرتَ مَسْعاهُ وأطفأتَ نارَه وعوّقتَ مجرى سيْلهُ وهو خِضْرِمُ

ولم يقدم الفُسطاط إلا وعزمُهُ يؤخّر رجلاً خَوْفُه ويُقَدِّمُ

انظر: عمارة اليمني، المختار من ديوانه (ضمن كتاب النكت العصريّة): 348-349؛ وفي ثورة ابن الخياط انظر المصدر نفسه: 78.

فـرَّ بَـدْرٌ في البَحْـرِ خَسْـوفاً وولّــى قُـلْ لَــهُ لا اهْتَـدى بِـكَ المـلّاحُ

ويشغل هجاء شاور السّعدي حيّزاً واضحاً من شعر الهجاء في هذه الفترة؛ ولعلّ ذلك يعود إلى ما صدر عنه من مواقف تركت أثراً سيئاً في نفوس الشّعراء، كان أبرزها تنكّره لجند الشّام الذي قدم لمعاونته على خصمه ضرغام[1]، واستعانته – في سبيل ذلك – بالفرنجة[2]. ويلاحظ أنّ أغلب الشّعراء الذين حملوا على شاور، وعرّضوا بمواقفه تلك كانوا شاميّين، بدت مساندتهم لأسد الدّين شيركوه (قائد الحملة الشّامية)، وابن أخيه صلاح الدّين واضحة؛ فالعماد الأصفهانيّ، يحمل – من قصيدة في تهنئة أسد الدّين شيركوه وتقلّده الوزارة في مصر سنة 564هـ – على شاور، مندّداً بتواطئه مع الفرنج[3]:

..مِنْ شـرِّ شـاورَ أنْقَـذْتَ العِبـادَ فَكَـمْ وَكَـمْ قَـضَيْتَ لِـحِزْبِ اللهِ مِـنْ أربِ

هـو الّـذي أطْمَـعَ الإفْـرنجَ في بَلَـدِ الـ إسْـلامِ حتّـى سَـعَوْا للقَـصْدِ والطَّلَـبِ

أمّا عرقلة الكلبيّ، فيحتدّ في هجاء شاور؛ إذ يصمه بالبغي والطّغيان، ويدعو له بسوء الخاتمة، وذلك إذ يقول من أبيات له في مدح صلاح الدّين حين تمكّن من قتله (شاور)[4]:

هو الأَسـدُ الـضّاري الّـذي جـلَّ خَطْبُـهُ وشـاورُ كـلبٌ للرِّجـالِ عقُـورُ

بَغَى وَطَغى حتّـى لقَـدْ قـال قائِـلٌ عَلـى مِثْلِـها كـانَ اللّعـينُ يَـدُورُ

فَـلَا رَحِـمَ الرَّحمـنُ تُـرْبَةَ قَـبْرِهِ ولا زَالَ فيهـا مُنْـكَرٌ ونَـكِيرُ

---

(1) هو أبو الأشبال ضرغام بن سوّار اللخميّ، خرج على شاور، إلا أنّه قتل سنة 599هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 2/ 442.

(2) ابن الأثير، الكامل: 11/ 299.

(3) العماد الأصفهانيّ، ديوانه:80–81؛ وللاستزادة انظر المصدر نفسه: 86، 161، 171، 181.

(4) عرقلة الكلبي، ديوانه:52؛ وللاستزادة انظر المصدر نفسه: 49، 69، 108؛ وفي هجاء شاور انظر أيضاً: أبو شامة، كتاب الرّوضتين: 2/ 54.

وتصاعد حدّة الهجاء للفاطميين، حين يتمّ إسقاط دولتهم على يد صلاح الدّين سنة 567هـ بأمر من نور الدّين[1]؛ إذ يندفع في هذه السّبيل كثير من الشّعراء الذين وجدوا في هذه الأجواء مجالاً رحباً لهجاء الفاطميين ونقد معتقداهم. وقد كان دافع هذا الهجاء - في معظمه - مذهبياً، تمثّل في موقف الشّعراء الرّافض لمذهب هذه الدّولة الشّيعي. ومن يستقرئ هذا الشّعر، يتبيّن مدى العداء الذي حمله هؤلاء الشّعراء لتلك

---

(1) ابن الأثير، الكامل:11/ 368؛ أبو شامة، كتاب الرّوضتين: 2/ 189. وما بعدها؛ وكان حكم صلاح الدّين قد شهد منذ تولّي الوزارة بمصر قيام بعض الثورات والفتن الداخليّة التي استهدفت تقويض سلطته، غير أنّها باءت بالفشل. ومن الثورات التي عبّر عنها الشعر، واستهجن القائمين عليها، ثورة "مؤتمن الخلافة" سنة 564هـ، وللعماد الأصفهاني في ذلك أبيات أشير لها لغاية تاريخيّة، على الرغم من قلّة قيمتها الفنيّة، ومنها قوله:

.. مُؤتمنُ الخلافةِ خانَ حتّى ... غَالَتْهُ مِنْ شرّهِ غوائلْ

عاملكُمْ بالخَنا، فأضحى ... ورأسُهُ فوقَ رأسِ عاملْ

وحالفَ الذُّلّ بعدَ عزٍّ ... والدَّهرُ أحوالُهُ حَوائلْ

انظر: ديوانه: 325-326؛ وحول هذه الثورة انظر: ابن الأثير، الكامل: 11/ 345؛ أبو شامة، كتاب الرّوضتين: 2/ 130؛ ومن هذه المؤامرات أيضاً ما قام به بعض الموالين للدولة الفاطميّة سنة 569هـ بهدف إعادة حكمها الغابر، حيث يتمكّن صلاح الدّين بمساعدة بعض رجالاته من كشف أمرهم قبل أن يتمّ، فيأمر بصلبهم، وكان من جملة المصلوبين الشاعر عمارة اليمنيّ، ولأحد الشعراء أبيات فيه، منها قوله:

عمارة في الإسلام أبْدى خيانةً ... وبايعَ فيه بيْعةً وصليبا

وأمسى شريكَ الشِّركِ في بُغضِ أحمد ... فأصبح في حُبِّ الصَّليبِ صليبا

انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام)، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1964م: 3/ 105؛ وللمزيد من التفصيل عن هذه المؤامرة انظر: ابن الأثير، الكامل: 11/ 398-401؛ أبو شامة، كتاب الرّوضتين: 2/ 282-291؛ ابن واصل، مفرج الكروب: 1/ 243 وما بعدها.

الدولة. فثمة من رأى في هذا الحادث "تطهيراً" لمصر من "الشّرك" الذي "دنّس" منابر مساجدها[1]، وثمّة من نعت أرباب هذه الدّولة بالزّندقة والمجوسيّة والكفر[2]، و بلغ الأمر بأسامة بن منقذ حين قطعت الخطبة للعاضد، إلى القول مخاطباً صلاح الدّين[3]:

فما أَنتَ إلا الشَّمْسُ، لولاكَ لم تَزَلْ   على مِصْرَ ظَلْماءُ الضَّلالةِ سَرْمَدا

وَكانَ بها طُغيانُ فِرْعونَ لم يَزَلْ   كما كانَ لَمّا انْ طَغَى وتمرَّدا

فبصّرْتَهُمْ بَعْدَ الغَوايةِ والعَمى   وَأَرْشَدْتَهُمْ بَعْدَ الضَّلالةِ إلى الهُدى

أما العماد الأصفهانيّ، فقد كان له في هذه المناسبة هجاء كثير، انصبّ أغلبه على وصم الفاطميين بالضّلال والكفر؛ وذلك على شاكلة قوله من قصيدة يمدح بها نور الدّين، ويهنّئه بملك مصر[4]:

..وَأَصْبَحَتْ بِكَ مِصْرُ بَعْدَ خِيفَتِها   للأَمْنِ والعِزِّ والإِقْبالِ كالحَرَمِ

والسُّنَّةُ اتّسقتْ، والبِدْعَةُ انْمَحَقَتْ   وَعاوَدَتْ دَولةُ الإِحْسانِ والكَرَمِ

وقوله في هجاء الخليفة العاضد حين توفّي ملصقاً به أشنع الأوصاف وأقبحها[5]:

تُوفّي العاضِدُ الدَّعيُّ فَما   يَفْتَحُ ذو بِدْعَةٍ بِمِصْرَ فَما

وَعَصْرُ فِرْعَوْنِها انْقَضى وغَدا   يُوسُفُها في الأُمورِ مُحْتَكِما

وانْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الغُواةِ، وَقَدْ   بَاخَ[6] مِن الشِّرْكِ كلّ ما اضْطَرما

(1) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدّريّة في السّيرة النوريّة: 199.

(2) أبو شامة، كتاب الروضتين: 2/ 223.

(3) أبو شامة، كتاب الروضتين:2/ 127؛ ولم ترد الأبيات في ديوانه.

(4) العماد الأصفهانيّ، ديوانه:381.

(5) المصدر نفسه: 376؛ وللاستزادة: 81، 171، 194، 198-200.

(6) باخ: من باخت النّار: سكنت. وفي الديوان: "باح" ولعلّه تحريف، وأثبتُّ ما رأيته أقرب إلى المعنى.

ومن الطبيعي أن يكون الأمر كذلك؛ فالعماد يُعدّ - كما يقال اليوم - "النّاطق الرّسميّ" باسم دولة نور الدّين السُّنّيّة، كما أنّ ولاءه للخلافة العبّاسيّة بيّن لا يخفى[1].

ومن الواضح أنّ هذه الأشعار تفصح عن موقف واحد، هو موقف شعراء السّنّة من الدّولة الفاطميّة. وهو موقف يكشف عن حدّة الصراع المذهبي الذي اشتد أواره في هذه الفترة. وربما انطوى اندفاع بعض الشعراء في مباركة هذا المسعى أو ذاك، على قدر من النفاق السّياسيّ الهادف إلى تحقيق بعض المغانم الذاتيّة.

ثانياً: في الصّراع الخارجيّ

1- هجاء الفرنجة

كان للغزو الصّليبي لبلاد الشّام صدى ملموس في الشّعر العربيّ إبّان الحروب الصّليبيّة؛ فقد صوّر الشّعراء كثيراً من الجوانب المرتبطة بهذا الغزو، منذ بداية ظهوره في المنطقة، وحتّى اجتثاثه منها نهائياً. وتحمّل الشّعراء دورهم في المقاومة والتّحريض من خلال الكلمة التي كان لها أثر فاعل في استثارة المسلمين، ودفعهم إلى مقاومة هذا الخطر الدّاهم والتّصدّي له؛ ولعلّ في قول صلاح الدّين- في سياق إشادته بدور القاضي الفاضل في مساندة الجهد العسكري والقتالي للمسلمين- ما يؤكّد فاعليّة الكلمة وتأثيرها في هذا المجال: "لا تظنّوا أنّي ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل"[2].

وقد أولى بعض الدّارسين المحدثين - في مجال الدّراسات الأدبيّة - هذا الغزو عنايتهم واهتمامهم، وتتبّعوا أصداءه، وآثاره في الأدب. وتناول قسم من دراساتهم - في معرض الحديث عن قضايا هذا الغزو المتعدّدة - الصّورة التي رسمها الأدب لهؤلاء

---

(1) يتضح هذا - مثلاً - من مدائحه الكثيرة لخلفاء بني العبّاس. انظر - على سبيل المثال- ديوانه:64، 74، 151، 198، 217، 269، وغيرها.

(2) ابن تغري بردي، النُّجوم الزّاهرة: 6/ 157.

الغزاة[1]. وستقتصر هذه الدراسة- اتفاقاً مع منهجها- على جانب محدّد، هو إبراز الصورة السلبيّة(الهجائيّة) التي تبدّت في شعر هذه الفترة للصليبيين.

وعند استقراء الشّعر الذي قيل في هجاء الصّليبيين، يلاحظ أنّه لم يكن يشكّل موضوعاً مستقلاً بذاته، وإنّما كان يرد – غالباً – في قصيدة الجهاد ضمن موضوعات أخرى، كالمديح، والرثاء، وتصوير الانتصارات التي حقّقها المسلمون، وغير ذلك؛ ولذا يتوجّب على الدّارس – لغاية منهجيّة – أن يجتزئ هذا الشّعر من قصائد الجهاد؛ لاستخلاص مضامينه وأبعاده المختلفة.

1

وقد تعدّدت المضامين الهجائيّة التي عبّر عنها هذا الشّعر. وأبرز ما يستوقف القارئ منها، ذمُّ الشُّعراء لعقائد الصّليبيين وازراؤهم بها. وليس مثل هذا المعنى بمستغرب، إذا ما علم أثر العامل الدّينيّ وأهميّته في إشعال أوار هذه الحروب، واستفحال أمرها؛ فقد كان لرجال الدّين في الجانب الصّليبيّ دور في استثمار هذا العامل وتوظيفه من أجل

(1) من هذه الدّراسات على سبيل التمثيل:

- محمود عبدالله أبو الخير، الشعر الشاميّ في مواجهة الصليبيين، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة الأزهر، 1979م: 201-233.
- محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني: 161-169.
- عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية: 132-160.
- شفيق الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، ط1، دار صفاء للطباعة والنشر، عمان، 1993م: 54-108.

وواضح من عناوين هذه الدراسات أنها لم تقصد تناول الموضوع لذاته؛ وإنما جاء تناولها له وفق محاور أخرى.

استثارة مشاعر النّاس وتعبئتهم ضد المسلمين[1]. وفي المقابل وجد المسلمون في هذا الغزو الطارئ، تهديداً لدينهم الذي بات مستهدفاً في هذه الحروب الطّاحنة. وكان لا بدّ - والحالة هذه - أن يتمحور بعض هذا الهجاء بين الجانبين، حول "العقيدة"؛ إذ حاول كلّ جانب أن ينال من عقيدة الآخر ويغضّ منها. ويهمّنا هنا أن نتعرّف ما جاء في هذا الهجاء لدى الشّعراء المسلمين الذين كان دورهم - في هذا الاتّجاه - واضحاً.

فمن المعاني التي رمى الشّعراء بها أعداءهم، وصمهم بالكفر والضّلال. وذلك على نحو ما يبدو - مثلاً - في قول ابن القيسرانيّ من قصيدة له في مدح نور الدّين، قارناً الفرنجة بقوم عاد في بغيهم وضلالهم[2]:

..وصَارِمُ الإسْلامِ لا ينثني ... إلا وشلو الكُفرِ مَقْدُودُ

وإنّما الإفْرَنْجُ مِنْ بَغْيِها ... عادٌ وقدْ عادَ لَهُمْ هُودُ

ويتردّد - بصورة لافتة - نعت الشّعراء للصليبيين بالشّرك والطّغيان. وذلك كقول العماد الأصفهانيّ، في معرض مدحه لصلاح الدّين من قصيدة بمناسبة فتح بيت المقدس[3]:

..أحيا الهُدى، وأماتَ الشّركَ صارِمُهُ ... لَقَدْ تجلّى الهُدى، والشّركُ منْجابُ

بِفَتْحِهِ القُدْسَ للإسلامِ قَدْ فُتِحتْ ... في قَمْعِ طاغيةِ الإشراكِ أبْوابُ

وذهب بعض الشُّعراء - في سياق تعريضهم بعقائد الصّليبيين - إلى السُّخرية من مقولتهم "بالتثليث"، وغالباً ما يرد ذلك على شكل مقابلة بين هذا التّصوّر والتصوّر

---

(1) محمد علي الهرفي، شعر الجهاد في عصر الحروب الصّليبيّة، ط3، مؤسسة الرّسالة، بيروت، 1980م: 19، 35؛ فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلي، ط1، دار الشروق، عمان، 1990م: 31 وما بعدها.

(2) ابن القيسرانيّ، شعره: 151-152.

(3) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: 75.

الإسلاميّ الدّاعي إلى التّوحيد. ومن هذا القبيل قول فتيان الشّاغوري من قصيدة يصوّر فيها الحال التي آل إليها العدوّ على يد صلاح الدّين في إحدى معاركه[1]:

..أهداهُمُ التّثليثُ للتّوحيدِ يَومَ لَقيتَهُمْ فقَسَمْتَهُمْ أثلاثا

ومثل هذه المقابلة، تظهر على نحو أكثر تفصيلاً لدى ابن عُقَيْل الزُّرعيّ الذي يسوق مجموعة من المعاني المرتبطة بالعقيدة الإسلاميّة، وذلك كقوله مخاطباً ممدوحه من قصيدة يعرّض فيها بإحدى هزائم الإفرنج[2]:

..نَكَّسْتَ صُلُبًا لهمْ من بَعْدِ ما رُفعتْ إنَّ الصَّليبَ بِحَمْدِ اللهِ مَكْسُورُ

وقابلَ الإفكَ والتّثليثَ إذْ كَفَرُوا لَدَيْكَ للحقِّ تهليلٌ وتَكْبِيرُ

وما تلا النّصرَ منْ آياتِه سِوَرًا إلا وَدَلَّتْ لديهنّ التّصاويرُ

وفي معرض التّنديد بديانة الصّليبيين، أكثر الشّعراء من وصم عقائد أعدائهم بالشّذوذ والانحراف. فهم طوراً "عُبّاد الصّليب" كما يبدو من قول فتيان الشّاغوريّ من قصيدة له في مدح الملك الأفضل[3]:

وَسَلْ عَنْهُ عُبّادَ الصَّليبِ وخَيْلُهُ سواهمُ منْ تَحْتِ العِجاجِ لها نَحْطُ[4]

وهم طوراً آخر "عبّاد عيسى"، على حدّ وصف شهاب الدّين محمود الذي يخاطب ممدوحه بمناسبة فتح عكّا سنة 690هـ قائلاً[5]:

أغْضَبْتَ عُبَّادَ عيسى إذْ أَبدتَهُمُ للهِ أيُّ رضىً في ذلك الغَضَبِ؟

---

(1) فتيان الشاغوريّ، ديوانه: 69؛ وفي المعنى نفسه انظر: الجلياني، ديوان المبشرات: 134؛ ابن منير، ديوانه: 245.

(2) ابن عقيل الزُّرَعي، المختار من ديوانه (مخطوط): 20.

(3) فتيان الشّاغوريّ، ديوانه: 257.

(4) نَحَطَ: زخر، وصات من الإعياء.

(5) الكتبيّ: فوات الوفيات: 1/ 412.

ولكنّ الشّعراء مع هذا قد فرّقوا – وفق رؤيتهم – بين الدّيانة المسيحيّة المتمثّلة في رسالة عيسى عليه السّلام السّامية، وبين ما لصق بها من زيادة وتغيير. وقد عبّر عن مثل هذه الفكرة طلائع بن رزّيك بقوله[1]:

..لو رآهُ المسيحُ لم يَرْضَ فِعْلاً زَعَمُوا أنّه لَهُ مَنْسُوبُ

أبْعَدُ النّاسِ عَنْ عِبادةِ ربِّ النّـ ـناسِ قَومٌ إلهُهُمْ مَصْلُوبُ

ومن أجل استثارة مشاعر الجماعة الإسلامية في هذا الجانب، لجأ الشّعراء إلى تصوير قبح أفعال الصّليبيين، وتعدّياتهم التي طالت حتّى مقدّسات المسلمين. على نحو ما يتّضح من قول شاعر مجهول، يصوّر ما حلّ ببيت المقدس من تجاوزات مشينة[2]:

وَكَمْ مَسْجِدٍ جَعَلُوهُ دَيْراً عَلى مِحْرابِهِ نُصِبَ الصَّليبُ

دَمُ الخنْزيرِ فيهِ لَهُمْ خَلوقٌ[3] وتَحْريقُ المصاحِفِ فِيْهِ طِيْبُ

وشبيه بهذا قول ابن عُقيل الزُّرعيّ الذي يصوّر الحال التي آلت إليها المساجد بعد احتلالها من قبل الصّليبيين. مورداً ذلك من خلال صور من المقابلات الهادفة إلى الاستثارة[4]:

كَمْ مَسْجِدٍ بالثَّغْرِ أضْحى بِيْعَةً[5] يُتْلى بها الإنجيلُ بَعْدَ المُصْحَفِ

ومنابرٍ أضْحَتْ صوامعَ مُشْرِكٍ باللهِ بَعْدَ مُؤذِّنٍ مُتَحنِّفِ

رَفَعُوا بها القُدّاسَ بَعْدَ تلاوةٍ وتَبَدَّلَتْ بَعْدَ الخَطيبِ بأُسْقُفِ

---

(1) طلائع بن رُزّيك، ديوانه: 63.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 5/ 152.

(3) خَلوقَ: ضرب من الطّيب.

(4) ابن عقيل الزُّرَعي، المختار من ديوانه (مخطوط): 27.

(5) البيعة: معبد النصارى.

ولذلك لا نعدم وجود الدّعوة الدّائمة لتحرير المقدّسات وتخليصها من أيدي مغتصبيها؛ فهذا الحافظ بن عساكر، يحثّ نور الدّين – بشيء من الإلحاح – على تطهير المسجد الأقصى، وتخليصه من ربقة الاحتلال[1]:

وطَهِّرِ المسجدَ الأقصى وَحَوْزَتَهُ ... مِنَ النّجاساتِ والإشراكِ والصُّلُبِ

ويتكرّر مثل هذا الإلحاح – في فترة لاحقة – على لسان العماد الأصفهانيّ الذي يذكّر صلاح الدّين بالمطلب ذاته، حين يقول[2]:

فَسِرْ وافْتَحِ القُدْسَ واسْفكْ بهِ ... دِماءً مَتى تُجْرِها يَنْظَفِ

وَخَلِّصْ من الكُفْرِ تلكَ البِلادَ ... يُخلِّصكَ اللهُ في المَوْقِفِ

وحين يتمّ تحرير بيت المقدس على يد صلاح الدّين (وهو حدث له أثره في نفوس المسلمين عامّة)، يعاود الشّعراء تأكيد فكرة تطهير المقدّسات الإسلاميّة؛ فابن جبير – مثلاً – يرى أنّ القدس قد عادت – بعد فتحها – إلى سابق عهدها من الطّهارة، وذلك إذ يقول[3]:

فَتَحْتَ المُقَدَّسَ مِنْ أَرْضِهِ ... فَعادَتْ إلى وَصْفِها الطّاهِرِ

أما العماد الأصفهانيّ، فيربط – بأسلوبه الحافل بالصّنعة – بين تطهير المقدّسات الإسلاميّة، وعودة الشّعائر الدّينيّة التي عطّلت بسبب المحتلّين، وذلك إذ يقول من قصيدة له في المناسبة ذاتها[4]:

---

(1) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): 1/ 277؛ وفي هذا المعنى انظر: ابن القيسرانيّ، شعره: 71–72؛ ابن النبيه، علي بن محمد (ت619هـ)، ديوانه، تحقيق: عمر الأسعد، ط1، دار الفكر، 1969م: 121.

(2) العماد الأصفهانيّ، ديوانه:304.

(3) أبو شامة، كتاب الروضتين: 3/ 375، وانظر أيضاً: الجلياني: ديوان المبشرات: 146، 147، 168.

(4) العماد الأصفهانيّ، ديوانه:232.

..وَطَهّرتَهُ مِنْ رِجْسِهِمْ بِدِمائِهِمْ ... فَأذْهَبْتَ بالرِّجْسِ الذي ذَهبَ الرِّجسا

نَزعْتَ لِباسَ الكُفْرِ عَنْ قُدْسِ أرْضِها ... وَألبَسْتَها الدِّينَ الذي كَشفَ

وَعادَتْ بِبيتِ اللهِ أحكامُ دِينِهِ ... فَلا بَطْرَكًا أبقَيْتَ فيها ولا

وَقَدْ شاعَ في الآفاقِ عَنْكِ بِشارةٌ ... بأنَّ أذانَ القَدْسِ قَدْ أبْطَلَ النَّقسا

ومن المضامين الأخرى التي برزت في هذا الهجاء، التّعريض بأخلاق الصّليبيين وأفعالهم؛ فقد نعتهم الشّعراء بأشنع الأوصاف وأقساها. وهم في ذلك كانوا (الشّعراء) يعبّرون – من جانب – عن شعور المسلمين عامّة تجاه هذا العدوّ الغاصب. وهم – من جانب آخر – لم يجاوزوا الحقيقة في قولهم؛ ولعلّ فيما نقله كثير من مؤرّخي الفترة، ما يؤكّد عظم تجاوزات هؤلاء المحتلّين وخطورتها[1]. ومن الشّواهد الدالة في هذا السّياق أبيات لابن الخيّاط الدّمشقيّ[2] من قصيدة يصوّر فيها أنماطاً من تجاوزاتهم التي تكشف عن فظاظة خلقهم، وسوء معاملتهم المسلمين، وذلك إذ يقول[3]:

بَنُو الشِّرْكِ لا يُنْكِرُونَ الفَسادَ ... ولا يَعْرِفُونَ مَعَ الجَوْرِ قَصْدا

ولا يَرْدَعُونَ عَنِ القَتْلِ نَفْساً ... ولا يَتْرُكُونَ مِنَ الفَتْكِ جُهْدا

وَكَمْ مِنْ فَتاةٍ بِهِمْ أصْبَحَتْ ... تَدُقُّ مِنَ الخَوْفِ نَحْراً وَخَدًّا

وأمٍّ عَواتِقَ ما إنْ عَرَفْـ ... ـنَ حَرّاً ولا ذُقْنَ في اللّيلِ بَرْدا

(1) حول ذلك انظر على سبيل المثال: ابن القلانسي، تاريخ دمشق:222؛ ابن الأثير، الكامل: 10/ 283–284؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 5/ 150.

(2) هو أحمد بن محمد التغلبيّ، شاعر دمشقي، توفي سنة 517هـ. انظر: العماد الحنبلي، شذرات الذهب:5/ 54؛ الزركلي، الأعلام: 1/ 214.

(3) ابن الخيّاط، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1958م: 184–185.

تكـادُ عليهـنّ مِـنْ خِيفـةٍ ... تـذوبُ وتَتْلَـفُ حُـزناً وَوَجْـدا

فَحَامُوا علـى دِيْنِكُـمْ والحـريم ... مُحاماةَ مَنْ لا يَـرى الموتَ فقْـدا

وسُـدُّوا الثّغـورَ بطَعْـنِ النُّحـورِ ... فَمِنْ حـقِّ ثغْـرٍ بكُـمْ أنْ يُسـدَّا

ويعبِّر العماد الأصفهانيّ – من قصيدة قدسيّة – عن سوء أخلاق الصّليبيين وفظاظتهم بقوله(1):

أتَـوْا شُـكُسَ الأَخْـلاقِ خُـشْناً فليّنـتْ ... حُدودُ الرِّقاقِ الخُشْنِ أخْلاقَها الشُّكْسا

ويصوّر ابن القلانسيّ غدرهم ونقضهم العهود، على الرُّغم مما يصدر عنهم من تأكيدها بحسن الوفاء(2):

نَقَـضُوا هُـدْنَةَ الـصَّـلاحِ بجَهْـلٍ ... بَعْـدَ تأْكيدِهـا بحُسْـنِ الوَفـاءِ

فَلَقَـوا بَغْـيَهُمْ بمـا كـانَ فيْـهِ ... مِـنْ فَسـادٍ بجِهْلِهِـمْ واعْتـداءِ

ويربط ابن القيسرانيّ الهزائم التي تعرَّض لها الصليبيون بغدرهم وخيانتهم، يقول(3):

..خـانُوا فَخانـتْ رِمـاحُ الطّعـنِ أيـديَهُمْ ... فاستَـسْلَمُوا، وهـي لا نَبْـعٌ ولا غَـرَبُ

كـذاكَ مَـنْ لَـمْ يُـوَقِّ اللهُ مُهْـجَتَـهُ ... لاقـى العِـدى والقَنـا في كفِّـه قَـصَبُ

وقد ألحّ أسامة بن منقذ على صفة الغدر هذه، وراح يفصّل فيها القول بجملة أبيات متتابعة، من خلال تصويره غدر أحد قادتهم الذي لاقى نتيجة غدره بما يستحق من جزاء(4):

---

(1) العماد الأصفهانيّ، ديوانه:234.

(2) ابن القلانسيّ، تاريخ دمشق:524.

(3) ابن القيسرانيّ، شعره: 68-69.

(4) أسامة بن منقذ، ديوانه:252.

ونَحْـنُ كَـسَرْنا البَغْـدَوِينَ[1] ومـا لِمَـنْ كَـسَرْناهُ إِبـلالٌ يُرَجَّـى ولا جَبْـرُ

فَـسَلْهُ اللَّعِـينَ الحـائنَ[2] الخَـائنَ الـذي لَـه الغَـدْرُ دِيْـنٌ: مـا بـهِ صَـنَعَ الغَـدْرُ

وَقَـدْ ضـاقَتِ الـدُّنيا عليْـهِ بِرُحْبِـها فَلَمْ يُنْجِـهِ بَـرٌّ، وَلَـمْ يَحْمِـهِ بَحْـرُ

دَعَتْـهُ إلى نَكْـثِ اليمـينِ وغَـدْرهِ بِذِمَّتِـهِ الـنَّفْسُ الخسيـسةُ والمَكْـرُ

3

وقد توسّع الشّعراء في هجاء ملوك الصليبيين وقادتهم، واستنبطوا – في هذا الجانب – كثيراً من المعاني والمضامين، ولعلّ التركيز على هذا المعنى وكثرة دورانه على ألسنة الشّعراء، يعود إلى رغبتهم في الغضّ من شأن أعدائهم من خلال الحطّ من قيمة عددٍ من رموزهم الذين كان لهم دور بارز في مجريات هذا الصّراع. إضافة إلى ما كان لبعض هؤلاء القادة من مواقف معادية للمسلمين، ولذا فلا غرابة أن تبرز معاني التّشفي بالمصير الفاجع الذي آلت إليه نهاية بعض هؤلاء القادة؛ فحين قتل – مثلاً – الإبرنس[3] صاحب أنطاكية سنة 544هـ، وجد الشّعراء في هذا الحدث فرصة لرسم صور تعكس شعوراً من المرارة والانتقام؛ فابن القيسرانيّ يورد الصّورة المنفّرة التالية لمقتل ذلك القائد[4]:

(1) البغدوين (بلدوين الثالث BALDWIN III) ملك بيت المقدس 538-559هـ. انظر:
Jean Richard, The Kingdom of Jerusalem, Translated by Janet Shirley, New York, 1953, Vol: 1.p.p: 64-65.

(2) الحائن: الأحمق.

(3) صاحب أنطاكية "كان [على حدّ تعبير ابن الأثير] عاتيًا من عتاة الفرنج، وعظيمًا من عظمائهم". انظر: ابن الأثير، الكامل: 11/ 144.

(4) ابن القيسرانيّ، شعره: 154، وللاستزادة انظر: المصدر نفسه: 70-71؛ ابن منير، ديوانه: 212.

وللإبرنزِ فَوْقَ الرُّمْحِ رَأْسٌ ... تُوَسَّدَ والسِّنانُ لَهُ وِسادُ

تُرَجَّلَ للسَّلامِ فَفَرَّسُوهُ ... وليسَ سِوى القَناةِ لَهُ جَوَادُ

غَضيضُ المُقْلَتينِ ولا نُعاسٌ ... وغائِرُها وَلَيْسَ بِهِ سُهادُ

أما أرناط[1] صاحب الكرك والشّوبك الذي خلّف لنفسه ذكراً سيئاً في نفوس المسلمين نتيجة نقضه العهود المبرمة، واعتدائه على قوافل حجيج المسلمين في أثناء الهدنة[2]، فقد لقي هو الآخر – بعدما قتل على يد صلاح الدّين عقب أسره في معركة حطّين سنة 583هـ – شماتة الشّعراء، وسخريتهم من نهايته الفاجعة هذه، وذلك على نحو ما يتبدّى من قول العماد الأصفهانيّ الذي يقدّم لحادثة قتله صورة طافحة بالازدراء والتّحقير[3]:

يا طُهْرَ سيفٍ بَرَى رَأْسَ البرنسِ فَقَدْ ... أصابَ أَعْظَمَ مَنْ بالشِّرْكِ قَدْ نَجِسا

وَغاضَ، إذْ طارَ ذاكَ الرّأسُ في دَمِهِ ... كأنَّهُ ضِفْدعُ في الماءِ قَدْ غَطَسا

ما زالَ يَغْطِسُ مَرْكُوماً بغَدْرَتِهِ ... والقَتْلُ تَشْميتُ مَنْ بالغَدْرِ قَدْ عَطَسا

وتحدّث الشُّعراء – في هذا الإطار – عن قصّة أسر بعض القادة الصّليبيين، ورأوا في عمليّة الأسر هذه إشباعاً لرغبة تائقة للسُّخرية والاستهزاء من العدوّ، ولا سيما أنّ الأسير في هذه الحالة ليس شخصاً "عاديّاً"، وإنّما هو ملك كان له في الأمس القريب صولة وصولجان، وها هو اليوم مكبّل ذليل، لا يملك من أمر نفسه شيئاً. وقد تجسّد مثل هذا الموقف على لسان ابن القيسرانيّ الذي صوّر واقعة أسر جوسلين الثّاني سنة 545هـ

(1) البرنس أرناط، صاحب الكرك، أسر في معركة حطين سنة 583هـ، وقُتل بيد صلاح الدّين. انظر: ابن الأثير، الكامل: 11/ 470؛ أبو شامة، كتاب الروضتين: 3/ 296.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية: 78.

(3) العماد الأصفهانيّ، ديوانه:229، وللاستزادة انظر المصدر نفسه: 235.

على يد نور الدّين[1]، بهذه الأبيات التي تكشف – بسخرية قاسية – عن سوء واقعه "الجديد" الذي آل إليه[2]:

وَلَمّا نَزَا بالقُمْصِ[3] عُجْبٌ هَوَى بِهِ ... على أُمِّ رَأْسِ البَغْيِ والغَدْرُ عُجْبُهُ

فَأَصْبحَ في الحِجْلَيْنِ[4] يُنْكِرُ خَطْوَهُ ... بَعيْدٌ على الرِّجْلَيْنِ في السَّعْيِ قُرْبُهُ

تُعاقِبُهُ البُشْرى بِأَخْذِ حُصُونِهِ ... فيا عانياً[5] ضَرْبُ البَشائِرِ ضَرْبُهُ

تُناجي عَزازٌ[6] باسمِهِ تَلَّ باشِرٍ[7] ... فَيَلْعَنُهُ لَعْنَ الصَّرِيخِ وسَبُّهُ

فَإِنْ يَكُنِ المقهورُ مَنْ ثُلَّ عَرْشُهُ[8] ... فهذا عَمُودُ الكُفْرِ قد طاحَ طُنْبُهُ[9]

وعن الحادثة ذاتها، عبّر أسامة بن منقذ – بنغمة لا تخلو من تحدٍّ وفخر ظاهرين – عن استباحة المسلمين لملك ذلك القائد وبلاده، بعدما ذهبت بنفسه الظّنون بعيداً[10]:

---

(1) انظر في قصة أسر جوسلين: أبو شامة، كتاب الروضتين: 1/ 246؛ ابن واصل: مفرج الكروب: 1/ 123.

(2) ابن القيسرانيّ، شعره: 78-79.

(3) القُمص: تعريب للفظة اللاتينيّة (comes) وتعني الأمير، انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية: 77 (حاشية رقم 1).

(4) الحِجْل: القيد.

(5) العاني: الأسير

(6) عَزَاز: بليدة فيها قلعة، ولها رستاق شمالي حلب. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 4/ 118.

(7) تلّ باشِر: قلعة حصينة، وكورة واسعة شمالي حلب. انظر: ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 2/ 40.

(8) ثلّ عرشه: هدم ملكه.

(9) الطّنب: الحبل يشد به البيت.

(10) أسامة بن منقذ، ديوانه:252.

وَنَحْـنُ أَسَـرْنا الجَوْسَـلين وَلَـمْ يَكُـنْ ... لِيَخْـشى مِـن الأَيّـام نائبـةً تَعْـرُو
وكـانَ يَظُـنُّ الغِـرُّ أَنّـا نبيعُـهُ ... بِمـال، وَكَـمْ ظَـنٌّ بـهِ يَهْلِـكُ الغِـرُّ
فلمّـا اسْـتَبَحْنا مُلْكَـهُ وَبِـلادَهُ ... وَلَـمْ يَبْـقَ مـالٌ يُـسْتباحُ ولا ثَغْـرُ
كَحَلْنـاهُ، نَبْغـي الأَجْـرَ في فِعْلِنـا بـهِ ... وفي مِثْـلِ مـا قـدْ نالَـهُ يُحْـرَزُ الأَجْـرُ

ولعلّ لحديث أسامة "بضمير الجماعة" ارتباطاً بمكانته الاجتماعيّة؛ فقد كان سيّداً من سادات العرب وأحد أمرائها. وكان – إلى جانب ذلك – بطلاً من أبطال الحروب الصّليبيّة، وأحد المشاركين في بعض جولاتها[1]؛ فكأنّه بذلك يريد أن يؤكّد لنفسه – كما يتّضح من الأبيات السّابقة – هذا الدور في تسيير الأمور والتّأثير فيها.

وصوّر الشعراء خيبة توقّعات بعض أولئك القادة الذين دفعهم غرورهم إلى آمال عريضة" لم تقف بهم عند حدّ، فإذا هي تتمخّض – بعد ملامستها الواقع – عن نتائج عكسيّة لا تسرّ. وقد عبّر عبد المنعم الجلياني عن شيءٍ من هذا في معرض سخريته من الكند[2]، ملك بيت المقدس الذي أُسِرَ في معركة حطّين، يقول[3]:

وَقَـدْ أَقْطَـعَ الكِنْـدُ العـراقَ مُوَقَّـعا ... فـأُودِعَ سـجْناً وَسْـطَ جِـلَّقَ مؤصَـدا
وَأَقْـسَمَ أَنْ يَـسْقي بدجلـةَ خَيْلَـهُ ... فَـما وَرَدَ الأُردنَّ إلاّ مُـصَفَّـدا
فَكَـمْ واثِـقٍ خَجْـلانَ قَهْقَـهَ خَـصْمُهُ ... وَكَـمْ سـائقٍ عَجْـلانَ قَهْقَـرَ مقعـدا

---

(1) جمال الدين الألوسي، أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبيّة، مطبعة أسد، بغداد، 1967م.

(2) الكند (جي دي لوزنان Guy delusignan) ملك بيت المقدس من 582-583هـ. من قادة معركة حطّين وأسر فيها. انظر:
Zoe Olden Bourges, The Crusades, London, 1966, p.p:190-197. نقلاً عن: شفيق الرّقب، الشّعر العربيّ في بلاد الشّام: 378 (الملحق رقم 2).

(3) الجليانيّ، ديوان المبشرات:140.

أتى الكِنْدُ مِنْ إسبانَ يَحْمِي قمامةً فكانَ تقضّي مُلْكِهِ قبل يُبْتَدى

وحين أسر لويس التاسع ملك فرنسا في معركة المنصورة سنة 648هـ، وسجن بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء، بعد أن هزم جيشه شرّ هزيمة، يجد ابن مطروح في هذه الحادثة مناسبة للتّعبير عن سخريته من خيبة آمال ذلك الملك الذي لم يقدّر الأمور حقّ قدرها، فآلت حاله إلى الضّياع والخسران[1]:

قَدْ جِئْتَ مِصْراً تَبْتَغي مُلْكَها تَحْسبُ أنَّ الزَّمْرَ – ياطَبْلُ- رِيحْ
فَساقَكَ الحَيْنُ إلى أدْهَمٍ ضاقَ بِهِ عَنْ ناظريكَ الفَسِيحْ[2].
رُحْتَ وَأصْحابُكَ أوْدَعْتَهُمْ بِحُسْنِ تَدْبِيْرِكَ بَطْنَ الضَّرِيحْ!
خَمْسون ألفاً لا يُرى مِنْهُمُ إلا قتيلٌ او أسِيرٌ جَرِيحْ
فَرِدَّكَ اللهُ إلى مِثْلِها لعلَّ عيسى مِنْكُمُ يَسْتَرِيحْ
وقُلْ لَهُمْ إنْ أضْمَرُوا عَوْدَةً لأخْذِ ثارٍ أو لقصدٍ صحيحْ
دارُ ابنِ لُقْمانَ على عَهْدِها والقَيْدُ باقٍ والطّواشي صَبيحْ[3].

وفي الأبيات سخريّة مؤثّرة، تكشف – فيما يبدو – عن قدرةٍ وتمرُّسٍ في هذا الفنّ من القول؛ فانظر – مثلاً – إلى التهكم في قوله: "أودعتهم بحسن تدبيرك ..." وإلى الدّعاء الذي خرج عن مقصده في: "فردّك الله إلى مثلها..."، ثمّ المفارقة التي تجسّدت من خلال تصوير النّهاية التي انتهى إليها كلّ من الملك وجيشه الضّخم.

---

(1) ابن مطروح، شعره: 49-50.

(2) الحين: الهلاك، أدهم: قيد.

(3) من خدم الملك الصالح أيوب، عُهِدَ إليه بحراسة ملك فرنسا لويس التاسع حينما أسر وأودع السّجن في دار القاضي ابن لقمان. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 6/ 366.

4

وكان للمعركة وما ارتبط بها من أحداث ونتائج، دور في إذكاء قرائح الشّعراء، وشحذها على القول، ولا غرابة في ذلك؛ فقد كانت المعارك – وما تزال – مجالاً خصباً للإشادة بالنّفس، والغضّ من قدر العدوّ على حدّ سواء. وسأكتفي – انسجاماً مع المنهج المرسوم لهذه الدّراسة – بالحديث عن بعض المضامين الهجائيّة التي أوردها الشّعراء في التّعريض بأعدائهم، والسّخرية منهم في هذا الإطار.

فمن المعاني البارزة هنا، تصوير ضخامة جيوش الغزاة، وإظهار ما كانت تتمتّع به من إعداد وقوّة. وقد بالغ الشّعراء – أحياناً – في هذا المعنى، وليس مثل هذا الأمر بجديد؛ فقد اعتاد الشّاعر العربيّ – من قبل – الإشادة بشجاعة أعدائه، وإبرازهم في موقف القوّة لا الضّعف[1]؛ لأن في مثل تلك الإشادة – فيما يقدّر الشّاعر – إعلاءً لشأن الذّات القويّة التي لا ترضى إلا بمناجرة ندّ قويّ مثلها. غير أنّ الشّاعر ما إن يمضي شوطاً في هذا الاتّجاه، حتّى يأخذ الحديث لديه منحى آخر، يعكس – من خلاله – ما كان ينتظر أولئك الأعداء من مصير فاجع، ونهاية قاتلة، على يد البطل المسلم الذي أكثر الشّعراء – في هذه الفترة – من تمجيده والتّغني بمآثره[2]. ومن النّماذج المعبّرة هنا أبيات للرّشيد النابلسيّ من قصيدة بمناسبة فتح بيت المقدس، صوّر فيها قوّة الأعداء التي لم

---

(1) انظر تفصيلاً عن هذا الموضوع في: عبد السلام المحتسب، القصائد المنصفات في الشّعر العربيّ (من العصر الجاهليّ إلى آخر العصر الأموي) رسالة ماجستير مخطوطة، الجامعة الأردنية، 1992م.

(2) حول صورة البطل في شعر هذه الفترة، انظر:

- محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبيّ في شعر ابن القيسرانيّ: 155-160.
- عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصّليبيّة: 99-131.
- مصطفى عليان، صورة البطل والتصوّر الإسلاميّ في شعر الحروب الصّليبيّة، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والتراث، م11، ع4، الجامعة الأردنية، 1984م: 159-177.

تفعل الكثير مع البطل/ صلاح الدّين الذي "لم يغنهم بأس ولا وزر" معه، فصيّرهم – بعد ما كان لهم من قوّة وشأن – "موعظة وحديثاً يتلى على الورى، يقول[1]:

يَـوْمٌ بـهِ التـأمَ الكُفّـارُ في عَـدَدٍ ... جَـمٍّ ولكـنْ لِكَسْـرٍ لَيْـسَ يَنْجَبِـرُ

جاءوا كمـا أقبـلَ الطَّـوْدُ الأشَـمُّ لَـهُ ... مِنْ حيثُ مـا سِرْتَ فيـهِ مَسْلكٌ وَعِـرُ

وَجِئْتَهُمْ مِثْلَمـا انقـضَّ القـضاءُ فـلا ... واللهِ لَمْ يُغْنِهِـمْ بَـأسٌ ولا وَزَرُ

تُرِكْتَ أرْضَـهُمُ مِـنْ طُـولِ ما عَمَرتْ ... مِـنْهُمْ بَلاقِـعَ لا أنثـى ولا ذَكَـرُ

نَقَـضْتَ مـا أبرمُوا،أبْرَمْـتَ مـا نَقَـضُوا ... عَمَـرْتَ مـا هَـدَّمُوا، هَـدَمْتَ مـا عَمَـرُوا

أضْحى بنو الأصْفَرِ الأنكاسِ موعظـةً ... فيهـا لأعْـدائِكَ الآيـاتُ والنُّـذُرُ

صـارُوا حـديثاً، وكـانُوا قَبْـلُ حادِثَـةً ... علـى الـوَرَى يتّقيهـا البَـدْوُ والحَـضَـرُ

وتبدو مثل هذه الصّورة واضحة – أيضاً – لدى فتيان الشّاغوريّ، من قصيدة له في المناسبة ذاتها. وقد تمكّن فتيان في أبياته هذه – بما وفّر لها من تصوير مفعم بالحيويّة – أن يجسّد المشهد على نحو معبّر[2]:

جـاشَتْ جُيـوشُ الـشِّرْكِ يَـوْمَ لَقِيْـتَهُمْ ... يَتَـذامَرُونَ علـى مُتُـونِ الـضُّمَّرِ

وَكَـأنّهُمْ بَحْـرٌ تُدافِـعُ مَـوْجَهُ ... يِطُبـيٌ وَزُغْـفٍ مُحْكَـمٍ وسَنَوّرِ[3]

أوْرَدْتَ أطْـرافَ الرِّمـاحِ صُـدُورَهُمْ ... فـوَلَغْنَ في عَلَـقِ النَّجيـعِ الأحْمَـرِ

فَهُنـاكَ لَـمْ يُـرَ غَيْـرُ نَجْـمٍ مُقْبـلٍ ... في إثْـرِ عِفْريـتٍ رَجِيْـمٍ مُـدْبِرِ

(1) الحنبلي، شفاء القلوب: 166-167.

(2) فتيان الشاغوريّ، ديوانه: 143- 144؛ وفي المعنى نفسه انظر: العماد الأصفهانيّ، ديوانه: 234-235.

(3) الزّغف: الدرع الواسعة الطويلة، والسّنوّر: لبوس من سَيْر يُلبَس في الحرب كالدرع.

ومن الطبيعيّ أن يتناول الشّعراء- وهم في إطار الحديث عن المعركة وأجوائها – قتلى أعدائهم. وقد تبدّى جانب من ذلك عند الحديث عن تعريض الشّعراء بمقتل ملوك الفرنج. وهنا استكمال للجانب الآخر، وهو تصوير مشاهد القتل الجماعيّ الذي تعرّض له أفراد وجنود من جيوشهم. وقد اتّخذ هذا الحديث صوراً من السّخرية المطبوعة بفيض من المشاعر السّاخطة التي وجدت في هذه النّهاية القاسية لهؤلاء الغزاة، جزاء عادلاً على ما اقترفوه في حقّ سكان هذه البلاد من جرائم وتعدّيات؛ فالعماد الأصفهانيّ، يصوّر – بشيء من البهجة والرّضا – جيوش صلاح الدّين، وهي تغادر أرض المعركة، مخلّفة وراءها أشلاء من القتلى التي قُدّمت ضيافة للنّسور الضّارية[1]، وفتيان الشّاغوريّ يصوّر قتلاهم وقد باتوا نُهباً للسّباع ... من كلّ ذي ناب، وصاحب مِنْسر[2]، أما ابن الدّهان فيعبّر عن هذا المعنى بصورة لها حضورها في الشّعر القديم؛ وذلك حين يقول مخاطباً صلاح الدّين[3]:

..كَمْ وَقْفَةٍ لكَ في الوَغى مَحْمُودَةٍ   أبداً، وَكَمْ جُوْدٍ حميدِ المَوقعِ

والطّيرُ من ثِقَةٍ بأكلِ مُشْبعٍ   تَبعَتْ جُيوشَكَ فَوْقَ غابٍ مُسْبعِ

وعرض الشّعراء – في هذا الاتّجاه – صوراً لأسرى الفرنج وسباياهم، وكانت نبرة التّشفيّ والازدراء واضحة على مجمل تلك الصّور؛ فقد أسعد الشّعراء – مثلاً – رؤية أعداد من الأسرى المكبّلين[4]، وأسعدهم – كذلك – أن يروا أعداداً أخرى وهم يباعون أسراباً كعصافير جُرّدت من ريشها[5]، وإمعانا في السّخريّة والتّحقير، يصوّر

---

(1) العماد الأصفهانيّ، ديوانه:309.

(2) فتيان الشاغوريّ، ديوانه: 144.

(3) ابن الدهان، ديوانه: 32-33.

(4) المصدر نفسه : 44؛ وفي المعنى نفسه انظر: الحنبلي، شفاء القلوب: 166.

(5) الجليانيّ، ديوان المبشرات:141.

العماد سباياهم كالبضاعة الكاسدة التي عرضت في الأسواق، ولم تجد لها شارياً لكثرتها[1]:

.. سبايا، بلادُ اللهِ مملوءةٌ بها   وَقَدْ شُرِيتْ بَخْساً وَقَدْ عُرِضَتْ نَخْسا

يُطافُ بها الأسواقَ لا راغبٌ لها   لِكَثْرَتِها، كَمْ كَثْرَةٍ تُوجِبُ الوَكْسا[2]

وتتبدّى السّخرية – في هذا المعنى – على نحو أوضح لدى فتيان الشّاغوريّ الذي يكشف عن جانب من المفارقة تمثّل في تصويره جمال سبايا الفرنج السّافر الذي قوبل بأبخس الأثمان وأحقرها، يقول[3]:

..حتّى لَقَدْ بيعتْ عَقائِلُ أُرْهِقَتْ   بالسَّبْي بالثَّمنِ الأَخَسِّ الأَحْقَرِ

مِنْ كُلِّ حُوريٍّ ضئيلِ موشَّحٍ   كالغُصْنِ ميّاداً ثقيلِ مؤزَّرِ

وأوانسٍ مِثْلِ الشُّموسِ سوافراً   مِنْ كاعبٍ مِثْلِ الغزالِ ومُعْصِرِ

أمّا ابن رواحة الحمويّ[4]، فيرسم صورة طريفة لأسرى الفرنج وسباياهم الذين يثير لقاؤهم مع بعضهم بعضًا – في موقف الذّل هذا – مزيداً من المشاعر المؤلمة في نفوسهم، وذلك إذ يقول متحدّثاً عن صلاح الدّين[5]:

لَقَدْ جَلَبَ الجواري بالجواري   يَمِدْنَ بِكُلِّ قَدٍّ مُرْجَحِنِّ

يَزيدُهُمُ اجْتِماعُ الشَّمْلِ بُؤْساً   فَمَرْنانٌ تُنوحُ على مُرِنِّ

(1) العماد الأصفهانيّ، ديوانه:235.

(2) الوكس: البخس في الثمن.

(3) فتيان الشاغوريّ، ديوانه: 144.

(4) هو الفقيه أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاري الحموي، توفي سنة 585هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): 1/ 481؛ الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 376.

(5) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (قسم الشّام): 1/ 495.

فما مِنْ ظبيةٍ تُفْدَى بلَيْثٍ ولا لَيْثٌ فدى رشأٍ أغَنٌّ

زَهَتْ إسكندريّةُ يَوْمَ سِيقُوا ودمياطٌ فما مُنيا بِغَبْنِ

ومما يرتبط بهذا الهجاء، تصوير حالات الرّعب والهلع التي لقيت طريقها إلى نفوس الأعداء. وقد وجد الشّعراء في هذا الجانب مجالاً لإثارة كثير من صور التّعريض والاستهزاء. وربما وجدوا فيه أيضاً "تشجيعاً للمسلمين، وترسيخاً للاعتقاد بأنّ رعاية الله تحوطهم حيثما توجّهوا"[1]، ولذا فإنّ قلوب أعدائهم يسكنها الخوف والفزع حال ذكر اسم أحد قادة المسلمين، على نحو ما يذهب عبد المنعم الجلينانيّ حين يقول[2]:

وإنّما اسمُ صلاحِ الدّين يُذكَرُ في جَيْشِ العَدوِّ فيسبيهم تَخيُّلُهُ

وفتيان الشّاغوري بقوله في صلاح الدّين أيضاً[3]:

مَتَى عايَنَتْهُ المُشْرِكُونَ تَقَطَّعَتْ لِهَيْبَتِهِ أكبادُهُمْ والمفاصِلُ

ويبدو – كذلك – التأكيد واضحاً على أهمية العامل النّفسيّ في حروب المسلمين مع أعدائهم من خلال قول ابن القيسراني في ممدوحه نور الدّين[4]:

وإذا سرايا خَيْلِهِ قَفَلَتْ نَهَضَتْ سرايا الخوفِ والذُّعْرِ

ومن النّماذج التي سرت فيها روح السّخرية، أبيات لأسامة بن منقذ، جسّد – من خلالها – حالات من الوهم التي كانت تتملّك الصّليبيين عند ملاقاتهم جيوش صلاح الدّين، يقول[5]:

(1) شفيق الرّقب، الشّعر العربيّ في بلاد الشّام: 103.

(2) الجلينانيّ، ديوان المبشرات: 146.

(3) فتيان الشاغوريّ، ديوانه: 319، وفي المعنى نفسه انظر: العماد الأصفهانيّ، ديوانه: 242، 412-413 .

(4) ابن القيسرانيّ، شعره: 229.

(5) أسامة بن منقذ، ديوانه:241.

..والـذي لَـمْ يَحِـنْ[1] بِـسَيْفِكَ مِـنْ خَـوْ ... فِـكَ أمْـسى وَعَـقْلُهُ مَخْبُـولُ

مثَّـلَ الخَـوْفُ بَـيْنَ عَيْنَيْـهِ جَـيْـشاً ... لَـكَ في عُقْـرِ دارِهِ مـا يَـزولُ

فـالرُّبى عِنْـدهُ جُيُـوشٌ وجَـيْشُ الـ ... ـبَحْرِ في كُـلِّ لُجَّـةٍ أسْطُـولُ

وتلتقي أبيات الرّشيد النّابلسيّ مع الأبيات السّابقة في قدرتها على نقل حالة الخوف والرّهبة التي انتابت جيش الفرنج؛ حتى بات أفراده في أوضاع نفسيّة مأزومة تكشف عن معاناة واضحة، وإحساس بوقع الزّمن فاتر، كما يذهب الشّاعر من قصيدة له في مدح صلاح الدّين[2]:

..بِعُيُـونٍ بِـيْضٍ يَـرُونَ بهـا الأ ... يّـامَ مُـسْوَدَّةً تَـرَى اللّـونَ حَلْكـا

بِهِـمُ يـا هُمـامُ قَـدْ ضاقَـتِ الأرْ ... ضُ فَأوسَعْتَهُـمْ بَـواراً وهلكـا

أيْقَنُـوا بـالبَوارِ مِنْـكَ وَقَـدْ كـا ... نَ يَقِـيْنُ الأوْغـادِ مِـنْ قبـلُ شكّـا

ويستغرق تصوير هزائم الفرنج حيّزاً من الشّعر المرتبط بالمعركة، فقد دفعت نشوة النّصر الشّعراء إلى الوقوف عند الهزيمة التي وظّفوا كثيراً من صورها السّاخرة في التّعريض بأعدائهم؛ فأشجع القوم هو – في الغالب – من يؤثر الفرار قبل غيره[3]، والمنهزم يولّي مدبراً والرّماح تنوشه بأطرافها[4]، والقوم وقت المواجهة باتوا وقد[5]:

..خـانَهُمْ ذلـكَ الـسِّلاحُ فَـلا الرُّمْـ ... ـحُ تَثَنَّـى ولا المُهنَّـدُ طَـنّا

---

(1) حان: هلك.

(2) الحنبلي، شفاء القلوب: 165.

(3) العماد الأصفهانيّ، ديوانه: 431؛ ابن الدهان، ديوانه: 44.

(4) ابن قسيم الحمويّ (مسلم بن الخضر- 542هـ)، ديوانه، جمع ودراسة وتحقيق: سعود عبدالجابر، ط1، دار البشير، عمان، 1995م: 226؛ ابن عنين؛ ديوانه: 30.

(5) ابن سناء، ديوانه: 816.

وتَولّتْ تلكَ الخُيولُ فكمْ يُثْـ ـنى عليها بأنّها لَيْسَ تُثْنى

واسْتَحالَتْ شَقَاشِقُ الكُفْرِ صَمْتًا حِيْنَ عادَتْ تِلكَ الشَّجاعةُ جُبْنًا

أشْجَعُ القَوْمِ فِيهِمُ جاعِلُ الدِّرْ عِ هُرُوباً أو الفِرارِ مِجنَّا

بل لقد بلغ الأمر بالمنهزمين إلى التّخلّي عن رموز عقائدهم، وتركها وراءهم في سبيل النّجاة، على نحو ما يصوّر ذلك ابن القيسرانيّ، في قوله[1]:

..فَغادَرُوا أكْثرَ القُرْبانِ وانْجَفَلُوا وخَلَّفُوا أكْبَرَ الصُّلْبانِ وانْهزَمُوا

وَحاوَلُوا المَسْجِدَ الأَدْنى فَما عَبَرتْ عَنْ مَسْجِدِ القَدَمِ الأَقْصى لَهُمْ قَدَمُ

مُسْتَسْلِمِينَ لأَيْدي المُسْلِمينَ وَقَدْ أغْرى القَنا بِتَمادِي خَطْفِهِمْ نَهَمُ

5

وظهر إلى جانب الأنماط الهجائيّة السّابقة، لون آخر تمثّل في هجاء المدن الإسلاميّة الواقعة تحت نير الاحتلال الصّليبيّ. وقد سبق أن تطرّق البحث في باب الهجاء الاجتماعيّ إلى مواقف مختلفة في هجاء المدينة، غير أنّ ذلك الهجاء كان يعود – كما تبيّن – إلى عوامل اجتماعيّة وشخصيّة متعدّدة، اتّخذ موقف الشّاعر تجاهها نبرة من الاحتجاج وعدم الرّضا. إضافة إلى كون الشّاعر يعرّض فيه بمدينة تقع في حوزة الدّولة الإسلاميّة، في حين أنّ هذا اللّون من الهجاء مختلف في دوافعه وأسبابه التي انطلقت – أساساً – من قضيّة الصّراع الإسلاميّ الصّليبيّ، ولذلك نجد الأثر الدّينيّ فيه بارزاً؛ فالقارئ لهذا الهجاء يلاحظ أنّه قد تضمّن كثيراً من المعاني الدّينيّة التي من شأنها أن تستثير العاطفة، على نحو ما يتّضح لدى عبد المنعم الجليانيّ الذي يصوّر مدينة غزة المحتلّة بقوله[2]:

---

(1) ابن القيسرانيّ، شعره : 359.

(2) الجلياني، ديوان المبشرات: 127.

وَغَـزَّةٌ غُـرَّةُ الكُفْـرِ الّـذي وَطِـــئتْ جَبِيْنَـهُ الغُـــزُّ لَـمْ يَتْـرُكْ لهـا أثَـرُ

ســالَ الحــراماان فيهــا مـائرين معـــاً دَمٌ وَخَمْـــرٌ ولا كُفـرٌ ولا سَــكَرُ

وأُضْــرِمَتْ لَهبًـا فِيْــهِ العِـــدى جُثَثـًا كأنّهــا، وَهُــمْ يَـصْلَـونَها سَـــقَرُ

ولعلّ لمثل هذا الوصف ارتباطاً بمشاهدات الشُّعراء، لما كـان يجـري في تلـك المـدن من سلوكيّات وقيم لسكانها الصّليبيين، مخالفة لكثير من تصوّرات المسلمين وقيمهم[1].

ويتّخذ هذا الهجاء طابعاً تحريـضيّاً، حـين يـصوّر الـشّاعر – مـن خلالـه – ضـراوة مقاومة تلك المدن لمحاولات المسلمين المتكـرّرة لاسـتردادها. وتبـدو فيـه كـذلك نـبرة مـن التّشفّيّ والشّماتة، بما أخذت به هذه المدن من شـدّة وقـسوة، نتيجـة عنادهـا واسـتكبارها. وقد تبدّى شيءٌ من هذا في أبيات لابن القيسرانيّ من قصيدة له بمناسبة فـتح عمـاد الـدّين للرّها سنة 539هـ يقول[2]:

أتَـــرى الرُّهــا الوَرهــاءَ يَــومَ تَمَنّعَــتْ ظَنَّـتْ وُجـوبَ الـسُّور سَـوْرَةَ لاعِـبِ[3]

فَـتَحَ الـضِّرامُ المُـصْطَلى لِـــعُلوجِها بابـاً إلـــى جَمْـــرِ الجَحيمِ الذّاهــبِ

بـــاتُوا أســاطينَ الـضُّلال وأصبحُــوا هَــدَفاً لقاذفــةِ العَـــذابِ الوَاصِـــبِ[4]

ويكرّر الشّاعرُ نفسُه، في أبيات أخرى، صورةَ هذه المدينة التي لم تُجْدِ مقاومتها نفعـاً أمام إصرار عماد الدّين، وشدّة بأسه[5]:

---

(1) أسامة بن منقذ، الاعتبار: 174–175؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير: 249،251.

(2) ابن القيسرانيّ، شعره: 111.

(3) الورهاء: الحمقاء. السّوْرة: الوثبة.

(4) الأساطين: الدعائم، الواصب: الدائم الموجع.

(5) ابن القيسراني، شعره: 146– 147.

مدينـةُ إفْـكٍ مُنْـذُ خَمْسِينَ حِـــــجَّةً يَفـلُّ حديـدَ الهِنْـدِ عَنْهـا حـــداذُهُ[1]

تَفُـوتُ مَـدى الأَبْـصارِ حتّـى لـو انّهـــا تُرَقَّـتْ إليـهِ خـــانَ طَرْفًـا سَـــوادُه

وجامحـةٍ عـزَّ المُلـوكَ قيـــادُهــــا إلى أنْ ثَنــاهـــا مَـنْ يَعِـزُّ قِـــيادُه

فَأَوْسَـعَها حـــرَّ القِـــراعِ مؤيَّـــدٌ بـصـيرٌ بتمـرينِ الألـــدُّ لـدِادُه[2]

كـأنّ سـنا لَـمْـعِ الأَسـنَّةِ حَوْلَــــهُ شـرارٌ ولكـــنْ في يَدَيْـــهِ زِنــــادُه

فَأَضْــرَمَها نـــارَيْن: حَرْبـــاً وَخِـــدْعَةً فمـا راعَ إلا سورُهــــا وانهــــدادُه

وواضح أنّ الشاعر قد زاوج في أبياته بين الإشادة بقوّة ممدوحه من خلال تـضخيم صورة المدينة المتمنّعة في موقفها، وبين التّعبير عن مشاعره الغاضبة تجاه تلـك المدينـة، حـين أبدى فرحه الظّاهر بما انتهت إليه من مصير.

وتقترب الصّورة التي يرسمها بدر الدّين المنبجي[3] لمدينـة عكّـا، حينمـا تمّ تحريرهـا على يد الأشرف خليل سنة 690هـ، من الصّور السّابقة؛ وذلـك حـين يـصوّر مـا أصـابها من ذلّ وخراب بهذه النّشوة والتّشفّي البالغين[4]:

فَأَصْـبَحَتْ بَعْـدَ عِـزِّ المُلْـكِ خاضِـعَةً مِـنْ ذُلَّـةِ المُلْـكِ طُـولَ الدَّهْـــرِ في سَـمَلِ

فَـسَلْبُ بِزَّتِهـا عَنْهـا وَقَـــدْ عَطُلَـــتْ ألَـــذُّ للطَّـرْفِ مِـنْ حَـــلي ومـن حُلَـلِ

---

(1) الإفك: الإثم.

(2) الألد: الخصم الجدل.

(3) هو محمد بن عمر... المثنى المنبجي، ولد قبل سنة 650هـ، توفي بمصر سنة 723هـ. انظر: ابـن حجـر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (ت852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد جـاد الحق، ط2، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1966م: 4/ 220.

(4) ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم (ت807هـ)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قـسطنطين زريـق ونجـلا عزالدين، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1939م: 8/ 115.

وَمَحْـو آثارِهـــا مِنهـــا وَقَـــدْ خَرِبـتْ   أشْهى إلى النَّفسِ منْ روضِ الرُّبى الخَضَلِ

ويبدو أنّ هذا النّمط من الهجاء يشكّل جانباً من الصّورة التي بدت عليها المدينـة في أدب الحروب الصليبيّة[1]، فمن الواضح أنّ هذه الصّورة متأثرة بحال تلك المدن المحتلّة مـن الصليبيين؛ فكأنّ هذه المشاعر السّاخطة التي صبّها الـشُّعراء علـى هـذه المـدن الإسـلاميّة المحتلّة – على نحو ما بدا من مجمل النّماذج السّابقة – ما هـي إلاّ انعكـاس لما كـان يبطنـه هؤلاء الشّعراء من كره لمحتلّي هذه المدن، بعد أن طال العهد على استردادها من أيديهم.

2- هجاء المغول

استجلاء لملامح الصّورة التي رسمهـا الـشّعراء لأعـدائهم، لا بـدّ مـن الإشـارة إلى شيء من الـشّعر الـذي ورد في هجـاء المغـول(التتـار)؛ إذ مـا إن كـادت صـفحة الـصّراع الإسلاميّ الصليبيّ تطوى من بلاد الشّام، حتى تعرّضت – من جديـد – لغـارات مغوليّـة شرسة، جاءتها – هذه المرّة – من الـشّرق، بعـد أن اجتاحـت بغـداد، وأسـقطت الخلافـة العباسيّة فيها سـنة 656هـ[2]. وكانـت مدينـة حلـب أولى المـدن الـشّامية الـتي وقعـت في أيديهم سنة 658هـ[3]، ثمّ ما لبثوا أن استولوا على مدينة دمشق في السنة ذاتها[4]. غـير أنّ ميزان القوى ما لبث أن تحوّل – بعد ذلك – لـصالح المـسلمين، حـين تمكّنـوا مـن إحـراز عدد من الانتصارات الهامّة التي كان من أعظمها انتصار المـسلمين المـؤزّر في معركـة عـين

---

(1) لاستكمال هذه الصورة انظر مثلاً: شفيق الرقب، الشعّر العربّي في بـلاد الـشّام في القـرن الـسادس الهجريّ:288-291؛ نزار اللبدي، صورة فنّ الحرب في أدب الـدولتين الزنكيـة والأيوبيـة في مـصر والشام، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأردنية، 1992م: 160-162.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية: 13/ 213.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية: 13/ 231؛ المقريـزي، أحمـد بـن علـي (ت845هــ)، الـسلوك لمعرفـة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، ط2، لجنة التأليف والنشر، القـاهرة، 1957م: ج1 ق1: 422.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية: 13/ 232؛ المقريزي، السلوك: ج1 ق2: 423-424.

جالوت الحاسمة سنة 658هـ بقيادة سلاطين المماليك[1]، وانتصارهم في موقعة حمص سنة 659هـ[2]، وانتصار الظّاهر بيبرس على فرقة من جيشهم في موقعة الفرات سنة 671هـ[3]، ثمّ الانتصار الذي حقّقته جيوش المسلمين بقيادة السلطان قلاوون سنة 680هـ[4]. وكان لهذه الانتصارات أثرها في تعزيز ثقة المسلمين بأنفسهم، بعدما بلغ بها الخوف والرّعب مبلغاً عظيما[5].

وعند النّظر في الشّعر الذي قيل في ذمّ المغول وهجائهم، يلاحظ اتّفاق أغلب مضامينه مع الشّعر الذي قيل في هجاء الصّليبيين؛ فقد عرّض الشّعراء بأعدائهم، ووصموهم بأقذع الأوصاف، وسخروا من قادتهم، وأطالوا الوقوف عند هزائمهم التي لقوها على أيدي المسلمين. ففي هجاء قادتهم وأبطالهم – مثلاً – يطالعنا قول شرف الدّين الأنصاريّ من قصيدة له في مدح المنصور الثاني[6]، بمناسبة انتصار المسلمين في موقعة حمص سنة 659هـ يقول[7]:

---

(1) حول معركة عين جالوت، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية: 13/ 233؛ المقريزي، السلوك: ج1 ق2: 429-431؛ وعين جالوت بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: 4/ 177.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية: 13/ 243؛ المقريزي، السلوك: ج1 ق2: 442؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 7/ 201.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية: 13/ 278؛ المقريزي، السلوك: ج1 ق2: 606.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية: 13/ 312؛ المقريزي، السلوك: ج1 ق3: 692.

(5) مأمون جرّار، أصداء الغزو المغوليّ في الشعر العربيّ (من القرن السّابع إلى القرن التاسع للهجرة)، ط1، مكتبة الأقصى، عمان، 1983م: 209-216.

(6) هو الملك المنصور محمد بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيّوب، تملّك حماة بعد وفاة أبيه، توفي سنة 683هـ. انظر: اليونيني، موسى بن محمد (ت726هـ)، ذيل مرآة الزمان، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد، الهند، 1961م: 4/ 236.

(7) ابن شرف الأنصاريّ، ديوانه:557، وللاستزادة انظر المصدر نفسه: 270، 475.

قَيَّدْتَ أَبْطالَ التَّتارِ بِصَوْلَةٍ ... تَرَكَتْهُمُ كالصَّيْدِ في الأَشْراكِ

..فالطَّعْنُ والطَّاعونُ أَسْلَمَهُمْ إلى ... حربٍ كَأَشْداقِ المَخاضِ دِراكِ

بَرَّدْتَ أكْبادَ الوَرَى بقواضبٍ ... قُذِفَتْ عَلَيهِمْ كالضِّرامِ الباكي

أَضْحَكْتَ سِنَّ ثُغورِنا مِنْ بَعْدِما ... ظَفِرُوا بِها فَبَكى عليها الباكِي

غادَرْتَهُمْ صَرْعَى كَأَنَّ كُماتَهُمْ ... في المَرْجِ صَرْعى مِنْ سُلافِ "حُناك"[1]

وفي التّعريض بهزائمهم، تبدو الصّورة أكثر جلاء؛ فقد أكثر الشّعراء من الحديث عن هذا الجانب؛ ولعلّ ذلك كان بسبب من كثرة الهزائم التي منيت بها جيوش المغول في هذه الفترة. ومن الشّواهد التي يمكن إيرادها – هنا – أبيات لشهاب الدّين العَزازيّ[2]، يَظْهَرُ فيها اتّكاؤه الواضح على معلّقة عمرو بن كلثوم المشهورة: "ألا هُبّي بصحنِك فاصْبحينا..."، واستيحاؤه – فضلاً عن محاكاة وزنها وقافيتها – كثيراً من معانيها وألفاظها، يقول[3]:

فَفَرَّقْنا جُمُوعَهُمُ وَسُقْنا ... مُلُوكَهُمُ الأكابرَ صاغِرينا

وَقاتَلْنا جُيُوشَ المُغْلِ حتّى ... شَفَيْنا مِنْهُمُ الدَّاءَ الدَّفينا

فَوَلَّتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ يَساراً ... وَفَرَّتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ يَمِينا

وسُقْنا خَلْفَهُمْ حتّى أعَدْنا ... جِيادَ الخَيلِ واقِفَةً صُفُونا

---

(1) حناك: بالضمّ، حصن مكين بمعرة النعمان، يرد ذكره في شعر الغزل لدى شعراء المعرّة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: 2/ 309.

(2) هو أحمد بن عبد العزيز الشهاب العزازي، شاعر ووشاح، توفي سنة 710هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 95؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 9/ 214.

(3) شهاب الدّين العزازي، ديوانه، مصوّرة عن النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية القوميّة، رقم 282، شعر تيمور: 67، وللاستزادة انظر المصدر نفسه : 71.

أخـذْنا ثـأرَ بغـدادٍ وعُجْنـا ... علـى حَلَـبٍ وميّافـارقينـا

وَمـا زِلْنـا نُطـالِبُهُـمْ إلى أنْ ... قَـضَيْنا مِـنْ مُلوكِهُـمُ الدُّيونـا

ويصوّر محيي الدّين بن عبد الظاهر[1] من قصيدة له في مدح سيف الدّين قلاوون إثر هزيمة التتار في نوبة حمص سنة 680هـ، ما أسفرت عنه هذه الواقعة من نتائج كانت عواقبها على العدوّ وخيمة[2]:

فكـانَ أسلمهُـمْ مَـنْ أسـلموه لأنْ ... يقـودُهُ القَـيْدُ أو يَسْري بـه الأَسْرُ

وَراحَ فارِسُـهُمْ في إثْـرِ راجِلِهِـمْ ... يَنْتابُـهُ الـوَحْشُ أو ينبـو بِـهِ القَفْـرُ

فمـا رعـى مِـنْهُمْ راعٍ مَطيّتَـهُ ... ولا ارعـوى لَهُـمْ مِـنْ رَوْعَـةٍ فِكْـرُ

وتتبدّى في هذا الهجاء صور من السّخرية والاستخفاف، وربّما قصد الشّعراء من وراء ذلك، التّقليل من شأن المغول الذين قصرت آمالهم ومطامعهم عن تملّك بلاد الشّام، والاستيلاء عليها. وقد عبّر ناصر الدّين الكنانيّ[3] عن مثل هذا بأبيات من قصيدة طويلة، نظمها في الإشادة بنصر الظّاهر بيبرس في موقعة الفرات سنة 671هـ. فبعد أن

---

(1) هو محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر المصري، كاتب الإنشاء بمصر، توفي سنة 692هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 8/ 38.

(2) الصفديّ، الوافي بالوفيات: 3/ 368، وانظر أبياتاً مشابهة في هذه الموقعة في: ابن فضل العمري، مسالك الأبصار (مخطوط): 18/ 237.

(3) هو شافع بن علي بن عبّاس...الكناني العسقلاني، ولد سنة 649هـ، سمع الحديث وأتقن الفن والإنشاء، توفي سنة 730هـ. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة: 2/ 81؛ وحول الخلاف في اسمه انظر توجيه مأمون جرار، أصداء الغزو المغولي: 59 (حاشية رقم 27).

كان المغول هم المبادرين في الإغارة على معاقل المسلمين، إذ بالظّاهر هو الذي يبادرهم بالهجوم، ويخوض نهر الفرات، حتى كتب له النّصر عليهم، ومنها قوله(1):

..تَوَهَّمَتِ التّتارُ رَبيعَ مِصْرٍ سَيَمْنَعُ خَيْلَهُ يَوْماً مُغاراً

وكانَ الخَوفُ ألجأها اضْطِراباً وَكَانَ الذُّلُّ أحْوجها اضطرارا

فَلَمّا لَمْ يُجِبْها في سُؤالٍ جَفَتْ مِن أرضِها سَكَناً ودارا

وَنازلَ خَوفُهُ مِنْهُمْ نُفوساً فَذاقَتْ في جُسُومِهِمُ الحِصارا

ولا يتوانى الشّاعر عن إظهار تشفّيه وفرحه بهزيمتهم، بمزيد من الصّور السّاخرة:

وَغَنَّتْ في رِقابِهِمُ سُيُوفٌ فأرْقَصَتِ الهوادجَ والمهارى

طَلَعْتَ عَليهِمُ كالصُّبْحِ يجلو بِطَلْعَتِهِ مِنَ الظُّلَمِ اعْتِكارا

فَلمّا أنْ رأوكَ فَما استَطاعُوا ثباتاً، لا ولا مَلَكُوا اصْطِبارا

وَوَلّوا هارِبينَ بِلا عُقُولٍ وَباتُوا خائفينَ وَهُمْ حَيارى

هذه إشارة وحسب، وليس غرضي أن أستقصي هذا الموضوع، وأطيل من التفصيل فيه وذلك لغير سبب؛ منها أنّ البحث محكوم بإطار زمنيّ محدّد ينتهي في حدود سنة 690هـ (وهي السّنة التي انتهت فيها الحروب الصّليبيّة). والوقوف عند هذه السّنة لن يمكّن الدّارس من تقديم تصوّر وافٍ لصورة المغول التي أبرزها الشّعراء؛ فقد استمرّ هذا الغزو – بعد هذا التّاريخ – فترة طويلة، امتدّت حتى بدايات القرن التاسع الهجريّ. كما أنّ شعر مصر والشّام، لا يقدم وحده استيفاء لمعالم هذه الصّورة وأبعادها المتعدّدة، وإنّما لا بدّ من استقراء شعر الأقاليم الأخرى كالعراق الذي كان لشعرائه دور في

---

(1) ابن عبد الظاهر، محيي الدين (692هـ)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976م: 410؛ وفي التعريض بهزيمتهم في هذه الموقعة انظر أبياتاً أخرى لبدر الدين المهمندار (ت680هـ) في: الكتبيّ، فوات الوفيات: 1/ 239.

تسجيل أحداث هذا الغزو، ورصد أصدائه في النّفوس. ثمّ إنّ دراسات أكاديميّة متخصّصة، قد تناولت هذا الموضوع، وعالجت جوانبه المختلفة بقدر من الاستفاضة والتّفصيل[1].

***

وهكذا يتبيّن أنّ لشعر الهجاء السّياسيّ دوراً ملموساً في تصوير جوانب من الصّراعات السّياسيّة التي شهدتها مصر والشّام في هذه الفترة؛ إذ يستطيع الدّارس – من خلاله – أن يشكّل رؤية واضحة لواقع البلاد السّياسيّ. وبعد استقراء نماذج وافية من هذا الهجاء، يمكن تسجيل الملاحظات التّالية:

-لم يجد الدّارس – في حدود اطّلاعه – هجاء سياسيًّا لسلاطين المماليك الذين عاصروا فترة الحروب الصّليبيّة. ولعلّ من أسباب ذلك، أنّ هذه الفترة قد شهدت مولد سلاطين عظام منهم، من مثل: قطز[2]، والظّاهر بيبرس، والأشرف خليل، الذين تمكّنوا من استئصال شأفة الوجود الصّليبيّ من بلاد الشّام، واجتثاثه من المنطقة نهائياً. وتمكّنوا – أيضاً – من دحر الغزو التتريّ (المغوليّ)، ووضعوا حدّاً لتوسّعه الذي كاد يشمل بلاد الشّام، ويصل – من خلالها – إلى مصر، وربّما إلى أماكن أخرى. وقد كانت دولة المماليك في أوج قوّتها، وكانت تشكّل قوّة عظمى، قامت على أنقاض الدّولة الأيوبيّة المتهالكة. ومن الطّبيعيّ – والحالة هذه – أن يرى النّاس فيها مخلّصاً حقيقيّاً من حالة

---

(1) انظر على سبيل المثال:

- مأمون جرار، أصداء الغزو المغوليّ في الشّعر العربيّ: 181-208.
- رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشّعر العربيّ – العصر المملوكيّ، رسالة ماجستير مخطوطة، الجامعة الأردنية، 1997م.

(2) هو قطز بن عبد الله المُعزّي، قاد معركة عين جالوت الحاسمة ضد التتار (658هـ)، التي حقّق فيها المسلمون نصراً مؤزّراً، قتل بتدبير من بيبرس سنة 658هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 7/ 72؛ الزركلي، الأعلام: 5/ 201.

الضّعف والتّرديّ التي وصل إليها حال المسلمين آنذاك، في حين نجد شيئاً من هذا الهجاء في أواسط عهد المماليك وفي أواخره[1].

-يلاحظ قلّة الهجاء السّياسيّ في الفترة التي امتدّت من تكوين الممالك الصّليبيّة في بلاد الشّام حتى ظهور عماد الدّين زنكي (491-521هـ)؛ بل لقد شهدت هذه الفترة فقراً واضحاً في الشّعر السّياسيّ بصورة عامّة[2].

-انطلق بعض هذا الشعر – فيما يظهر – من مصالح آنيّة، واعتبارات شخصيّة خالصة. ولعلّ الشّعر الذي رافق مرحلة الصّراعات الوزاريّة في مصر في أواخر العهد الفاطميّ، يقع أغلبه في هذا الباب. في حين نحسّ بقدر أكبر من "الالتزام" في الشّعر الذي آزر الجهود الإصلاحيّة لكلّ من نور الدّين، وصلاح الدّين. وسفّه – في المقابل – الخارجين عليهما، أو في الشّعر الذي قاوم الصّليبيين، وعرّض بهم. ولا غرابة في ذلك؛ فقد كان الشّعراء – في هذا الإطار – يعبّرون عن موقف الجماعة الإسلاميّة التي عانت من ويلات الفرقة والنّزاع كثيراً، ورأت أنّ "استقطاب الطّاقة الإسلاميّة الشّاملة للوقوف في وجه الصّليبيين، كان أجدى من الناحية العمليّة من أيّ استقطاب عرقيّ أو إقليميّ"[3].

---

(1) انظر مثلاً:

- محمد رجب النّجار، الشّعر الشّعبيّ السّاخر في عصور المماليك: 78-125.

- عبدالله المهنّا، إبراهيم المعمار، شاعر العامّة في عصر المماليك "دراسة في الشّاعر وشعره"، المجلة العربية للعلوم الإنسانيّة، ع58، السنة 15، جامعة الكويت، 1997م: 44-50.

(2) حول أسباب ذلك انظر: نزار اللبدي، صورة فنّ الحرب في أدب الدّولتين الزنكيّة والأيوبيّة في مصر والشّام: 11.

(3) محمود إبراهيم، صدى الغزو الصّليبيّ في شعر ابن القيسرانيّ: 140.



الفصـل الرابع

التشكيل الفنيّ

1. شكل القصيدة

2. اللغة والأسلوب

3. الصّورة الشّعريّة



الفصل الرابع

التشكيل الفنيّ

1. شكل القصيدة

1

كانت المقطوعة الشّعريّة التي تتراوح بين البيتين والعشرة، هي الشّكل الغالب على شعر الهجاء في مصر والشّام زمن الحروب الصليبيّة؛ إذ جاء هذا الشّعر – في أغلبه – مقطوعات قصيرة، حملت فكرة واحدة، وسرى فيها شعور واحد كفل لها الوحدة والانسجام. ويبدو أنّ اتّخاذ المقطوعة شكلاً فنيًّا لشعر الهجاء، يعود إلى طبيعة هذا الموضوع الذي يتطلّب قدراً من الإيجاز والتكثيف؛ ليكون أعلق في النّفوس، وأكثر شيوعاً ودوراناً على ألسنة النّاس.

وقد تنبّه بعض الشّعراء والنُّقاد القدامى إلى أهميّة المقطوعة الهجائيّة، وقوّة تأثيرها في هذا الاتّجاه؛ فقد "قيلَ لعقيل بن علقة: مالك لا تُطيل الهجاء؟ فقال: يكفيك من القلادة ما أحاط العنق"[1]. "وقيل لأبي المهوّش الأسديّ: لِمَ لا تطيل الهجاء؟ فقال: لم أجد المثل السّائر إلا بيتاً واحداً"[2]. ويذهب ابن رشيق القيروانيّ إلى أنّ "جميع الشّعراء يرون قصر الهجاء أجود...إلا جريراً"[3]. وفي هذه الأقوال ما يدلُّ على إدراك الشّعراء لقيمة الإيجاز والاقتصاد في هذا الموضوعِ الشّعريِّ الذي يهدف – فيما يهدفُ إليه – إلى الإصابة والتّأثير. وكلُّ هذا لا يتحقّق إلا من خلال القول الموجز المصيب الذي يقع في

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم (ت276هـ)، الشّعر والشُّعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1958م: 1/ 76.

(2) المصدر نفسه.

(3) ابن رشيق، العمدة: 2/ 849.

النّفس، ويبقى في الذّاكرة، ومن الملاحظ أنّ اعتماد المقطوعة إطاراً فنيّاً في شعر الهجاء، ليس مقتصراً على شعر هذه الفترة، وإنّما كان ملمحاً فنيّاً تبدّى أيضاً في عصور أدبيّة أخرى[1].

وعند النّظر في هذه المقطوعات، يلاحظ اتّسامها بعدد من الخصائص الفنيّة التي حقّقت لها قدراً من الحيويّة والتّشويق، ومن ذلك:

أ. السُّخرية التّهكميّة

تعدّ السُّخرية من الملامح الواضحة التي اتّصف بها كثير من هذه المقطوعات. وقد تمثّلت هذه السُّخرية بغير صورة، منها: أن يلجأ الشّاعر إلى أسلوب الذّمّ بما يشبه المدح، على نحو ما يبدو – مثلاً – في الأبيات التالية لابن منير الطّرابلسيّ في هجاء ملك النّحاة، حين خمش يدَ هذا الأخير قطٌّ[2]:

عَتَبْتُ على قِطِّ ابنِ منيرٍ ... وقُلْتُ: أتيتَ بغيرِ الصَّوابِ

جرحْتَ يداً خُلقَتْ للنّدى ... وبذْلِ الهِباتِ وضَرْبِ الرِّقابِ

فقالَ لي القِطُّ: وَيْكَ انتبِهْ ... أَلَيْسَ القطاطُ عداةَ الكلابِ

فالشّاعر يتحدّث في البيتين: الأوّل والثّاني بما يوحي بالمدح والتّقدير؛ فهو يلوم قطّه على صنيعه ذاك، ويذكر من الصّفات لمهجوّه ما يمكن أن يجلب لنفسه الرِّضا والارتياح. غير أنّه سرعان ما يفاجئ القارئ بمعنى جديد، يقلب دلالة كلّ ما سبق.

ومنه كذلك قول ابن عُنين في القاضي الفاضل حين يهجوه بمثل هذه "البراءة الماكرة" التي تستهدف أساساً النّيل من رجولته وشرفه[3]:

(1) انظر مثلاً: قحطان التميميّ، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجريّ: 329-330؛ فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسيّ: 227-228.

(2) ابن منير، ديوانه: 124-125.

(3) ابن عُنين، ديوانه: 189.

حاشا لعبدِ الرَّحيمِ سيِّدنا الـ ـفاضلِ مِمّا تَقُولُهُ السُّفَلُ

وَتَبٌّ مَنْ قَالَ إنَّ حَدْبَتَهُ في ظَهْرِهِ من عُبَيْدِهِ حَبَلُ

هذا قياسٌ في غيرِ سيِّدِنا يصحُّ إنْ كانَ يَحْبَلُ الرَّجلُ

وقد تحقّقت السّخرية للأبيات من جانب آخر، تمثّل في ربط الشّاعر – من خلال إقامة هذه العلاقة المريبة – بين القاضي الفاضل و"عبيده" تقليلاً لشأنه، وغضّاً من قيمته.

ومن أساليب السُّخرية الشّائعة في هذه المقطوعات، تصوير العيوب الجسديّة وإبرازها في صورة مضخّمة هازئة، بما يشبه أسلوب (الكاريكاتير)؛ إذ يلجأ الشاعر إلى انتقاء جزءٍ بارزٍ من جسم مهجوّه (وغالباً ما يكون الأنف أو اللحية أو حدبة الظّهر) فيسلّط الضّوء عليه من خلال تضخيمه، وتجسيده بصورة مبالغ فيها، قاصداً من وراء ذلك إلى الهزل والإضحاك. ومن الشّواهد التي يمكن أن تساق هنا، قول ابن السّاعاتيّ في رجل كبير الأنف[1]:

أنفُ السَّديدِ إذا أطَلْـ ـلَ كسا بلادَ اللهِ جنْحَا

لو كانَ في الزّمنِ القَديـ ـمِ لكانَ للنّمرودِ صَرْحا

والأمثلة على هذا الجانب كثيرة، وقد ورد قسم كبير منها في جزء سابق من هذه الدّراسة، عند الحديث عن "هجاء الأفراد" والصّور التي تشكّل بها، ولا أرغب أن أوردها هنا، تحاشياً للتكرار.

ومن صور السّخرية التّلاعب بالألفاظ عن طريق الصّنعة البديعيّة من طباق ومقابلة وتورية وغير ذلك. فمن المقابلة الهادفة إلى التهكّم قول يحيى بن سلامة الحصكفيّ في أحدهم، لاجئاً إلى التّلاعب اللفظيّ لاستخراج مزيد من المعاني المتباينة القائمة على

---

(1) ابن الساعاتي، ديوانه: 1/ 231؛ وفي تضخيم صورة الأنف انظر أبياتاً مشابهة لسالم بن مؤمن المعري في: ابن العديم، بغية الطلب: 7 / 205.

بعض المقابلات اللفظيّة التي كان لمبالغة الشّاعر في التفنّن البديعيّ أثره في صبغها بنزعة منطقيّة متكلّفة[1]:

دينُــــهُ ديــــنٌ رقيــــقٌ ... ولَــــهُ وجــــهٌ صفــــيقُ

ولــــهُ لا حاطَــــهُ اللهُ ... إلــــى كــــلّ طريــــقُ

هــــو بالفعــــل عــــدوٌّ ... وهــــو بــالقولِ صــديــقُ

هــــو في القُــربِ رحــــيقٌ ... وهــــو في الــبُعْدِ حــريقُ

ومن الجناس والتّورية قول ابن قادوس في شاعر كان أسود[2]:

يــا شِبْــهَ لُقمــانٍ بــلا حِكْــمَةٍ ... وخاســراً في العلــمِ لا راسِــخـا

ســلخْتَ أشــعارَ الــوَرَى كلّهــمْ ... فَــصِرْتَ تُــدعى الأَســودَ الســالخا

فقد لجأ الشّاعر إلى السُّخرية من مهجوّه باستخدام الجناس غير التّام في: (راسخ وخاسر). والتّورية في كلمة (الأسود السّالخ)؛ فالأسود السّالخ هو الثعبان، ولكنّه ورّى به لذلك الشّاعر الذي اتّصف بالسّواد والسّطو على أشعار غيره.

وقريب من هذا قول أبي الحسين الجزّار الذي عُرف بكثرة انتقاده لواقعه، وشكواه المتكرّرة من سوء حاله، وتعاسة ظروف مهنته (الجزارة) التي سبّبت له كثيراً من المتاعب والهموم. وقد تميّز شعره في هذا الجانب باللمحة الدّالة، والفكرة الطّريفة المعبّرة، ومن سخرياته في هذا المقام قوله حين عوتب بامتهانه الجزارة، بعد أنْ تكسّب بالشّعر ولم يجده مجدياً[3]:

لا تَلُمْــني يــا سيّدي شــرفَ الدِّيــــ ... ــــنِ إذا مــا رأيتَنــي قــصَّــابــا

---

(1) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشّام): 2/ 501.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر): 1/ 226.

(3) ابن سعيد الأندلسيّ، المغرب (قسم مصر): 316.

كيفَ لا أشكُرُ الجِزارةَ مـا عِشْـــتُ حفاظـاً وأرْفـضُ الآدابـا
وبهـا أضْـحتِ الكِـلابُ ترجِّيــني، وبالـشّعرِ كُنـتُ أرجُـو الكـلابا

فكلمة الكلاب – كما هو واضح – لها معنيان، قريب: هو الحيوان المعروف، وقد قرّب تبادر هذا المعنى إلى الذّهن ذكر الجزارة، وبعيد: هو لئام الناس، وهو المقصود ها هنا، ولعلّ جنوح الشّاعر إلى أسلوب المواربة هذا، كان بدافع من روح الفكاهة والدّعابة التي اشتهر بها، أو لعلّه كان إيثاراً للسّلامة التي لم تكن لتتأتّى لو جنح إلى التّصريح والمباشرة.

وتكون السُّخرية – أحياناً – باستثمار التّشابه بين الأسماء، لعقد مقارنات ساخرة بين شخصيّتين، كأنْ يعمد الشّاعر إلى الإشادة بإحداهما مقابل تحقير الأخرى وفقاً لغايته وتوجّهه. وقد تبدّى مثل هذا في قول ابن عُنين حين قدم من اليمن إلى مصر، وطُلب منه زكاة ما كان معه من مال، فوجد في ذلك مناسبة للنّيل من صاحب مصر وقتذاك (الملك العزيز عثمان) من خلال مقارنته بالملك العزيز طغتكين بن أيّوب صاحب اليمن[1]، يقول[2]:

مـا كـلُّ مـنْ يتسمّى بالعـزيز لهـا أهـلٌ ولا كـلُّ بـرقٍ سُحْبُـهُ غَدِقَـهْ
بـينَ العزيـزينِ بَـونٌ في فِعَـالِهِـما هـذاكَ يُعطـي وهـذا يأخُـذُ الـصَّدَقَهْ

وقد مالت بعض النّماذج السّاخرة إلى الفكاهة غير الجارحة التي كانت تهدف إلى المتعة والنكتة البارعة. وغالباً ما يكون ذلك وليد حادثة أو موقف ما؛ فقد كتب ابن

(1) هو الملك العزيز طغتكين، أخو السلطان صلاح الدين، بعثه أخوه إلى اليمن سنة 577هـ فملكها وتوفي فيها سنة 593هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 2/ 523.

(2) ابن عنين، ديوانه: 223.

خروف النّحويّ – على سبيل الفكاهة – إلى قاضي القضاة في حلب يستقيله من مشارفة مارستان نور الدّين زنكي، وكان بوابه يسمّى السيّد، يقول[1]:

مولاي مولاي أجِرْني فقدْ   أصْبَحْتُ في دارِ الأسى والحُتُوفْ

وليسَ لي صبرٌ على مَنْزِلٍ   بوابُه السِّيْدُ، وجدّي خَروفُ

فقد استغلّ الشّاعر حالة الأسماء: (ابن خروف، والسّيد التي تعني في اللغة الذّئب)، وساق من خلالها هذه الدّعابة اللطيفة. ويشبه هذا ما كتبه ابن عُنين إلى الملك المعظّم عيسى، حينما كثر عليه الضّيوف، يقول[2]:

تَبارك اللهُ أعطى النّاسَ ما سألوا   صفْواً وكالَ لَهُمْ بالزّائدِ الوافي

فالحمدُ للهِ شُكْراً إنني رَجلٌ   ما باركَ اللهُ لي إلا بأضيافي

وعلى ما في الأبيات من دعابة وخفّة روح، إلا أنّها تعبّر – من وجه آخر – عن موقف رافض تجاه واقعه الذي لم ينصفه – على حدّ رأيه – كما أنصف غيره. والحقّ أنّ هذا النّوع من الشّعر يدلُّ على روح فكهة، وذهن متّقد، وقد وجد هذا الشّعر – كما ذكر في موضع سابق – رواجاً وانتشاراً في أدب هذه الفترة، واشتهر من شعرائه من الجانب الشّاميّ ابن عنين الذي احتوى ديوانه على باب كبير منه[3]. كما اشتهر منه من الجانب المصريّ – ولعلّه كان في هذا الجانب أبين وأظهر – شعراء كثيرون منهم: الجزّار والورّاق وابن النّقيب وابن دانيال وغيرهم.

---

(1) الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 85.

(2) ابن عنين، ديوانه :131.

(3) المصدر نفسه: 125-148.

ب - المفارقة Irony

والمفارقة – في أبسط مفاهيمها -: "لعبة لغويّة ماهرة وذكيّة بين طرفين: صانع المفارقة وقارئها، على نحو يقدِّم صانع المفارقة النصّ بطريقة تستثير القارئ وتدعوه إلى رفضه بمعناه الحرفيّ، وذلك لصالح المعنى الخفيّ الذي غالباً ما يكون المعنى الضّدّ"[1].

ويعدُّ فنّ الهجاء من الفنون المرشّحة لاستيعاب أنماط متعدّدة من المفارقات، بل إنّ الفنّين – الهجاء والمفارقة – كثيراً ما يتداخلان في الحدود والمفاهيم[2]. أمّا عن أهميّتها في شعر الهجاء، فلعلّ أبرز ما يستوقفنا منها أنّها "تمنحنا فرصة التأمّل فيما تقع عليه أعيننا، أو يتنبّه إليه إدراكنا، ممّا يحيط بنا من مظاهر التناقض والتّغاير، فيدفعنا للتبصّر به، والبحث عن العلاقات التي تجمع عناصر المتشكّل أمامنا، وما بينهما من اتّساق أو تنافر"[3].

وقد توسّل الشّعراء في هذا المقام – في سبيل تحقيق مفارقاتهم السّاخرة – بعدد من العناصر والوسائل المؤثّرة، كلجوئهم إلى استثمار أسماء مهجويّهم وألقابهم في صنع مفارقات جديدة. ومن النماذج الدّالة على هذا التوجّه، قول ابن عُنين الذي يجد في لقب "الشّهاب" لفتيان الشّاغوريّ، وسيلة مناسبة لإقامة مفارقات ساخرة منه[4]:

---

(1) نبيلة إبراهيم، المفارقة، مجلة فصول، م7، ع3+4، القاهرة، 1987م: 132، عن كتاب:
Wayne C. Booth, A Rhetoric of Irony, Chicago univ. press 1976, p.176
والآراء حول المفارقة كثيرة ومتشعبّة. ولم أرد أن أفصِّل القول في هذا الجانب، لعدم اتساع المقام إليه من جهة، وتجنّباً لإسقاط تنظيرات لا يحتملها هذا الشّعر من جهة أخرى. لمزيد من التفاصيل عن المفارقة انظر: د. سي. ميويك، المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، ط2، دار الرشيد للترجمة والنشر، بغداد، 1987م؛ خالد سليمان، نظرية المفارقة، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، م9، ع2، جامعة اليرموك، الأردن، 1991م.

(2) د. سي. ميويك، المفارقة وصفاتها: 56.

(3) سامح الرواشدة، المفارقة في شعر أمل دنقل، مجلّة دراسات، (السلسلة: أ : العلوم الإنسانية، م22(أ)، ع6 (الملحق)، الجامعة الأردنية، عمان، 1995م: 3788.

(4) ابن عُنين، ديوانه: 212-213.

يا مَنْ يُلقَّبُ ظُلمًا بالشّهاب وإنْ أضحى بظُلمتِه قدْ أظلم الشُّهُبا

لا تَخْدعنَّكَ مِنْ مودودَ دولتُه[1] وإن تعلّقتَ من أسبابها سبَبَا

"فليسَ ينبحُ فيها غَيْرَ واحدةٍ حتّى يلفَّ على خيشومِهِ الذّنبا"[2]

ويقارب هذا قول هبة الله بن وزير في مستخدم على أموال الزّكاة كان يسمّى "الزكيّ" إذ يصنع الشّاعر من هذه المصادفة مفارقة ناقدة، يستهجن – من خلالها – سوء الإدارة، وتفشّي الفساد في أجهزة الدّولة التي أصبحت نهبًا لبعض المستغلّين. وبذا فقد أدّت المفارقة هنا وظيفة كاشفة، وأظهرت ما كان يعتمل في الواقع من تناقض وتباين[3]:

واحَسرتاهُ على الثّقاتِ جُعِلَ الزّكيُّ على الزّكاةِ!

وهُو الّذي لِخَيانةٍ أبداً يُعدُّ من الجُناةِ

ومتى تأمَّلَ دِرْهماً في الجوِّ صارَ من البُزاةِ

ومن الوسائل التي يلجأ إليها الشّاعر في بناء مفارقاته، كما تبدّى في شعر هذا العصر، إقامة علاقة تتّصف بقدر من التّفاوت اللافت بين طرفيها "ذلك أنّ التوتّر الناشيء من المفارقة يزداد حفزاً كلّما ازداد التّباين بين حدّيها"[4]. ومما يمثّل هذا قول ابن عُنين في الرّشيد النابلسيّ حين يقيم بينه وبين "النّعال" – على تفاهتها وقلّة شأنها – علاقة تنتهي

---

(1) مودود: شحنة دمشق، وكان الشهاب يعلم أولاده.

(2) البيت من أبيات الحماسة لمرة بن محكان التّميميّ. انظر: المرزوقي، أحمد بن محمد (ت421هـ)، الحماسة، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991م: 2/ 1563.

(3) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر): 2/ 152.

(4) عبد القادر الرباعيّ، صور من المفارقة في شعر عرار، ضمن كتاب: بحوث عربية مهداة إلى الدكتور محمود السمرة، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، 1996م: 307؛ وقد أفدت من تحليله في هذا الجانب.

لصالح هذه الأخيرة، إذ يجعلها – بالاتكاء على التشخيص – تتألّم وتتأذّى من ملامسة ثياب الرّشيد وصفعها به[1]:

تعجَّب قَومٌ لصفْع الرّشيدِ ... وذلكَ ما زال من دَابِهِ
رحمتُ انْكِسارَ قُلُوبِ النِّعالِ ... وَقَدْ دنَّسوها بأثوابهِ
فو اللهِ ما صفَعُوهُ بها ... ولكنَّهمْ صَفَعُوها بهِ

ولموقف الشّاعر من محيطه وواقعه أثر في نشوء كثير من المفارقات؛ إذ غالباً ما تنشأ المفارقة بتأثير من بعض الظّروف القاسية التي قد تدفع الشّاعر إلى ما يشبه الثّورة على كثير من المواضعات والأحوال السّائدة، فيعبّر عن سخطه وعدم رضاه عنها، ويُعدُّ الجزّار من أبرز الشّعراء الذين يمثّلون هذا الاتّجاه؛ فقد كان لسوء حاله وفقره – كما ذكرت غير مرة – أثر واضح في توجّه شعره الذي احتوى قسم منه على مفارقات متعدّدة. كما يبدو – مثلاً – من أبياته التالية التي يشكو فيها "زمانه الصعب" مصوّراً – وهنا تكمن المفارقة بصورتها الجليّة – حاله يوم عيد النّحر، وقد ذبحت الأضاحي، ونعم الناس من اللّحم "بطريّه وقديده"، وهو "رهن الإفلاس" لا يجد شيئاً، على الرّغم من كونه "جزّاراً"! يعمل باللّحم كلّ يوم دون أن ينال منه شيئاً[2]:

لا تَسَلْني عن الزَّمانِ فإنّي ... قَدْ بدتْ لي أَضْغانُه وحُقُودُهْ
زمنٌ لانَ عطفُهُ عندَ غيري ... وهو عِندي صعبُ المِراسِ شديدُهْ
كيف يبقى الجزّارُ في يومِ عيد النَّـ ... ـنَحْرِ رَهْنَ الإفلاسِ والعيدُ عِيدُهْ!
يتمنّى لحمَ الأضاحي وعندَ النَّـ ... ـناسِ منه طريُّهُ وقديدُهْ

(1) ابن عنين، ديوانه: 185.

(2) ابن سعيد الأندلسي، المغرب (قسم مصر): 300.

ويسري في بعض أشعار أسامة بن منقذ ما يشبه هذه النّغمة، وإن كانت أزمة أسامة ذات طبيعة مختلفة وأبعاد متعدّدة، حمل جانب منها طوابع سياسيّة تمثّلت في خلافه مع بعض أقاربه وأبناء عمومته، وحمل جانب آخر منها طوابع ذاتيّة، تمثّلت في تجربة الشّيخوخة التي عاشها، وفي أحزانه التي تمثلت في هلاك أقاربه وذويه في زلزال شيزر سنة 552هـ[1]. وقد ولّدت هذه التّجارب في نفسه مرارة وحزناً ظاهرين، ونتج عن ذلك في شعره – وهو ما يهمّنا في هذا المقام – صور من المفارقات التي انثالت على لسانه بتأثير من فيض انفعالاته ومشاعره المتألّمة، من ذلك أبياته التالية التي تصوّر ألواناً من المفارقة تمثّلت فيما كان يعاينه في زمانه من تناقض بيّن في القيم والسّلوك، يقول[2]:

كَمْ تَقصِدُ الماجدينَ الفاضلين، وكَمْ ... تُعلِّمُ الكُرَماءَ البُخلَ يا زَمَنُ

إذا توالتْ عليهمْ نائباتُكَ، واجـ ... ـتاحَتْ فواصلَ ما يُولونه المِحَنُ

فكيفَ بالجُودِ والأحداثُ تسلُبُ ما ... يُولى به العُرْفُ أو تُسدى به المِنَنُ

شُغْلُ الزّمانِ بأهلِ النّقصِ يَرفعُهُمْ ... حتّى يُثمِّرَ للوُرَّاثِ ما خَزَنُوا

ألهاهُ عن كُرماءِ النّاس، فهو على ... ذوي المكارمِ والأفضالِ مُضطَغِنُ

فالزّمن – حسب قراءة الشّاعر له – يسير وَفْق منطق مقلوب؛ فهو يعادي كرماء الناس بنوائبه ومحنه الكثيرة، وكأنّه بذلك يعلّمهم البخل الذي لم يكن من شيمهم يوماً، وهو – في المقابل – مشغول بأهل النّقص – ويلاحظ تكرار هذا الوصف لدى أسامة في غير موضع من ديوانه – يرفع من شأنهم، ويوسّع لهم. وبذلك فقد أحدث الشّاعر هذه المفارقة بوحي من واقع حياته الشّخصيّة التي أيقظت حسّه، وعمّقت تبصّره بحركة الزّمن، وما تتركه من أثر في الأشخاص والأشياء من حوله.

---

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق: 514.

(2) أسامة بن منقذ، ديوانه: 312.

جـ - وحدة الموضوع

يتميّز كثير من المقطوعات الهجائيّة بوحدة في الموضوع والعاطفة، وقد ساعد على مثل هذه الوحدة قلّة أبيات المقطوعة؛ فمن الواضح أنّه كلما كانت القصيدة أقرب إلى القصر، أو إلى شكل المقطوعة زادت حدّتها الشّعوريّة والفنيّة معاً[1]. كما أنّ هذه الوحدة الموضوعيّة قد تأتّت – فيما أرى – من جانب آخر، تمثّل في أنّ الشّاعر الهجّاء قد تحرّر من القيود التي تتطلّبها موضوعات شعريّة أخرى؛ كالمديح – مثلاً – الذي ظلّ مرتبطاً بالقيم الشّعرية الموروثة، من مثل المحافظة على البناء التقليديّ للقصيدة العربيّة القديمة، إرضاءً للذوق العامّ، وأذواق الممدوحين بصورة خاصّة، في حين أكسب هذا التحرّر شعر الهجاء مزيداً من الحركة والحيويّة، فترك الشّاعر لنفسه الحرية في التّجاوب والتّعبير عن المواقف المختلفة التي تعرض له، دون أن يكبّلها بقيود ضاغطة من شأنها أن تحدّ من دفق الشُّعور وانطلاقه، فجاء شعره في هذا الاتجاه انعكاساً مباشراً لإحساسه وانفعاله، "وكأنّه لم يكن ثمّة فاصل بين ما يفكّر به الشّاعر وبين ما يقوله"[2] .

وحين النّظر في هذا الشّعْر، يلاحظ أنّ الهجاء الشّخصيّ، والهجاء الذي تناول نقد المجتمع، جاء في مقطوعات شعريّة قصيرة، اتّسم أغلبها بوحدة العاطفة والموضوع. والأمثلة على هذا كثيرة؛ ففي نطاق الهجاء الشّخصيّ يمكن التمثّل بقول البهاء زهير في ثرثار طالت ملازمته له، حيث يعبِّر عن هذه الصّحبة غير المرغوبة بهذه الأبيات التي بثّ فيها شعوراً عاطفياً واحداً[3]:

---

(1) عبدالقادر القط ، في الشّعر الإسلامي والأمويّ، دار النهضة العربية، بيروت، 1987م: 133.

(2) شفيق الرّقب، الشّعر العربيّ في بلاد الشّام: 315

(3) البهاء زهير، ديوانه: 49.

وجاهلٍ لازمني لقيتُ منه عَنتا

كأنّما حتمٌ عليـ ـهِ الدّهرَ ألا يَسْكُتا

أنسي به إذا نأى ووحشتي إذا أتى

طالَتْ بهِ بليّتي يا ربٌّ ما أدري مَتى!

وقول ابن المسجّف العسقلانيّ في جماعة لم يحسن التّقدير في كشف جوهرهم – على نحو ما يذهب –[1]:

ولقد مَدحتُهُمُ على جهلٍ بهمْ وظننتُ فيهمْ للصّنيعةِ موضِعا

ورَجعْتُ بعدَ الاختبارِ أذمُّهمْ فأضَعتُ في الحالينِ عُمري أجْمعا

وفي نطاق الهجاء الاجتماعيّ، يمكن التّمثُّل بأبيات لسديد الدّين بن رقيقة[2]، قالها في نقد أحد الأطباء، مصوّراً قلّة معرفته، وكثرة أخطائه في حقّ المرضى، بأسلوب لاذع ساخر[3]:

أيا فاعلاً خلِّ التطبُّبَ واتّئدْ فكَمْ تَقْتُل المرضى المساكين بالجَهْلِ

كأنّك يا هذا خُلقتَ موكّلاً على رَجْعِ أرْواحِ الأنامِ إلى الأصلِ

بَهرتَ الوَبا إذْ قتْلُكَ الناس دائمًا وذلكَ في الأحيانِ يَحْدثُ في فصلِ

كفى الوصب المسكين شخصك قاتِلاً إذا عدْتَهُ قبلَ التعرُّضِ للفِعْلِ

(1) الكتبي، فوات الوفيات: 2/ 283.

(2) هو أبو الثناء محمود بن عمر الشيباني، كان من الحكماء والمتطبين. انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: 717.

(3) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: 717.

فالنّاظر في النّماذج السّابقة، يلاحظ أنّها قد جمعت إلى جانب وحدة الموضوع، البساطة والتلقائيّة والطّرافة. وهي ملامح هامّة – أيضاً – للمقطوعة الهجائيّة التي تتوسّل – في سبيل شيوعها وتأثيرها – بكلّ ما من شأنه أن يكفل لها الحيويّة والتّشويق.

وكان لاتّخاذ بعض المقطوعات من الحكاية وسيلة فنيّة لبنائها، دور في تقوية هذه الوحدة وتنميتها، فقد كان لهذا الأسلوب القصصيّ القائم على جملة من التّفصيلات الدّقيقة، والمعتمد على تطوّر الحدث وتسلسله في اتّجاه واحد، أثره في إشاعة قدر من التّرابط والتّماسك بين أبيات تلك المقطوعات. والشّواهد على هذا كثيرة، منها – مثلاً – أبيات لعلم الدّين الشّاتاني[1] الذي يقول ساخراً من خصم له بعد أن وثب عليه أسد، وعاد عنه ولم يفترسه، إذ يصوغ الشّاعر سخريته من خصمه ذاك، بهذه الحكاية البسيطة التي توسّلت – في بنائها – بأسلوب التّشخيص والحوار، يقول[2]:

قُلتُ للَّيثِ: لِمْ تأخَّرتَ عنهُ ... حِيْنَ غادرْتَهُ إليْكَ صَرِيْعا

قالَ قَدَّرْتُ أنني حِزْتُ صَيْداً ... فَتأمَّلتُهُ فكانَ رَجيْعا

فأبتْ نفْسِيَ الأبِيَّةُ عَنْهُ ... أنْ ترى أكْلَهُ وإنْ متُّ جُوْعا

ومنها أيضاً قول ابن عُنين لما قدم إلى دمشق من اليمن، وطالبه عدد من أصدقائه بدعوة، فقال لهم: تعالوا غداً، فلمّا حضروا لم يجدوه في منزله، لكنّه ترك لهم رقعة تضمّنت الأبيات التالية، وسأوردها كاملة لبيان ما بينها من ترابط لا يسمح بالاجتزاء، يقول[3]:

تَجوّعَ ليْ الشّيخُ الزّكيُّ وجاءَني ... معَ الشّمسِ قَبْلَ الشّمسِ يَتْلُوهُما

---

(1) كان فقيهاً وأديباً، قدم الشّام سنة 531هـ، أكرمه العادل نور الدين، توفي سنة 579هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشّام): 2/ 361.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشّام): 2/ 375.

(3) ابن عُنين، ديوانه: 128-129.

وقد سرَّحا ذقْنَيْهما[1] وتسربَلا ... من الوَشْيِ ما ازْدانَتْ حواشيْه

وجاءتْ بنو عَبْدانَ طُرًّا كأنّما ... لَهُمْ في الّذي اسْتصحَبْتُ مِنْ عَدَنِ

وجاءَ أبو الفضلِ الأمينُ وعَبْدُهُ ... كذئبٍ غضاً قدْ مسّهم مِن طَوىً

وأقْبَلَ شَمسُ الدِّين يَسْعى مُبادراً ... وفي كُمّهِ للنّهب مِنْ أدَم

جُموعٌ لو انّ السّدَّ أعرضَ دونَهُمْ ... بدا منْهُمُ في جانبيْ رثْقهِ

يَرُومُونَ خُبْزي والكواكبُ دونَهُ ... لقدْ ضَلَّ عَنْهُمْ رأيُهمْ ونأى

أما عَلِمُوا أنَّ الذُّبابةَ لا ترى ... طَعامي وأنَّ الفارَ عِنْدي لَها

فالأبيات تقدّم تلك الحادثة الطّريفة من خلال أسلوب الحكاية، وقد كفل لها الشّاعر من الوسائل ما حفظ لها المتعة والإطراف على عادته في كثير من شعره؛ فحدّد – بداية – زمن القصّة، وهو قبل طلوع الشّمس، وفي اختيار هذا التوقيت ما يدلُّ على تلهّف أولئك الأصدقاء، وشدّة نهمهم الذي دفعهم إلى المجيء في هذا الوقت المبكّر جداً. ثم يعرض صور هؤلاء الأصدقاء عن طريق الوصف الخارجيّ – وهو ضروري لأيّة قصّة/ حكاية – فمنهم من سرّح ذقنه استعداداً للوليمة، ومنهم من يشبه الذّئب الذي مسّه الجوع، ومنهم من تهيّأ لنهب الطّعام بأكمامه. وحتّى يضفي الشّاعر على المشهد مزيداً من السّخرية والدّعابة، يلجأ إلى أسلوب المبالغة، فيصوّرهم جموعاً كثيرة متدافعة، ويصوّر – في الوقت نفسه – خبزه عزيز المنال تتهاوى من دونه الكواكب، ولا تنال منه الذّبابة والفأرة شيئاً. وواضح أنّ هذا الوصف الخارجيّ ينطوي على ملامح نفسيّة تميّز بها كلّ نموذج من النّماذج البشريّة السّابقة. وهكذا فقد جرت هذه الأبيات على نسق مترابط وفّر لها مثل هذه الوحدة المتنامية.

---

(1) سرح ذقنه للشيء: تهيأ له "كناية شاميّة".

د- الإيجاز والتكثيف

تميّز بعض المقطوعات بقدر من التّركيز واللمحة الدّالة، فأدّت المعنى بأقل الكلمات، إذْ لم يتجاوز بعض هذه المقطوعات البيتين أو الثلاثة، ولكنّها جاءت – مع هذا – مكتملة المعنى، ولا تحتاج إلى مزيد. ومما يمثّل هذا قول ابن المسجّف الذي يورد لأحد الأشخاص هذه الصّورة السّاخرة[1]:

وغرير كأنّهُ غُصْنُ تِيْنٍ ... أحوَل المُقلتين مُرٌّ لماهُ

قُلْتُ: ما الاسمُ قَدْ أطال عَنائي ... قالَ: مَسْعودٌ، قُلتُ: مَنْ لا يراهُ

ومثله كذلك قول أبي الغمر الإسناوي في أحدهم[2]:

عَدا طَوْرَهُ حُمُقاً وادّعى ... فخاراً وقَدْ جَحَدَتْه المعالي

وقالَ ألمْ أبْلُغِ الفرقَدِيْن ... فَقُلْتُ بلى بقُرُونٍ طِوالِ

وقد اتّكأت بعض المقطوعات – في سبيل التكثيف – على ما يسمّى بالاكتفاء، "وهو أن يأتي الشّاعر ببيت من الشعر وقافيته متعلّقة بمحذوف، فلم يفتقر إلى ذكر المحذوف لدلالة باقي لفظ البيت عليه، ويكتفي بما هو معلوم في الذهن فيما يقتضي تمام المعنى"[3]، ومنه قول البهاء زهير في أحد الثُّقلاء[4]:

وثقيلٍ إذا بَدا ... أكْثَرَ النّاسُ لَعْنَهُ

كلُّ رملٍ في الفَلا ... لا تَرى فيهِ وَزْنَهُ

ظُنَّ خيراً بغيرِهِ ... وبهِ لا تَظُنَّهُ

---

(1) الكتبي، فوات الوفيات: 2/ 284.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر): 2/ 161.

(3) ابن حجّة الحمويّ، خزانة الأدب: 1/ 282.

(4) البهاء زهير، ديوانه: 274.

وعلـــى نَحْـــسِهِ فَقَـــدْ قيـــلَ عنْـــهُ بأنَّـــهُ

ثُـــمَّ لا يتـــرك الحمـــا قَـــةَ حـــتّى كـــأنّـــهُ..

وقريب من هذا قول ابن المهنّا[1] في أبيات رفعها إلى قاضي حلب، يشكو فيها نائبه وكاتبه، يقول[2]:

لا عَجَـبٌ أنْ خَـرِبَ الـشّـامُ أوْ أقْـوَتْ مَغانيـهِ ولا غَـرْوْ

قـدْ أصْبَحَ المَجْـدُ بـهِ حاكِـماً وأصْبَـحَ المُنـشي لـه ضَـوْ

مـولايَ، مُحْيـي الـدّينِ، غَيْرهُمـا عنّـا، فَتَحْـوى شُـكْرَنا أوْ..

ويحسّ القارئ – كما لاحظ إحسان عبّاس في سياق آخر بعيد عن هذا المجال تماماً – حين ينتهي من قراءة هذه المقطوعات وأمثالها، أنّها قد تركت في نفسه "أثرين متباينين: شعوراً بالاكتفاء، وإيحاءً مسترسلاً، كما تترك لهفة إلى مزيد، ولكلّ من هاتين الحالتين دورها الإيجابيّ في نفس القارئ؛ إذ ليست اللهفة أقلّ إثارة من الشّعور بالرضى"[3].

2

وعلى الرّغم من أنّ المقطوعة كانت الشّكل الغالب على شعر الهجاء في هذه الفترة كما ذكر، إلا أنّ هذا الشّعْر قد اتّخذ شكل قصائد طويلة، وإن جاء ذلك قليلاً مع ما نظم فيه من مقطوعات. وعند النّظر في بِنْية هذه القصائد، يلاحظ تحرّرها من البناء التقليديّ للقصيدة العربيّة القديمة الذي يقوم عادة على "مقدّمة قد تطول وقد تقصر، ومدخل ينزلق

(1) هو أبو محمد عبدالقاهر بن علويّ بن المُهنّا، يذكر العماد أنّه لقيه بحماة سنة 571هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشّام): 2/ 98.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشّام): 98.

(3) إحسان عبّاس، نماذج من القصيدة القصيرة في الشّعر العربيّ الحديث "2"، جريدة الدستور، ع9188، عمان، 19 آذار 1993م: 9.

منه الشّاعر إلى موضوعه الرئيسيّ، ثم خاتمة ملحوظة[1]. فقد تضمّنت قصيدة الهجاء، في هذا الإطار، موضوعاً واحداً لم تجاوزه إلى غيره، وهي في هذا البناء تلتقي مع المقطوعة في وحدة الفكر والموضوع. غير أنّها مالت بصورة واضحة إلى التّفصيل، واستقصاء المعاني، والتّنويع في الجزيئات. ويبدو – من خلال استعراض هذه القصائد – أنّ الشّاعر لم يكن يعنّي نفسه كثيراً في تشكيل هذه البنية، إذ ترك لخواطره وأفكاره أن تنثال دون أن يقيّدها أو يحدّ منها أو يوجّهها توجيهاً صارماً؛ فجاءت – من حيث الشّكل والمضمون معاً – على قدر من البساطة والعفويّة. ومن القصائد التي تمثّل هذا المنحى، قصيدة لكمال الدّين بن الأعمى في ذمّ داره. وهي قصيدة طويلة بلغ عدد أبياتها ستة وأربعين بيتاً. قصرها على وصف هذه الدّار، من خلال الاتّكاء على بعض الصّور الطريفة السّاخرة. والقصيدة قائمة في بنيتها على الوصف التفصيليّ الذي تمثّل في حديث الشاعر المستفيض عمّا كان يدبّ في أرض تلك الغرفة من حيوانات وحشرات متعدّدة، وقد ولج الشّاعر إلى موضوعه مباشرة على هذا النّحو[2]:

دارٌ سكَنْتُ بها أقلُّ صِفاتِها ... أنْ تَكْثُرَ الحسَراتُ مِنْ حَشَراتِها

الخَيْرُ عَنها نازِحٌ مُتَباعِدٌ ... والشَّرُّ دانٍ مِنْ جميعِ جِهاتِها

ثم يستغرق حديثه عن الحشرات الهائمة في تلك الغرفة أغلب أبيات القصيدة، ومما جاء في ذلك قوله:

مِن بَعْضِ ما فيها البعوضُ عَدِمْتُه ... كَم أَعْدَمَ الأَجْفانَ طِيبَ سِناتِها

وَتَبِيتُ تُسْعِدُها براغيثٌ مَتى ... غنّتْ لَها رَقَصَتْ على نَغَماتِها

.. وبها ذُبابٌ كالضّبابِ يَسدُّ عَيْـ ... ـنَ الشَّمسِ ما طَرَبي سِوى غنّاتِها

أينَ الصّوارم والقَنا مِن فَتْكِها ... فينا وأيْنَ الأُسْدُ مِن وَثَباتِها

(1) عزالدين إسماعيل، في الشّعر العباسيّ: 387.

(2) الكتبي، فوات الوفيات: 3/ 89.

وبهـا خفافـيشٌ تَطـيرُ نهـارَها ... مـع لَيْلِها لَيستْ عـلى عاداتِـها

شَبَّهتُهـا بقَنافـذٍ مَطْـبُوخَـةٍ ... نَـزَعَ الطُّهـاةُ بنُـضْجِها شَوْكـاتِها

وبهـا قـرادٌ لا انْـدِمـالَ لجُـرْحِها ... لا يَفْعَـلُ المِـشْراطُ مِثْـلَ أداتِهـا

أبـدًا تمـصُّ دِماءَنـا فكـأنّـها ... حجّامـةٌ لَبـدَتْ على كـاساتِـها

...الخ

وهكذا يمضي الشّاعر في هذا الوصف المتأنّي الذي جسّد – من خلاله – معاناته التي تمثلت في سوء حال هذه الغرفة البائسة. وقد استعان – في سبيل ذلك – بصور حيّة من السُّخرية والفكاهة التي تضافرت فيها عناصر الحركة واللون والصوت لتكسبها هذه الحيويّة والتّشويق. ومع ما يلمس في هذا التّصوير من مبالغة في ذكر مساوئ تلك الدّار، إلا أنّ هذه الصّور – تبدو من ناحية أخرى – شديدة الصّلة بالواقع الذي يعيشه بعض المحرومين. فضلاً عما يجده القارئ في هذه القصيدة من تداخل شعوريّ كفل لها مثل هذا التّوافق والانسجام.

ويتبدّى مثل هذا البناء في بعض قصائد البوصيريّ في الهجاء الاجتماعيّ، ومنها – على سبيل المثال – قصيدته التي مطلعها[1]:

انظـرْ بحقِّـكَ في أمـرِ الـدَّواوينِ ... فالكـلُّ قَـدْ غيَّـروا وَضْـعَ القَـوانينِ

والقصيدة ذات موضوع واحد، هو تصوير فساد بعض موظّفي الدّواوين وانحرافاتهم، وهي كذلك ذات مغزى واحد، تمثّل في رغبة الشّاعر في الكشف عن تلك الانحرافات، وتبصير أولي الأمر بها. وعلى الرّغم من طول القصيدة، حيث بلغت تسعة وخمسين بيتاً، إلا أنها تميّزت بوحدة متماسكة، وشعور عاطفيّ متجانس. وقد جنح الشّاعر في بناء قصيدته إلى أسلوب إسهابي تمثّل في إلحاحه على المعنى، واستيفاء جوانبه؛

(1) البوصيريّ، ديوانه: 262.

فحين يتحدّث عن تعدّيات أولئك الموظّفين، لا يورد نموذجاً واحداً، وإنّما يقدّم صوراً متعدّدة لذلك، كما يبدو – مثلاً – في الأبيات التالية:

الكاتبونَ وليْسوا بالكِرامِ فما ... مِنْهُمْ على المالِ إنسانٌ بِمَأْمُونِ

والكلُّ جَمْعاً بِبَذْلِ المالِ قد خَدَمُوا ... وما سَمِعْنا بهذا غَيرَ ذا الحِيْنِ

فَهُمْ على الظَّنِّ لا التَّحقيقِ بَذْلُهُمُ ... وما تحقُّقُ أمرٍ مِثْلَ مَظْنُونِ

نالوا مناصِبَ في الدُّنيا وأخْرَجَهُمْ ... حُبُّ المناصِبِ في الدُّنيا على الدِّينِ

... الخ

وحين يتحدّث عن حالة البذخ التي يعيشها أولئك الموظّفون، والأوجه التي ينفقون فيها الأموال الطّائلة التي حصّلوها، يأخذ الحديث قدراً لا بأس به من حجم القصيدة، ومن ذلك قوله:

وكُلُّ ذلكَ مَصْرُوفٌ ومَصْرِفُهُمْ ... للشَّيْخِ يُوسُفَ أبي هَبْصٍ بنِ لَطْمينِ

وللشَّرابِ وتَبييتِ الخَطاءِ بِهِ ... يَجْلُو العُقارَ بأجْناسِ الرَّياحينِ

وللعُلُوقِ وأنْواعِ الفُسُوقِ معاً ... وللخُرُوقِ الكثيراتِ التَّلاوينِ

وللبِغالِ الوطيّاتِ الرِّكابِ تَرى ... غلمانَهُمْ خَلْفَهُمْ فَوْقَ البَراذينِ

وللمناديلِ في أوساطِ مَنْ مَلَكُوا ... وللمناطقِ فيها والهَمايينِ

وواضح أنّ الشّاعر قد اختار من هذه الأوجه ما يمكن أن يستثير فضول السّامع، ويستدرّ عاطفته، وهو لا يكتفي بذلك، وإنّما يعمد – بقصد الاستثارة الشّعوريّة أيضاً – إلى الضّرب على وتر الدّين؛ فهؤلاء المستخدمون – كما يرى – "أعداء الله والدّين"، والجهاد في سبيل الله – في رأيه – لا بدّ أن يبدأ بهم أوّلاً قبل الأعداء الخارجيين ... وقد استعان الشّاعر – إلى جانب هذا أيضاً – ببعض الوسائل الفنيّة المؤثّرة؛ كاستخدام الحوار الذي أضفى على الأبيات روحاً قصصيّة أبعدت عنها بعض الرّتابة التي قد تتأتّى بسبب

طول القصيدة. والإكثار من إيراد الأساليب الإنشائيّة الهادفة إلى التّأثير في المستمع ولفت انتباهه. ومع ذلك فقد برزت النّزعة الخطابيّة في مجمل أبيات هذه القصيدة. ولعلّ ذلك بتأثير من تناول هذا الموضوع الاجتماعيّ الذي قصد الشّاعر من ورائه إلى أداء رسالة تتوخّى الإخبار والتّبليغ.

***

وخلاصة القول في بنية قصيدة الهجاء، أنّها جاءت في شعر هذه المرحلة على صورتين: صورة المقطوعة، وهي الغالبة على مجمل هذا الشّعر، ولذلك بدأت الحديث بها، وخصصتها بشيء من تفصيل؛ لأهميتها وفاعليتها المؤثّرة في هذا الشّعْر، والقصيدة الطّويلة التي لم تكن تشكّل ظاهرة لافتة، وورودها كان محدوداً، تمثّل بصورة واضحة في بعض قصائد الهجاء الشّخصي[1]، والهجاء الاجتماعيّ.

أمّا الهجاء السياسيّ، فلم يكن يشكّل موضوعاً مستقلاً في قصيدة، وإنّما كان يرد في قصيدة الجهاد والمدح ضمن محاور أخرى، كالدّعوة إلى الجهاد والوحدة، والإشادة بالقائد المسلم، والتّغنّي بالنّصر، والتّعريض بالعدوّ، وغير ذلك. ولذا آثرت ألا أتناول هذا الموضوع في هذه الدّراسة، إذ من غير المسوّغ فنيّاً، اجتزاء هذا الجانب، وعزله عن بقيّة أجزاء القصيدة، لإقامة بعض الأحكام عنه؛ فدراسته – من الوجهة الفنيّة – في قصيدة الجهاد أو المدح أنسب وأليق. وهو ما قام به بعض الدّارسين[2].

---

(1) انظر – على سبيل المثال – نماذج من ذلك في: القاضي الفاضل، ديوانه: 2/ 412-415، 2/ 430-433؛ ابن دانيال، المختار من شعره: 96-99، 170-172.

(2) انظر مثلاً: هنرييت سابا: اتجاهات الشعر العربيّ في بلاد الشّام: 384-386؛ عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية: 235-253؛ وقد انسحب هذا الإجراء المنهجيّ على الجوانب الفنيّة الأخرى المتعلّقة بهذا الشّعر من صور وأساليب وغير ذلك.

2. اللغة والأسلوب

1

من الواضح أنّ ثمّة ارتباطاً ما بين موضوع النّصّ الأدبيّ وأسلوبه الذي يرد فيه، وقد تنبّه لهذا الأمر بعض النّقاد قديماً وحديثاً[1]؛ فالأسلوب الذي يناسب – مثلاً – شعر الغزل بما يتطلّبه من رقّة وسلاسة، هو غير الأسلوب الذي يناسب الفخر بما يتطلّبه من قوّة وفخامة، وهكذا الحال في بقيّة الموضوعات الشّعريّة التي يتطلّب كلّ منها نسقاً تعبيريًّا مختلفاً عن الآخر. ومن هنا فقد آثر شعر الهجاء – في مجمله – الأسلوب الشّعبيّ الذي يناسب طبيعته؛ فجنح في لغته إلى السّهولة والوضوح، بل لقد اقتربت ألفاظ هذا الشّعر – في كثير من الحالات – من لغة النّاس المحكيّة، وتعبيراتهم الدّارجة. وليس هذا الأمر بمستغرب إذا ما عرفنا أنّ الشّاعر الهجّاء يهدف إلى شيوع شعره بين النّاس ليؤدّي غرضه المرجوّ، ولن يتأتّى له شيءٌ من هذا إلا بمراعاة الذّوق الشّعبي العام الذي يؤثر القول المباشر، والمعنى الواضح القريب. ولعلّ هذا الملمح الأسلوبيّ قد اتّضح في كثير من الشّعر الذي ورد في فصول هذه الدّراسة المختلفة.

وتأكيداً لهذه النّزعة، فقد كان الشّاعر في هذا الاتّجاه كثيراً ما يؤثر التّعابير الشّعبيّة، واللغة الجارحة التي من شأنها أن تستدرّ قدراً من الإثارة والشّيوع، على الرّغم مما تركه هذا التوجّه – أحياناً – من أثر سلبيّ على فنيّة هذا الشّعر. ومن الأمثلة على ذلك قول علي بن عرام ساخراً من أحد شعراء عصره[2]:

شاعرُنا ذو لحيةٍ قَدْ عَرَضَتْ وانْفَسَحَتْ

---

(1) انظر مثلاً: ابن طباطبا، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت322هـ)، عيار الشّعر، تحقيق: عبدالعزيز المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985م: 11؛ رينيه ويليك، وأوستن وارين، نظريّة الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، ط3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985م: 188.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر): 2/ 172.

لحـــيةُ تَيْـــسٍ صَـلُـــحَتْ　　لِفَقْحَـــةٍ قَـــدْ سَـلحَـــتْ

ويكثر مثل هذا الأداء التّعبيريّ – بصورة لافتة – في شعر ابن عُنين الذي يحتاج وحده في الجانب دراسة مستقلّة لا يتيسّر لها مثل هذا المقام؛ إذ يعمد – في سبيل السخريّة من مهجوّيه وتحقيرهم – إلى العبارات الجارحة التي تصدم الذّوق وتخدش الحياء أحياناً، من ذلك مثلاً قوله في الرّشيد النابلسيّ، عامداً إلى المبالغة في الانتقاص من قدره وقيمته[1]:

قيلَ لي إنّ مـدلـويهِ بـنَ بَدْرِ　　قَتَلُـوهُ بالـصَّفْعِ أشْنَعَ قَتْـلِ

قُلْـتُ عَظَّمْـتُمُ القـضيَّةَ في دَلْـ　　ـوِ خَلِيْـعٍ قَـدْ رَقَّعُـوهُ بِنَعْلِ

ومنه أيضاً قوله في القاضي، متمادياً في الفحش والإساءة منه[2]:

كَمْ ذا التَّبظـرُمُ[3] زائـدًا عـنْ حـدِّهِ　　مـا كـانَ قَبْلَـكَ هكـذا الحُـدْبانُ

..أظهـرْتَ فَـضْـلَ تُقـىً وتَعَفُّـفٍ　　واللهُ يَعْـلَمُ أنّـهُ بُهْتَـانُ

مـا طـالَ في اللّيـلِ البهيـمِ سُجُـودُهُ　　إلا لِيَرْكَـعَ فَـوْقَـهُ الـسُّودانُ

ومن الأساليب التي تقرّب الهجاء من المزاج الشّعبيّ، الميل إلى ما يشبه النّكتة المستملحة التي من شأنها أن تكتب لهذا الشّعر شيوعاً وانتشاراً؛ لإقبال الناس عليها وتقبّلهم لها. ويمكن التّمثّل – على هذا المنحى – بقول قمر الدّولة الكتاميّ[4] الذي يستغلّ سواد أحد الكُتَّاب، فيهجوه بقوله[5]:

(1) ابن عُنين، ديوانه: 187.

(2) المصدر نفسه: 188-189.

(3) التبظرم: أن يتكلم الإنسان مشيراً بخاتمه في وجوه الناس.

(4) هو جعفر بن علي بن دواس، أبو طاهر الكتامي المعروف بقمر الدولة، من أهل مصر، نشأ بطرابلس الشام، توفي بعد الخمسمائة. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 287.

(5) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر): 2/ 219.

هـذا ابـــنُ أفلـــحَ كـــاتبٌ مُتَـــفرِّدٌ بِـــصِفـــاتِـــهِ
أقْلامُـــهُ مِـــنْ غَـــيْرِهِ ودُواتُـــهُ مـــن ذاتِـــهِ

وتظهر روح النكتة هذه أيضاً، على لسان ابن النقيب في هجاء شخص يسمّى (العلق)، وإن جاء قوله – مع ذلك – موجعاً[1]:

قـــالوا رَأينـا العلـقَ يُنْفِـقُ مُـسْـرِفاً والعلـــقُ لا شيءٌ لديـهِ ولا مَعَـــهْ
فـأجبتُهُم إنْفاقُـــهُ مـنْ سُـــرْمِـــهِ قـالوا صَـدقْتَ لـذاكَ يُنْفِـقُ مِـنْ سَـعَهْ

وكان من ملامح هذا الأسلوب الشّعبيّ أيضاً، جنوح الشّعراء إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة، والإكثار من النّظم فيها، ولعلّ ذلك يعود إلى ما توفّره هذه الأوزان من خفّة وحيويّة، وكأنّهم كانوا يرون في استخدام هذه الأوزان الطّيعة السّهلة وسيلة لانتشار شعرهم بين أوساط العامّة الذين لن يجدوا عنتاً وصعوبة في حفظها وترديدها. والأمثلة على هذا كثيرة، منها – مثلاً – قول البديع الدّمشقيّ[2] في أحد القضاة – من مجزوء الرّجز[3] – :

حـــاكِمُكُـــــمْ بَهيْمَـــــةٌ لَيـــستْ تُـــســـاوي العَلَفَـــا
وليـــسَ فيــــهِ مُـــضْغَةٌ طَـــيِّبــــةٌ إلا القَـــفـــا

وقول البهاء زهير في اثنين من الثُّقلاء – من مجزوء الخفيف –[4]:

وثـــقيلٍ مـــا بَـــرِحْـــنـــا نَتَمَـــنّى البُـــعْـــدَ عَـــنْهُ

---

(1) الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 330.

(2) هو طراد بن علي بن عبد العزيز الدمشقيّ الكاتب، المعروف بالبديع. توفي في مصر سنة 524هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: 2/ 131.

(3) الكتبي، فوات الوفيات: 2/ 133.

(4) البهاء زهير، ديوانه: 262.

غـــابَ عَـــنّا فَفَـــرِحْنـــا   جـــاءَنا أثقـــلُ مِـــنْهُ

وقريب منهما قول ابن عُنين في أحد الكحّالين – من مجزوء الكامل –[1]:

كُحْـــلُ الـــشّريفِ مُقـــاربٌ   كَـــمْ ناظِـــرٍ قَـــدْ أغْمَـــضـــا

تُلْقَـــى الـــدَّوا بيمـــينِـــهِ   وشمالُـــهُ تُعْطـــي القَـــضـــا

وواضح أنّ هذه الأبيات قد جمعت إلى جانب الأوزان القصيرة، طرافة وبساطة ظاهرتين؛ فضلاً عن أنّ كلاً منها لم يجاوز البيتين، وفي مثل هذا ما يمكن أن يحقّق لها قبولاً ورواجاً لدى عامّة الناس.

وعلى الرغم من أنّ الصّنعة قد وجدت سبيلها إلى شعر هذه الفترة بصورة عامّة، ولاقت من نقّاد العصر وأدبائه رضاً واستحساناً[2]، إلا أنّ شعر الهجاء مال – في كثير من نماذجه – إلى الأسلوب الشّعبيّ المطبوع الذي لا تكلُّف فيه، ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ الشّاعر كان – فيما يبدو – منسجماً مع ذاته التي لم يكبّلها – كما ذكر – ببعض الضّوابط والقيود، فلم يكن يعنيه – في أغلب الأحيان – أن يرضي توجّهاً ما، أو يراعي اشتراطات مفروضة، بل إنّ موضوع الهجاء من أكثر الموضوعات القائمة على الرّفض ومخالفة السّائد، وصدم الذّوق بما يؤذيه أحياناً، فكأنّ الشّاعر، والحالة هذه، كان يعبّر عن خواطر نفسه بتلقائيّة وعفويّة، متحرّراً من ضروب الصّنعة البديعيّة التي شاعت في كثير من أدب هذه الفترة. وفي هذا – كما أرى – ما كفل لكثيرٍ من نماذج هذا الشّعر بعض الجدّة في الشّكل والمضمون معاً، فبرزت في هذا الشّعر صفة الواقعيّة، والتّعبير عن صور من المشاهد اليوميّة بحيويّة وحرارة، وبذلك فقد نجت أجزاء واسعة من هذا الشّعر، مما وقع فيه غيرها من شعر هذه الفترة الذي تحوّل قسم منه إلى استقراء واع لما أنتجه

---

(1) ابن عُنين، ديوانه: 218.

(2) حول الاهتمام بظاهرة البديع، وكثرة التأليف فيها، انظر: محمد زغلول سلام، تاريخ النقد العربيّ من القرن الخامس إلى العاشر الهجريّ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بلا تاريخ.

الآخرون في مجال من المجالات، بدلاً من أن يستبطن الشّاعر ذاته، ويستمدّ من تجاربه، ثم يعبِّر تعبيراً صادقاً عن موقفه هو عن الأحداث، أو الموضوعات التي يودّ النظم فيها[1].

والنّماذج على هذا الأسلوب السّلس المطبوع المتحرِّر من قيود الصّنعة الثّقيلة كثيرة، ولعلّه قد استبان بعض منها في فصول سابقة من هذه الدراسة، ولا بأس – مع ذلك – من التّمثُّل هنا ببعض الشّواهد المقصود التي لا تشكّل استقصاء، من ذلك – مثلاً – قول أسامة بن منقذ – الذي تميّز من بين شعراء عصره بالاقتصاد في استخدام الصّنعة – في تصوير هذا النّموذج البشريّ[2]:

ومُمَاذقٍ رَجْعُ النِّداءِ جَوابُهُ ... فإذا عَرا خَطْبٌ فأبْعَدُ مَنْ دُعِي

مِثْلُ الصَّدى يَخْفَى عليَّ مَكانُهُ ... أبداً، ويملأُ بالإجابَةِ مسْمَعي

ومنها كذلك قول ابن عُنين الذي يسوق نقده لناظر الأيتام بدمشق بهذه الأبيات التي تميّزت بقرب المأخذ وتلقائيّة التّعبير، يقول[3]:

يا مَعْشَرَ النّاسِ حالي بَيْنَكُمْ عَجَبُ ... وَلَيْسَ لي بَيْنَكُمْ يا قَوْمُ أنْصارُ

هذا ابنُ كاملٍ قَدْ أوْدَعْتُهُ ذَهباً ... صُيَّابةً[4] ما لها في العَيْنِ مِقْدارُ

وجِئْتُ أطْلُبُها مِنْهُ وَقَدْ عَرَضَتْ ... في السُّوقِ مني لُباناتٌ وأوطَارُ

فَقامَ يَنْفضُ كُمّيهِ ويَنْظُرُ في ... صُنْدوقِهِ ويُنادي جرَّها الفارُ

فَقُلْتُ لا شَبَّ قَرْنُ الفارِ كَمْ أكَلُوا ... مالَ اليَتيمِ وكَمْ جرُّوا وكَمْ جارُوا

(1) محمود إبراهيم، صدى الغزو الصّليبي في شعر ابن القيسراني: 196.

(2) أسامة بن منقذ، ديوانه: 303.

(3) ابن عنين، ديوانه: 138.

(4) الصيّابة: الخالص من كلّ شيء.

وكي لا تبدو الدّراسة ذات منحى تسويغيّ خالص؛ تحاول أن تقدِّم النّموذج المقبول فنيّاً، وتغفل النّموذج الرّديء، فإنه لا بدّ من الإشارة إلى أنّ التّفاوت – مع ذلك – كان ملحوظاً في مستوى هذا الشّعر بين نموذج وآخر، فثمّة شعر – في هذا الإطار – كان قليل الغِناء، ولا حظّ يذكر له من الإبداع؛ فكأنّ إيثار الشّاعر للبساطة، وتعجّله في نظم ما يخطر في باله لأوّل وهلة، وانسياقه – أحياناً – لانفعالاته وعواطفه الثائرة دون تريّث، وإعادة نظر، كان له – من جانب آخر – أثر سلبيّ في إنتاج نماذج لا قيمة فنيّة لها، على نحو ما يبدو – مثلاً – لدى هبة الله بن وزير الذي يقترب في قوله من السبّاب المحض[1]:

يا مَنْ دَعَوهُ الرّئيسَ لا عَنْ ... حقيقةٍ بَلْ عَلى مجازِ

لَسْتُ أُكافيكَ عَنْ قَبيحٍ ... مِنْكَ بِهَجْوٍ ولا أُجازي

وما عَسى تَبْلُغُ الأهاجي ... عَنْ رَجُلٍ كُلُّه مَخَازي

وقول ابن السّاعاتي الذي لا يبتعد كثيراً عن سُباب العامّة وشتائمهم[2]:

جُنَّ أبو العقلَيْنِ والـ ... ـمالُ الّذي جَنَّنَهُ

وَيْلاهُ ما أَبْخَلَهُ - الـ ... ـكَلْبُ – وما أجْبَنَهُ

قُلْ فِيْهِ كُلَّ مُعْضِلٍ ... فإنّهُ وإنّهُ..

واقتربت نماذج من هذا الشّعر من لغة النّثر المباشرة التي لا أثر فيها للشّعر إلا من الوزن والقافية. ومن الشّواهد على هذا قول الشّاب الظّريف في انتقاد بعض المظاهر الاجتماعيّة في عصره[3]:

---

(1) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر): 2/ 191.

(2) ابن الساعاتي، ديوانه: 2/ 178.

(3) الشاب الظريف، ديوانه: 33؛ وللاستزادة انظر: 70.

هــذا الفقـــيرُ الّــــذي تـــراهُ كـــالفَرْخِ مُلقـــىً بِغَـــيْرِ ريـــشِ
قَـــدْ قَتَلتْـــهُ الحـــشيشُ سُكْـــراً والقَتْـــلُ مِـــنْ عـــادةِ الحـــشيشِ

وقول ابن قادوس في شخص يدعى ابن العلاني[1]:

هــذا ابــنُ عــلانيكـــمُ، شِـعْرُهُ يَنُــوبُ في الــصَّيفِ عــنِ الخَيـــشِ
إنْ لمْ يكُــنْ مِثْــلَ امــرئ القــيسِ في أشعـــارِهِ فَهْــوَ امـــرؤ الفَــيْشِ

ومن الواضح تدني المستوى الفنيّ لهذه النّماذج الشعريّة.

ومع أنّ شعر الهجاء مال بصورة عامّة إلى الأسلوب المطبوع كما ذكر قبل قليـل، إلا أنّه لم يخل تماماً من الصّنعة التي تبدّت في بعض نماذجه. على نحو ما يتّـضح – مـثلاً – مـن قول القاضي الفاضل – الذي يلاحظ سعيه الـدّائب إلى تطلُّـب الـصّنعة في شـعره ونثـره على حدّ سواء – في كحّال، لاجئاً في سخريته منه إلى المجانـسة اللفظيّـة الـتي لا تخلـو مـن تكلّف[2]:

رجُــلٌ توكّـــلَ لـــي وكحّــــلني فَـــدُهيْتُ في عَـــيْني وفي عَـــيْني[3]
وخَـشِيْتُ تَنْقُــلُ نَقْــطَ كُحْــلتِــهِ عــينيَّ مـــن عَـــيْنٍ إلى غَـــيْنِ

ويلجأ الفاضل – أحياناً – إلى الطّرافة والجدّة في استخلاص المعاني، ولكنّ المتأمّـل لمثل هذه المعاني، يلحظ أنّها وليدة جهد عقليّ يحـرص علـى الـصّنعة، ويـسعى في تطلّبهـا وذلك كما يبدو من قوله في الكحّال نفسه[4]:

عــادى بَــني العبّــاسِ حتّــى إنّـــهُ خَلَــعَ الــسَّوادَ مــن العُيُــونِ بِكَحْلِــهِ

---

(1) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر): 1/ 234.

(2) القاضي الفاضل، ديوانه: 2/ 438.

(3) يريد بالعين الأولى: الباصرة، والثانية: النقد، المال.

(4) القاضي الفاضل، ديوانه: 2/ 429.

https://www.books4arab.com

ويلاحظ أنّ قدراً من التّمحّك والتّصنُّع كان ظاهراً في بعض هذا الشِّعر، ولعلّ في قول ابن قلاقس الذي يهجو شخصاً يسمّى (أحمد) ما يدلّ على مثل هذا الحكم[1]:

قُلت لمَنْ يَسْأَلُ عَنْ أحمدٍ ... ما أحمدٌ عِنْدي بِمَحْمُودِ[2]

نَزْرٌ فَلَوْ ماتَ لما كانَ في ... جُثّتِهِ ما يأكُلُ الدُّودُ

وساقِطُ الهِمَّةِ لو أنّهُ ... يُصْلَبُ ما قامَ لهُ عُودُ

ويَعْشَقُ السُّؤددَ لكنّهُ ... يَعْجَزُ دالاً فَهُوَ السُّودُ

ويبدو الأمر أكثر وضوحاً في أبيات لكمال الدّين بن العديم الذي يحوّل الشِّعْر إلى عمليّة اشتقاقيّة جافّة لتوليد بعض المعاني المتكلّفة المتمحلّة[3]:

احْذرْ من ابنِ العَمِّ فهوَ مُصحَّفٌ ... ومن القريبِ فإنّما هو أحْرَفُ

القافُ من قَبْرٍ غَدا لكَ حافِراً ... والرَّاءُ منهُ ردىً لِنَفْسِكَ يَخْطَفُ

والياءُ يأسٌ دائمٌ من خَيْرِهِ ... والباءُ بُغْضٌ منهُ لا يَتَكيَّفُ

فاقْبلْ نصيحتيَ الّتي أهديتُها ... إنّي بأبناءِ العُمومةِ أعْرَفُ

2

ومع وضوح النّزعة الشّعبيّة في هذا الشِّعر، واقتراب نماذج كثيرة منه – كما تبيّن – من تراكيب العامّة ومعانيهم، فإنّ قسماً منه – بالمقابل – تضمّن بعداً معرفيّاً وثقافيّاً، تمثّل بانفتاح بعض الشّعراء على نصوص التّراث، وتوظيفها في التّعبير عن مضامين شعرهم. وهو أمر يعبّر عن جوانب من ثقافة أولئك الشّعراء، وتمثّلهم لتراث أمّتهم، وتواصلهم معه.

(1) ابن قلاقس، ديوانه: 302.

(2) في البيت إقواء.

(3) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: 16/ 54.

وقد كان في طليعة هذه النصوص التي استدعاها شعراء هذه الفترة، القرآن الكريم الذي كان حضوره لافتاً في أدب هذه الفترة بصورة عامّة، باعتباره شكلاً من تعامل الأدباء مع تراثهم الدّينيّ الذي كان تواصلهم معه – في هذا العصر بالذّات – تواصلاً حميماً؛ ولعلّ ذلك بتأثيرٍ من صراع العقائد الذي تأجّج بفعل الحروب الصّليبيّة. هذا فضلاً عن استحسان ذوق العصر وقبوله لمثل هذا التّأثّر[1].

وقد جاء توظيف الشّعراء لهذا الخطاب القرآنيّ على غير صورة، منها: أن يلجأ الشاعر إلى الاقتباس المباشر دون أي تغيير أو تبديل على لفظ الآية الكريمة المقتبسَة. ومن الشّواهد التي تمثّل ذلك قول ابن النّقيب ساخراً من أحد السّادة الذين لم يكونوا يلقون بالاً للبسطاء من أمثاله كما يقول[2]:

ما كانَ عَيْباً لو تفقّدتَني	وَقُلْتَ هَلْ أبْهَمَ أوْ أنْجَدَا
فَعَادةُ السَّاداتِ مِنْ قَبْلُ أنْ	يَتَفَقَّدُوا الأتْباعَ والأعْبُدا
هذا سُلَيْمانُ على مُلْكِهِ	وهوَ بأخْبارٍ لهُ يُقْتَدى
تَفَقَّدَ الطَّيرَ وأجْناسَها	"فقال مالي لا أرى الهُدْهُدا"

فالشّطر الثاني من البيت الأخير، هو اقتباس مباشر من قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾[3]، وقد جاءت الآية الكريمة في مقام التّهديد والوعيد، حيث يرد الخطاب القرآني على لسان سليمان عليه السّلام متوعداً الهدهد بعد الآية السّابقة: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[4]

(1) ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح (ت637هـ)، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1939م: 2/ 341.

(2) الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 325.

(3) سورة النمل، الآية: 20

(4) سورة النمل، الآية: 21.

غير أنّ الشّاعر قد نقل دلالة الآية الكريمة إلى مقام تفقّد الرّاعي لرعيته، وسؤاله عن أوضاعها؛ لتؤدّي دلالة جديدة تتفق ومبتغاه.

وأحياناً كان الشّاعر يلجأ إلى التّصرف في لفظ الآية الكريمة عن طريق التّقديم والتّأخير أو التّبديل، وقد كان هذا الأسلوب أكثر شيوعاً من سابقه، ومما يمثل ذلك قول ابن قادوس في رجل كبير الأنف[1]:

عليكَ لا لَكَ أنفٌ ظلَّ مُشْترفـاً ... حتّى غَدا بِنُجُومِ الأُفْقِ مُلتصقا

فلا تُقلْ خلقةُ اللهِ ازدريْتَ بها ... فَقَدْ يعاذُ بِهِ مِنْ شرٍّ ما خَلَقَا

وواضح أنّ عجز البيت الثاني مقتبس من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾[2]، بعد أن تصرّف الشّاعر قليلاً في ترتيب الآية الكريمة، وبعض كلماتها.

ومنه أيضاً قول الزّكي القوصي[3]، في هجاء أحد الولاة بعد أن أمر بنفيه من مصر إلى الشّام[4]:

لا تحسبِ الهيتيَّ يُفْلحُ بَعْدَها ... ونُحُوسُهُ يَتبَعْنَهُ أنّى سَلَكْ

قدْ غُلّقتْ أبوابُ مِصْرٍ دُونَهُ ... بُغضًا لطَلْعَتِهِ وقالتْ هَيْتَ لَكْ

(1) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر): 1/ 234.

(2) سورة الفلق، الآيتان: 1، 2.

(3) هو عبد الرحمن بن وهيب، زكي الدين القوصي الكاتب، ناثر وشاعر، توفي سنة 640هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: 2/ 304.

(4) الكتبي، فوات الوفيات: 2/ 306.

ففي هذين البيتين اقتباس واضح – مع بعض التّصرّف البسيط – من قوله تعالى في وصف قصّة يوسف عليه السّلام مع امرأة العزيز: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (1).

ومن الأساليب التي تبدّت في توظيف الخطاب القرآنيّ، إشارة بعض الشّعراء إلى مضمون الآية الكريمة دون ذكره، على نحو ما يبدو – مثلاً – من قول علي بن عرام في هجو جماعة خيّبوا ظنّه بعد أن أراق ماء وجهه في مدحهم كما يقول، فعاد خائباً لم يحصّل غير النّدم(2):

خَدمتُكُمْ بالنَّظْمِ والنَّثْرِ عُمْري فَمَا أَصْلحتُمْ أَمْري

فَرُحْتُ عَنْكُمْ خائباً حائراً في فِقَرٍ أدّتْ إلى فَقْرِي

أَقْرعُ سنّي نَدَماً تارةً وتارةً أقرأ "والعَصْرِ"

ففي قوله: "والعصر"، إشارة لا تخفى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ (3). ويشبه هذا إلى حدّ بعيد قول ابن دانيال في الغرض ذاته(4):

مَنْ مُنْصِفِي مِنْ مَعْشرٍ ألْبستُهُمْ مَدْحي وظَنّي أنّهُمْ كُبراءُ

قالُوا وما فَعَلُوا لبُخْلٍ فيهمُ فكأنّهُمْ كانُوا هُمُ الشُّعراءُ

فهو يشير إلى مضمون الآية الكريمة التي تصف نفراً من الشّعراء بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (5)، مستثمره في التّعبير عن مقصده الهجائيّ، ولكنّ الافتعال – مع ذلك – كان بادياً في تطلّب هذا المعنى.

---

(1) سورة يوسف، الآية:23.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر) : 2/ 190.

(3) سورة العصر، الآيتان: 1، 2.

(4) ابن دانيال، المختار من شعره : 230.

(5) سورة الشّعراء، الآية: 226.

ولجأ الشّعراء – أحياناً – إلى استيحاء القصص القرآنيّ، وتوظيفه في هجائهم. وقد تبدّى شيءٌ من ذلك في بعض الأمثلة السّابقة، ويتبدّى شيءٌ منه أيضاً، في قول القاضي الفاضل الذي يستوحي دلالة قصّة أهل الكهف لتصوير مماطلة أحد الأمراء في عطائه[1]:

لبثْتُ على بابِ الأميرِ مُعلَّلاً بوعْدٍ أسيرٍ في سلاسلِ مطْلِهِ

فيا أيُّها الكَهفُ الذي قد رجُوتُهُ لقدْ نِمْتَ عنّي مِثْلَ نوْمَةِ أهْلِهِ

ومثل هذا يلحظ في قول ابن المسجّف في استيحائه قصّة يونس عليه السّلام، لتوظيفها في النّيل من أحد مهجوّيه، متوسّلاً بالمقارنة التي تنتهي بتحقير المهجوّ، من خلال استحضار هذا الرّمز القرآني[2]:

يقيسُونَ يحيى بالفِعالِ بيُونُسٍ وهذا على ضدٍّ القياسِ المؤسَّسِ

وكيف يصحُّ الحكمُ والحوتُ بالعٌ لذاكَ، وهذا بالعٌ حوتَ يُونسِ

وثمّة إشارات إلى قصص قرآنيّة أخرى، تمّ توظيفها في هذا الشّعر، كقصّة يوسف عليه السّلام مع امرأة العزيز[3]، وقصّة موسى عليه السّلام مع عصاه[4]، وقصّة ابن نوح[5]، وقصّة إبراهيم عليه السّلام مع الأصنام[6]. وقد تراوح هذا التّوظيف بين الاستحضار الذي لم يتعدَّ ذكر الاسم، وبين الاستحضار الذي وجّه – في حدود مقتضيات العصر وثقافة الشّاعر – بما يخدم النّص ويكسبه دلالات فاعلة.

---

(1) القاضي الفاضل، ديوانه : 2/ 427.

(2) الكتبي، فوات الوفيات: 2/ 286.

(3) عرقلة الكلبي، ديوانه: 87؛ الكتبي، فوات الوفيات: 2/ 133، 2/ 306.

(4) ابن عُنين، ديوانه: 217، 240.

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات: 3/ 237.

(6) القاضي الفاضل، ديوانه: 2/ 438-439.

ومن ملامح التأثّر بالنّص القرآنيّ الكريم أيضاً، شيوع بعض الألفاظ والرّموز القرآنيّة، من مثل: أبي لهب[1]، ومالك وجنوده[2]، وفرعون[3]، وأسماء الأصنام: (يعوق، ويغوث، وودّ)[4]، وثمود[5]، وعذاب السّعير[6]، وغير ذلك.

واستفاد الشّعراء، في إطار الموروث الدّيني أيضاً، من أحاديث الرّسول عليه السّلام – وإن كان ذلك على نحو أقلّ – كما يبدو مثلاً في قول شهاب الدّين بن غانم[7] في هجاء أحد الفقهاء[8]:

ما اعتكافُ الفقيهِ أخْذاً بأجْرِ	بلْ لِحُكْمٍ قضى به رَمَضانُ
هو شَهْرٌ تُغَلُّ فيهِ الشّياطيـ	ـنُ، ولا شكَّ أنّهُ شيْطانُ

ففي هذا استفادة واضحة من قول الرّسول عليه السّلام: "إذا جاء رمضان، فُتّحتْ أبواب الجنّة، وغُلّقت أبواب النّار، وصُفّدت[9] الشّياطين"[10].

---

(1) ابن الساعاتي، ديوانه: 2/ 154؛ القاضي الفاضل، ديوانه: 2/ 415-416.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر):2/ 229.

(3) فتيان الشاغوري، ديوانه: 237.

(4) الكتبي، فوات الوفيات: 3/ 441.

(5) القاضي الفاضل، ديوانه: 2/ 439.

(6) ابن عُنين، ديوانه: 144.

(7) هو أحمد بن محمد... الزيني الجعفري، كاتب مترسّل، باشر الإنشاء بصفد وغزة وقلعة الروم، ولد سنة 650هـ، وتوفي سنة 737هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 127.

(8) الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 129.

(9) صُفّدت: الصّفد هو الغلّ. أي أوثقت بالأغلال.

(10) مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت261هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، بلا تاريخ: 2/ 758 (كتاب الصيام، حديث رقم 1079).

وبدا التّأثر واضحاً كذلك ببعض مصطلحات الفقه وأحكامه؛ فقد استعار عدد من الشّعراء هذه المصطلحات وسخّروها في أهاجيهم، ومما ورد في ذلك قول ابن عُنين في هجاء أحدهم[1]:

أَصْبَحَ صَفْعُ المُرتَضَى بينَ الأنامِ مُرتَضَى
وكانَ "مندُوباً فأضْحَى "واجِباً" مُفْتَرَضَا

ومنه أيضاً قول سيف الدّين المشدّ الذي يسوّغ هجاءه التّعميميّ بهذا الحكم الفقهي"[2]:

وقالوا صَحِبْتَ الجاهلينَ سَفاهةً فقُلتُ اسمَعُوا عُذْرِي ولا تُوسِعُوا عَتْبِي
تَيَمّمْتُهُمْ لَمّا عَدِمتُ ذَوي النُّهى ومَنْ لَمْ يَجِدْ ماءً تَيمّمَ

3

ومن التقنيات الفنيّة المرتبطة بأسلوب هذا الشّعر ولغته، تقنية "التّضمين"، وهو- كما يعرِّفه النّقاد القدامى – "قصدك إلى البيت من الشّعر أو القسيم فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثّل"[3]. وتعدّ هذه الوسيلة الفنيّة تعبيراً عن اتّصال الشّعراء بموروثهم الأدبيّ، وتوظيفهم له بما يخدم تجاربهم المعاصرة، وينسجم مع دلالة نصوصهم الشّعريّة. ومن الأمثلة على ذلك تضمين السّراج الحّار لشطر من شعر امرئ القيس في مقام سخريته من شخص جسّد هيئته على هذا النّحو السّاخر[4]:

---

(1) ابن عُنين، ديوانه: 200.

(2) سيف الدّين المشد، ديوانه (ميكروفيلم): 60.

(3) ابن رشيق، العمدة: 2/ 702.

(4) الكتبي، فوات الوفيات: 3/ 147.

أرى لابنِ سَعْدٍ لِحيةً قدْ تكامَلَتْ   على وَجهِهِ واسْتَقْبَلَتْ كُلَّ مُقْبِلِ

ودارَتْ على أنْفٍ عظيمٍ كأنّهُ   كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزمَّلِ

فالشّطر الثاني من البيت الثاني هو تضمين مباشر من قول امرئ القيس في جبل إبّان(1):

كأنّ أباناً في أفانين ودْقِهِ   كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزمَّلِ

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً، تضمين فتيان الشّاغوري لبعض شعر المتنبيّ، على نحو ما يتّضح في الأبيات التالية(2):

نَصرٌ طبيبٌ ولكنْ لم يَعُدْ أحَداً   إلا وسَاقَ إليه طِبُّهُ الأجَلا

فظَلَّ يُنْشِدُ والأسقامُ تَنْهَبُهُ:   أحْيا، وأيسرُ ما قاسيتُ ما قَتَلا

كمْ قائلٍ قالَ: لولاهُ، لما وَجَدَتْ   لها المنايا إلى أروحِنا سُبُلا

فعجز البيت الثاني من بيت هو مطلع قصيدة للمتنبيّ(3):

أحيَا وأيسرُ ما قاسيْتُ ما قَتَلا   والبَيْنُ جارٍ على ضَعْفِي وما عَدلا

أما البيت الثالث من أبيات فتيان السّابقة، فإنّ أكثره مأخوذ من بيت للمتنبيّ أيضاً من القصيدة ذاتها(4):

لولا مُفارَقَةُ الأحْبابِ ما وَجَدَتْ   له المنايا إلى أرْواحِنا سُبُلا

---

(1) امرؤ القيس، ديوانه: 25.

(2) فتيان الشاغوري، ديوانه: 585.

(3) المتنبيّ، ديوانه: 3/ 282.

(4) المصدر نفسه.

وأبيات المتنبّي تأتي في سياق الغزل من قصيدة مدحيّة قالها في صباه، غير أنّ الشّاغوري قد تحوّل بهذه الدّلالة، ليوظّفها في سياق هجاء ذلك الطّبيب، فجاءت على نحو موافق لما أراد.

وتكثر هذه الظّاهرة في شعر ابن عُنين بصورة واضحة؛ فقد أكثر من استدعاء الموروث الشّعري السّابق، ووظّفه في التّعبير عن معانيه الهجائيّة. ويكشف استثمار ابن عنين لهذه الوسيلة الفنيّة عن ثقافة واسعة في معرفة الشّعر القديم، وتمثّل واع لكثير من نماذجه المشرقة. ومما يعبِّر عن ذلك – مثلاً – قوله في رجل بخيل بدمشق، كان يعمل لأصدقائه كلّ سنة دعوة ويتبرّم بها، يقول[1]:

أحبابَنا ما لهذا الهَجْرِ من أمدِ ... وَحَقِّكُمْ عزَّ صبري وانتهى جَلَدي

أبيضَةُ الدِّيكِ حظّي مِنْ وصالِكُمُ ... لا تَفْعَلُوا واجْعَلُوها دَعْوَةَ الأبدِ

عهدي بهِ واليدُ اليُمنى يكفُّ بها ... غربَ المَدامعِ والأُخرى على الكَبِدِ

يَقولُ للخبزِ لا يَبْعُدْ مَداكَ ولا ... أخنى عليكَ الّذي أخنى على لُبَدِ

ففي الشّطر الثّاني من البيت الأخير، تضمين من قول النّابغة الذبيانيّ في الدّيار بعد رحيل أصحابها عنها[2]:

أضْحَتْ خلاءً وأضْحى أهْلُها احْتملوا ... أخنى عليها الّذي أخنى على لُبَدِ

وتتميّز أبيات ابن عُنين السّابقة بسخرية لطيفة، جسّد – من خلالها – صورة ذلك البخيل الذي تنهمر دموعه مدرارة، وتتقطّع كبده لضيقه بهذه الدّعوة، على ندرتها التي تتكرّر في العام مرة. وتكمن براعة الشّاعر في قدرته على نقل دلالة قول النّابغة الذي جاء

---

(1) ابن عُنين، ديوانه: 146.

(2) النابغة الذبياني، ديوانه، جمعه وشرحه محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسيّة للنشر، جانفي، 1976م: 78.

في مقام الجدّ والتّأثر، إلى مقام السّخرية والهزل، مما أكسب أبياته حيوية وتجدّداً، على الرّغم من تباين تجربة كلّ من الشّاعرين، واختلافها عن الأخرى.

وعلى النّحو نفسه، جاء تضمينه لشيء من شعر المتنبّي، وذلك كما يبدو من قوله في هجاء أحد أطباء العيون في عصره[1]:

سُليمانُ السُّليماني يَبْغُو ... ويُصفَعُ دائماً في أخدعَيْهِ

يَرومُ تُطبُّبَ الأبصارِ جَهْلاً ... وكيفَ وداؤها نظَرٌ إليهِ

يُصافي بالمودَّةِ كلَّ نَذْلٍ ... شبيهٍ بالتَّزيهِ ومدلويهِ

ولكنْ ليسَ هذا منهُ بدعاً ... فشِبْهُ الشَّيءِ مُنْجذِبٌ إليهِ[2]

فقد ختم ابن عنين مقطوعته السّابقة بحكمة استمدّها من شعر المتنبّي الذي عرف في هذا المجال وبرع، لتأكيد فكرته وتدعيمها. ويلاحظ أنّ دلالة كلّ من النّصين كانت على درجة متقاربة من التّوافق، فكلا الشّاعرين ينقد – حسب رؤيته وموقفه – واقعاً غير سويّ. ومع هذا فقد تميّز نقد المتنبّي بطابع الجدّ والصّرامة، وتميّز نقد ابن عُنين بروح النكتة والدّعابة. وفي هذا ما يميّز تجربة شعريّة عن أخرى، ويكشف عن ملامح دالّة لكلّ منهما.

وفي إطار التأثر بالشّعراء السّابقين، لجأ بعض الشّعراء إلى أخذ المعنى، وبعض الألفاظ (إن لم يكن أغلبها)، دون التّصريح بذلك. وهو أمر يقود إلى قضيّة معروفة في

---

(1) ابن عُنين، ديوانه: 218.

(2) هذا العجز تضمين من قول المتني:

وشِبْهُ الشّيءِ مُنجذبٌ إليه ... وأشْبَهُنا بدنيانا الطّغامُ

النّقد العربيّ القديم، هي قضيّة "السّرقات الأدبيّة" التي كثر التّأليف فيها[1]؛ فمن يقرأ – مثلا – قول شرف الدّين الأنصاريّ في هجاء أحد الشّعراء[2]:

وَجَهْمِ الوجْهِ رذْلِ الشّعْر منْه رَجَوْتُ النَّفْعَ حيْثُ ضَرَىَ وضَيْرُ[3]

بَدَا لي وَجهُهُ فَخَشيْتُ شراً وأنْشَدَني، فقُلتُ: ... وخَيْرُ

لا يملك إلا أن يربطه – كما لاحظ ذلك محقّق ديوانه – بقول دعبل الخزاعي[4]:

خَرَجْتُ مُبكراً من "سُرّا مَنْ راْ" أبادِرُ حاجةً، فإذا عُمَيْرُ

فلمْ أثْنِ العِنانَ، وقُلتُ: أمْضي فوجهُكَ يا عميرُ... وخَيْرُ

فالمعنى في النّموذجين واحد، فضلاً عن اشتراكهما في الوزن والقافية، وبعض الألفاظ. وليس في قول عبد الله بن الطبّاخ الكاتب[5]:

قَصُرتْ أخادعُهُ وغَاضَ قذَالُهُ فكأنّه مُتوقّعٌ أنْ يُصفَعا

وكأنّهُ قَدْ ذاقَ أوّلَ دِرَّةٍ وأحسّ ثانيةً لَها فَتجمَّعا

سوى سلخ لقول ابن الروميّ، دون أدنى إضافة أو غاية[6]:

قَصُرتْ أخادعُهُ وغَاضَ قذَالُهُ فكأنّهُ مُتربصٌ أنْ يُصفَعا

---

(1) حول قضية السرقات انظر: بدوي طبانة، السّرقات الأدبية، دار الثقافة، بيروت، 1986م.

(2) شرف الدين الأنصاريّ، ديوانه: 549.

(3) يقال ضري الكلب بالصيد ضرى أي تعوده.

(4) دعبل بن علي الخزاعي (ت246هـ)، شعره، صنعة عبد الكريم الأشتر، ط2، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1983م: 137.

(5) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر):2/ 98؛ وعبد الله بن الطباخ ممن أدرجهم العماد في باب الشّعراء الذين عاصروا الأفضل الجمالي (ت515هـ) انظر: المصدر نفسه.

(6) ابن الرومي، علي بن العباس (ت283هـ)، ديوانه، مختارات المطبعة التوفيقيّة: 1/ 146، نقلاً عن: قحطان التميميّ، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري:415.

وكأنّما صُفِعَتْ قفَاهُ مرّةً   وأحسَّ ثانيةً لـها فَتَجمَّعا

ومن الواضح أنّه ليس في مثل هذا التّوظيف أيّة قيمة فنيّة تذكر، فهو لا يعدو أن يكون نسخاً وإعادة نظم للنّموذج المحتذى.

ولعلّ أطرف صور توظيف الموروث الشّعريّ في هذا الاتّجاه، ما يمكن أن يسمّى "بالمعارضة السّاخرة"، وهي التي تتّخذ من قصيدة سابقة نصّاً مرجعيّاً لها. غير أنّ المعارضة في هذا السّياق تعمد إلى "التّقليد الهزليّ، أو قلب الوظيفة، بحيث يصير الخطاب الجديّ هزليّاً، والهزليّ جديّاً ... والمدح ذمّاً، والذّمّ مدحاً"[1]. ويبرز هذا المنحى – بصورة خاصة – لدى أبي الحكم الأندلسيّ "الذي كان شاعراً خليعاً مطبوعاً، له ديوان سمّاه نهج الوضاعة، ذكر منه مثالب الشّعراء الذين كانوا بدمشق"[2]. وممّا قاله في أحدهم – وهو الطّبيب المفشكل اليهوديّ – هذه المعارضة السّاخرة التي تجري على النّحو التالي[3]:

ألا عُدْ عَنْ ذِكْرَى حَبيبٍ ومَنْزِلِ   وَعَرِّجْ على قَبْرِ الطَّبيبِ المُفَشْكَلِ

فيا رحمةَ اللهِ اسْتَهيني بقَبْرِهِ   وكوني عنِ الشَّيخِ الوضيعِ بمعزلِ

ويا منكراً جودًا هديت فذاله   بمقنعةٍ واسقلْهُ سَقْلَ السَّجَنْجَلِ

وكَبْكِبْهُ في قَعْرِ الجَحيمِ بِوَجْبَةٍ   كجُلمُودِ صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْل من عَلِ

لَقَدْ حازَ ذاكَ اللَّحْدُ أخْبَثَ جيفَةٍ   وأوْضَعَ مَيْتٍ بَيْنَ تُرْبٍ وجَنْدَلِ

سَأُسْبِلُ مِنْ بَطْنِي عَلَيْهِ مَدامِعِي   وأوْرِدُهُ مِنْ مائها شرَّ مَنْهَلِ

لعلَّ أبا عمرانَ حنّ لِشَخْصِهِ   وَقالَ لَهُ أسْرِعْ إليّ وعَجِّلِ

---

(1) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشّعريّ (استراتيجيّة التّناص)، ط2، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، 1986م:121.

(2) الكتبيّ، عيون التواريخ:12/ 480.

(3) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء:625؛ وانظر معارضة ساخرة أخرى في: ابن عنين، ديوانه: 231-232.

فما ضمَّ بَطْنُ الأَرْضِ أَنْجَس مِنهما وأَنْذَلَ مِنْ رَهْطِ الغويّ السَّمَوْأَلِ

فالأبيات تتكئ – كما هو واضح – على معلّقة امرئ القيس المشهورة التي مطلعها[1]:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ بِسقطِ اللّوى بَيْنَ الدّخول فَحَوْمَلِ

وتجعل منها مصدراً لتوليد بعض الصّور والمعاني، وقد تعدّى التّضمين هنا استعادة شطر أو جزء من بيت إلى استحضار بعض أبيات القصيدة المعارَضة والاستفادة منها في غير موضع. فهو يدخل ألفاظاً وأنماطاً تعبيريّة جاهزة – مع بعض التّحوير في بعضها أحياناً – من المعلّقة ليضمّنها أبياته، بحيث تبدو وكأنها جزء منها، وذلك على نحو ما يبدو – مثلاً – في "ذكرى حبيب ومنزل"، "واسقله سقل السّجنجل"، "وكجلمود صخر حطّه السّيل من علِ". غير أنّه يلاحظ ما بين سياق هذه الأبيات والمعلّقة من تغاير واختلاف؛ ففي حين تتّخذ معلّقة امرئ القيس صفة التّحسُّر والألم المتأتّي من وقوف قائلها على الأطلال، وحزنه على من رحل عنها، وخلّفها مقفرة موحشة. نجد أبيات أبي الحكم تنحو إلى الهزل والعبث الهادف إلى السّخرية والإضحاك من خصمه. وقد تبدّى توجّه الشّاعر الهزليّ كذلك في قلّة عدد أبيات قصيدته التي تكشف عن عدم جدّيته في محاكاة نصّ المعلّقة. وليس في الأمر غرابة لمن يستقرئ جانباً من سيرة هذا الشّاعر الذي كان "ديوانه كلّه هكذا يغلب عليه الهزل... وكان يهاجي أهل عصره، ويرثي أحياء لم يموتوا مجوناً منه وهزلاً"[2]. وقد اتّضح شيء من هذا في الفصل الأوّل من هذه الدّراسة. على أنّه لا بدّ أن يُسجّل لأبي الحكم – مع ذلك – في توظيفه هذا قدرته على التّحوّل بمقصد النصّ التراثيّ، إلى ما يخدم توجّهه الهزليّ هذا، فاكتسبت أبياته حيويّة وطاقة تأتّت لها من خلال تفاعل هذين النّصين وتداخلهما، مما يعني أنّ التّضمين هنا كان واعياً ومقصوداً، وليس مجرد اجترار وإعادة لا طائل وراءهما.

---

(1) امرؤ القيس، ديوانه: 8.

(2) الكتبيّ، عيون التواريخ:12/ 484.

وتتّخذ المعارضة – أحياناً – من نقد الواقع وإدانته هدفاً لها، و مما يمثّل ذلك قصيدة البوصيريّ المشهورة في نقد المستخدمين[1]:

ثكِلْتُ طَوائفَ المُستخدَمينا فَلَمْ أرَ فيْهِمُ رَجُلاً أمِيْنا

وقد سبق أن أشير هذه القصيدة في معرض الحديث عن الهجاء الاجتماعيّ. والنّاظر في القصيدة، يلاحظ أنّ ثمّة قواسم مشتركة بينها وبين معلّقة عمرو بن كلثوم المعروفة[2]:

ألا هُبّي بِصَحْنِكِ فاصبَحيْنا ولا تُبْقِي خُمُورَ الأنْدرِيْنا

ففضلاً عن اشتراك القصيدتين في الوزن والقافية، فإنّ قصيدة البوصيريّ تستعير من المعلّقة بعض تراكيبها وصورها مع بعض التّحوير فيها، وفي هذا ما يدلّ على أنّ معلّقة عمرو بن كلثوم كانت حاضرة في ذهن البوصيريّ وهو ينظم قصيدته. وسأورد عدداً من الأبيات المتفرقة التي تمّ اجتزاؤها من قصيدة البوصيريّ؛ لأوافقها – على التّرتيب – بأبيات أخرى من معلّقة ابن كلثوم؛ لإبراز مدى التّشابه والاحتذاء بين القصيدتين. يقول البوصيريّ:

- فَخُذْ أخْبارَهُمْ منّي شِفاهاً وأنْظِرْني لأُخبِرَكَ اليقينا
- بأيِّ أمانةٍ وبأيِّ ضبْطٍ أردُّ عن الخيانةِ فاسقينا
- وأقلامُ الجماعةِ جائلاتٌ كأسْيافٍ بأيْدي لاعبينا
- ولا تَحْسبْ حِسَابَهُمْ صحيحاً فإنّ بخَصْمِهِ الدّاءَ الدَّفينا
- فَصَالوا صَوْلَةً فيمَنْ يليهمْ وصُلْنا صَوْلَةً فيمنْ يلينا

(1) البوصيريّ، ديوانه: 266.

(2) الزوزني، الحسين بن أحمد (ت486هـ)، شرح المعلقات السبّع، تحقيق وتعليق: محمد عبد القادر أحمد، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1987م: 291.

- فَجِئْنا بالنِّهابِ وبالسَّبايا ... وجاءوا بالرِّجالِ مُصَفَّدينا
- وجِنٌّ مشارِفٍ بُعِثُوا شُهُودا ... فإنَّ من الوثوقِ بِهِمْ جُنُونا
- إذا ألقَى بها مَوسى عَصَاهُ ... تَلقَّفَتِ القوافلَ والسَّفينا

فهذه الأبيات تلتقي على نحو لا تخطئه العين، مع أبيات ابن كلثوم التالية، التي اجتزئت أيضاً دون مراعاة التّرتيب، مع الإشارة إلى أنّ التّأثر قد يكون على مستوى المعنى أو التركيب أو المفردة:

- أبا هِنْدٍ فلا تَعْجَلْ علينا ... وأنْظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليقينا
- بأيِّ مشيئةٍ عمرو بن هِندٍ ... تُطيعُ بنا الوشاةَ وتَزدرينا
- كأنّ سيوفَنا فينا وفيهِمْ ... مخاريقٌ بأيدي لاعبينا
- وإنَّ الضِّغْنَ بَعْدَ الضِّغْنِ يبدو ... عليكَ ويُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّفينا
- فصالُوا صَوْلَةً فيمَنْ يليهمْ ... وصُلْنا صَوْلَةً فيمَنْ يَلِينا
- فآبوا بالنِّهابِ وبالسَّبايا ... وأبنا بالملوكِ مُصفَّدينا
- ومأكمةً يَضيقُ البابُ عنها ... وكَشْحاً قدْ جُنِنْتُ به جُنُونا
- مَلأنا البَرَّ حتى ضاقَ عنّا ... وماءُ البَحْرِ نَمْلَؤُهُ سَفِينا

وعند النّظر في بنية كلّ من القصيدتين ومنهجها، يبدو الاختلاف بينهما واضحاً؛ ففي حين تضمّنت معلّقة عمرو بن كلثوم – على عادة القصيدة الجاهليّة – غير توقيع، كابتدائها بالخمر والنّسيب، وحديثها عن الظّغائن، والفخر بالقبيلة، وصولاً إلى تهديد عمرو بن هند، نلاحظ – في المقابل – أنّ قصيدة البوصيريّ قد تضمّنت موضوعاً واحداً، استقصت جوانبه وأبعاده بقدر من الإفاضة. وهو موضوع ذو ارتباط بحياة الشّاعر وعصره، وفي هذا ما يدلّ على أنّ الشّاعر كان على وعي بقيمة هذه الإفادة؛ فقد تمكّن من توجيه هذا التّضمين بما يخدم رؤيته التي يريد التّعبير عنها. ولعلّ هذا الوعي يتّضح

كذلك من خلال اختياره الموفّق لهذه المعلّقة دون غيرها، لإقامة هذا التّداخل والتّفاعل معها؛ فعلى ما بين القصيدتين من تغاير واختلاف سواء من حيث البناء أو المضمون كما ذكر، فإنّ المدقّق جيّداً فيهما يلاحظ مع ذلك أنّ كلتا القصيدتين تتحدّث عن أضرب الصّراع؛ فقصيدة عمرو بن كلثوم تتحدّث عن الصّراع القبليّ، وقصيدة البوصيريّ تتحدّث عن الصّراع الاجتماعي بين المستخدمين والعامّة، وتبع هذا الاختلاف في طبيعة الصّراع اختلاف في المعاني الجزئيّة التي تناولها كلّ شاعر[1].

ويرتبط بتوظيف الموروث الأدبيّ، تضمين بعض الشّعراء لأمثال وأقوال مشهورة، وقد حمل هذا التّضمين بعداً وظيفيّاً تمثّل في رغبة الشّاعر في تأكيد فكرته وتدعيمها في ذهن المستمع بمَثل أو بقول له حضوره في الذّاكرة. وعند النّظر في أساليب هذا التّضمين في هذا الجانب، يلاحظ أنّ بعض الشّعراء ذهب إلى ذكر المثل، وتضمينه في شعره بلفظه دون تغيير، بشكل يبدو فيه المثل منسجماً مع السّياق، وكأنّه جزء منه. ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الدّرويّ – وقد سبق الإشارة إليه في الحديث عن الهجاء الاجتماعيّ – في المهذّب الذي كان نصرانيّاً فأسلم، ثم عاد عن إسلامه، حيث ينهي أبياته بالمثل القائل: 'العود أحمد'[2] ؛ ليكون بمثابة قفل (نتيجة) يؤكّد ما قبله ويعزّزه[3]:

لَمْ يُسْلِمِ الشَّيْخُ الخَطِيـ ... ـرُ لِرَغْبَةٍ في دِيْنِ أَحْمَدْ
بَلْ ظَنَّ أنّ مِحالَهُ ... يُبْقِي لَهُ الدِّيوانَ سَرْمَدْ
والآن قَدْ صَرَفُوهُ عَنْهُ ... فَدِينُهُ فالعَوْدُ أحْمَدْ

(1) شفيق الرقب، النزعة الاجتماعيّة في شعر البوصيريّ: 196-197.

(2) الميداني، مجمع الأمثال: 2/ 34.

(3) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: 6/ 109.

وذهب بعض الشّعراء، إلى الإشارة للمثل دون التّصريح بذكره، على نحو ما يبدو لدى عرقلة الكلبيّ، الذي يسخر من نفسه بقوله[1]:

مولايَ إنَّ الكلبيَّ عَرْقَلةٌ ... مِثْلُ المُعَيْدِي صاحبِ المَثَلِ

ففي البيت إشارة واضحة إلى المثل المعروف: "تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه"[2].

وقد لجأ بعض الشعراء إلى التّصرف بألفاظ المثل، فلم يرد المثل بتمامه وإنّما تصرّفوا به بما يمكن أن يدلّ عليه بوضوح، ولعلّ ذلك كان بتأثير من طبيعة الشّعر، وما يستلزمه فيه كلّ من الوزن والقافية من تحوير؛ فابن دانيال – مثلاً – يضمّن، مع بعض التصرّف، المثل الشّائع: "رَجَعَ بِخُفَّيْ حُنَيْن"[3]؛ للتهكّم من صنعة أحد الأطباء[4]:

إياكَ طِبَّ ابنِ أبي صادِقٍ ... فإنَّهُ في الطِّبِّ زَوْرٌ ومَيْنْ

وانْظُرْ تَجِدْهُ في تَصانيفِهِ ... قَدْ صَفَعَ الطِّبَّ بِخُفَّيْ حُنَيْنْ

4

وتضمّنت بعض النّماذج إشارات تاريخيّة لبعض الأشخاص والأحداث السّابقة. وغالباً ما يتمّ توجيه هذا الجانب لخدمة بعض المضامين الهجائيّة؛ فقد يلجأ الشّاعر إلى استثمار إحدى الشّخصيّات التاريخيّة للسّخرية والتّهكّم – من خلالها – ببعض أنداده. ومن هذا القبيل قول فتيان الشّاغوري في القاضي الفاضل؛ إذ يجمع – في هجائه – بين شخصيتين عرفت كلّ منهما بما يناقض الأخرى، لاستخراج معانٍ ساخرة[5]:

---

(1) عرقلة الكلبي، ديوانه: 86.

(2) الميداني، مجمع الأمثال: 1/ 129.

(3) الميداني، مجمع الأمثال: 1/ 296.

(4) ابن دانيال، المختار من شعره: 246؛ وفي توظيف هذا المثل، انظر أيضاً: فتيان الشاغوري، ديوانه: 517.

(5) فتيان الشاغوري، ديوانه: 360-361.

لا مَرْحبــــاً بالنّـاقص ابــن الفاضــلِ   هــذا ابــنُ قُــسٍّ في فهــاهَةِ باقِـــلِ[1]

وأجـلُّ قــــدْراً مِنــــهُ بَغْلَتُــهُ الــتي   أضْـحَى أبوهــا مِنْـهُ فَـوْقَ الكاهِــلِ[2]

ولعلّ هجاء فتيان هذا كان بدافع من الخصومات الشّخصيّة أو المنافسات الأدبيّة التي قد تأخذ طريقها عادة بين الشّعراء؛ إذ من المستبعد أن يكون هذا الهجاء الذي بلغ حدّ الشّتيمة البذيئة على سبيل الظّرف والدعابة.

ويعبّر هذا التّوظيف - أحياناً - عن توجُّه الشّاعر ومنطلقاته؛ فعرقلة الكلبيّ الذي عرف بتشيّعه - كما أشير إلى ذلك من قبل - يرد في هجائه ذكر الأسماء والأحداث المتّصلة بالشّيعة، على نحو ما يبدو في قوله مخاطباً أقرباء الملك الصّالح طلائع، بعدما منعه البوّاب من الدّخول[3]:

علـى بـابِكُمْ يـا آلَ "رزّيـكَ" شاعـرٌ   قَنـوعٌ كَفـاه منْكـــمُ الــودُّ والبِشْرُ

وقَـدْ ردّهُ البـوّابُ جـهلاً بوجْهِــهِ   كمـا ردَّهــا يَوْمــاً بسَوْءته عمْــرو[4]

ثمنيتُكُمْ حتّـــى إذا مــا قَرُبْتُـــمُ   بَعُـدتُمْ، ومــا بَـيني وبَيْنَكُــمُ شِبْرُ

وقَـدْ كــانَ مُشْتاقاً إلـيَّ طَـــلائعٌ   فَواعَجبـاً لِـمْ قـد أبـى صحبتي بَـدْرُ

---

(1) قُس هنا هو قُسّ بن ساعدة الإياديّ أحد حكماء العرب وخطبائهم في الجاهليّة. انظر: الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين(ت356هـ)، كتاب الأغاني، تحقيق: عبد الستار أحمد فرج، الدار التونسية للنشر، تونس، دار الثقافة، بيروت، 1983م: 15/ 191؛ وباقل هو: باقل الإياديّ، جاهلي يضرب بعيّه المثل. انظر: الزّركلي، الأعلام: 2/ 42 .

(2) أبوها هنا: أي الحمار الذي هو أبو البغلة.

(3) عرقلة الكلبي، ديوانه: 48-49.

(4) هذا الشّطر من رائية أبي فراس الحمدانيّ المشهورة. انظر: أبو فراس الحمدانيّ، الحارث بن سعيد (ت357هـ)، ديوانه، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط1، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1983م : 65.

وحتّى حُسَيْنٌ وَهْوَ سَيِّدُ مَذْهبي زَوَى وَجْهَهُ عنّي كأنّيَ الشّمْرُ[1]

ففي الأبيات إشارات دالّة من التّاريخ الإسلاميّ؛ كالإشارة إلى قصة عمرو بن العاص حين بَدتْ سوءتُه يوم صفين فنجا من القتل[2]، والإشارة للحسين وقاتله الشّمر، مما يدلّ على معرفة الشّاعر بهذا التاريخ وببعض مجرياته.

ومن هذه الإشارات ما اتّخذ صوراً من التّورية المستطرفة؛ كقول ابن عنين في الشّريف الكحال وكان قد أحبّ غلاماً ينبز بالجمل[3]:

فَدَيْتُكَ قُلْ للشّريفِ الشّهابِ وإنْ شاطَ غَيْظاً فلا تَحْتَفِلْ

تُوالي الحنابلةَ القائلينَ بأنّ يزيدَ إمامٌ عَدَلْ

وتَزْعُمُ أنّكَ مِنْ عِتْرةِ الـ وصيّ وأنْتَ تُحِبُّ الجَمَلْ

5

واستثمر الشُّعراء – في الإطار نفسه – معارفهم اللغويّة، ووظّفوها في مضامينهم الهجائيّة، وقد اقترن هذا التّوظيف غالباً بالتّورية؛ إذ يورّي الشّاعر ببعض المصطلحات الخاصّة بالنّحو أو العروض أو غير ذلك، لاستدعاء بعض المعاني الطّريفة التي كان يتلقّاها الذّوق العامّ في تلك الفترة بالرّضا والقبول. وقد جاء توظيف هذه المعارف

(1) هو شمر بن ذي الجوشن (... – 66هـ)، من كبار قتلة الحسين. انظر: الزركليّ، الأعلام: 3/ 175.

(2) المنقري، نصر بن مزاحم (ت212هـ)، وقعة صفين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1990م: 407.

(3) ابن عُنين، ديوانه: 135.

والمصطلحات على مستويات متباينة. فمنه ما اتّسم بشيء من البراعة، فكان متوافقاً مع السّياق الذي وظّف فيه، على نحو ما يتبدّى – مثلاً – من قول نور الدّين الإسعردي[1]:

يقولون إنَّ الجِدَّ بالقَصْفِ مُولعٌ فقُلتُ لهُمْ: ما اعْتادَ شيئاً سِوى القَصْفِ

فقالُوا: أتى عِلْماً ولَفْظاً بمَجْلِسٍ فلمْ مُنِعُوا عنْ صرْفِهِ راغمَ الأنفِ؟

فقُلتُ: لتأنيثٍ بهِ ولِعُجْمَةٍ فَقالُوا: وقد تُلجي الضّرورةُ للصَّرفِ

ولا بدّ من تقطيعِهِ عِنْدَ قَبْضِهِ فَقَدْ زادَ بَسْطُ الكفِّ في جِهَةِ الوَقْفِ

إذ يلجأ الشّاعر إلى التّورية من خلال استخدام المصطلحات النّحويّة والعروضيّة التّاليّة: (صرف، تأنيث، عجمة، تقطيع، قبض)، بقصد التهكُّم والسّخرية من مهجوّه ذاك. فضلاً عمّا يتضمّنه هذا التوظيف من نقد اجتماعيّ دالّ. ويشبه هذا على نحو مقارب قول ابن عُنين حين سمع بعزل المؤيّد (والي دمشق وقتذاك) من منصبه، حيث يقول فيه[2]:

تشكّى المؤيَّدُ مِنْ صَرْفِهِ وذمَّ الزَّمانَ وأبدى السَّفَهْ

فقلتُ لهُ لا تذمَّ الزّمانَ فتظلمَ أيّامَهُ المُنْصِفَهْ

ولا تَغْضَبَنَّ إذا ما صُرِفْتَ فلا عَدْلَ فِيكَ ولا مَعْرِفَهْ

فهو يعمد – كما ذهب الإسعردي – إلى أسلوب التّورية الذي حمّل أبياته إيماءات ذكيّة ناقدة، كشفت عن قدر من البراعة في توظيف مصطلحات العلوم للتّعبير عن نقده لبعض رجالات عصره.

ومن هذا التّوظيف ما اتّسم بالتكلّف والتّصنُّع، فبدا مقمحاً غير موفّق؛ إذ اتّصف بقدر من الحذلقة والتّوظيف غير المسوّغ. ويتّضح مثل ذلك – مثلاً- لدى قاسم

---

(1) الصفدي، الغيث المسجم: 1/ 359.

(2) ابن عنين، ديوانه: 229.

الواسطيّ الذي يستجلب بعض الأسماء والظروف (أين، منذ)، لاستثمارها في التّعبير عن بخل أحد أصدقائه[1]:

لنا صديقٌ فيه انقباضٌ ونحنُ بالبَسْطِ نستلذُّ

لا يَعرفُ الفتْحَ منْ يديهِ إلا إذا ما أتاهُ أخْذُ

فكفّهُ "أينَ" حينَ تُعطي شيئاً وبعدَ العطاءِ "مُنْذُ"

ومثله قول الشّواء الحلبيّ في التّعبير عن المعنى السّابق، بالأسلوب ذاته، والطّريقة عينها[2]:

لنا خليلٌ لهُ خِلال تُعربُ عنْ أصلِهِ الأخَسِّ

أضحتْ لهُ مثلَ "حيثُ" كفٌّ[3] وددْتُ لو أنّها كـ"أمسِ"[4]

ويشبه النّموذجين السّابقين، قول شرف الدّين الأنصاريّ الذي يتّخذ من بعض القواعد اللغويّة دليلاً لتأكيد معنى هجائي[5]:

النَّذْلُ مَفرُوضٌ لهُ يُسْرُهُ والحرُّ بالإعسار مرفُوضُ

كذلكَ المنقُوصُ لم يَنْخَفِضْ وأكْمَلُ الأسماءِ مَخْفُوضُ

ومن الواضح أنّ هذا الاتّجاه يعبّر عن ملمح يتطلّب الجدّة التي لم يحالفها النّجاح دائماً؛ إذ إنّ المبالغة في استثمار هذه المعارف في الشّعر، من أجل توليد معنى جديد أو

---

(1) الكتبي، فوات الوفيات: 3/ 194.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان: 7/ 233.

(3) يريد أنها مضمومة، مثل بناء "حيثُ" على الضّمّ.

(4) يريد أنه أحب أنْ تكسر مثل بناء "أمس" على الكسر.

(5) شرف الدين الأنصاريّ، ديوانه: 288؛ وانظر أمثلة مشابهة في: العماد الأصفهاني، الخريدة (الشام): 1/ 490؛ الكتبيّ، فوات الوفيات: 3/ 410.

استخراج فكرة طريفة، قد يؤدي إلى نتائج غير موفّقة. وهو توجّه بقدر ما يعبّر عن تمكّن بعض الشّعراء من لغتهم، ومعرفتهم بقواعدها؛ فإنّه قد يسوق الشّاعر – أحياناً – إلى إقامة علاقات منطقيّة عقليّة في النّسيج الشّعريّ، وهو ما لا تتقبّله روح الشّعر وترضاه.

3. الصّورة الشّعريّة

عند الحديث عن الصّورة الشّعريّة في شعر الهجاء، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذا الموضوع الشّعريّ من أكثر الموضوعات التي تتطلّب – في العادة – قدراً قليلاً من الخيال[1]؛ ولعلّ ذلك مرتبط بسمات هذا الشّعر الذي يستمدّ أغلب مادّته من الواقع وحياة النّاس. زيادة على مرامي هذا الشّعر الهادفة إلى التّأثير في الآخرين بأيسر الطّرق وأسرعها. وهو أمر لن يتمّ إذا ما تطلّب الشّاعر خيالاً بعيداً، وصوراً عميقة تحتاج إلى طول تأمّل وتدبُّر لإدراكها. ثمّ إنّ شعر الهجاء – كما أشير إلى ذلك في موضع سابق – كثيراً ما يكون وليد ما تمليه حادثة أو موقف عارض. ومثل هذا من شأنه أن يدفع الشّاعر إلى سرعة التّعبير عمّا يجيش بخاطره، دون أن يجد الوقت في تخيّر صوره وتطلُّبها.

1

وقد تعدّدت المصادر التي استقى منها الشّعراء صورهم. فكان للحياة اليوميّة وما تزخر به من مشاهد نصيب في تشكيل عدد من هذه الصّور؛ فقد استوحى ابن دنينير صورة الذّباب المتهالك على الجرح، لتوجيه هجائه – من خلالها – إلى أحد القضاة[2]:

لنا حاكِمٌ لم يَخلُقِ اللهُ مِثْلَهُ ... بِخَلْقٍ وخُلْقٍ قَدْ حَوى غايةَ القُبْحِ

يضلُّ إلى طُرْقِ العُلا غَيْرَ أنَّهُ ... إلى اللؤمِ أهدى من ذُبابٍ إلى جُرْحِ

---

(1) نورثرب فراي، تشريح النقد: محاولات أربع، ترجمة: محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، عمان، 1991م: 288-289.

(2) ابن دنينير، ديوانه: 575.

ووجد أسامة بن منقذ في صورة النّمل الذي يتجاذب زهرة، وسيلة لذمّ الدّنيا، وتصوير ما فيها من صراع(1):

شاهدتُ نمْلاً قدْ تجاذبَ زَهْرةً ... ذا قدْ تملَّكَها وهذا يَسْلبُ

مثلَ الملوكِ تُجاذِبُوا الدُّنيا فما ... حَصَلَتْ لمغلُوبٍ ولا مَنْ يَغْلِبُ

وانتقى ابن عُنين من بعض المهن جوانب لتشكيل صوره؛ فها هو يوظِّف صورة الدّم الذي يريقه الحجّام، لتسويغ ما لحقه من هجاء أحد الشّعراء(2):

لا غَرْوَ أنْ نالَ اللئيمُ بهَجْوهِ ... منّي منالاً لمْ تَنَلْهُ كِرامُ

كَمْ مِنْ دَمٍ أرْدى الكُماةَ مَرامُه ... يَوْمَ الوَغى وأراقَهُ الحجّامُ

واستثمر ابن دانيال جانباً من واقعه المعدم، فأنتج صوراً تميّزت بقدر من الواقعيّة التي تعكس ما كانت تعانيه بعض الفئات الاجتماعيّة من جوع وحرمان، ولعلّ في كثير من شعره ما يُعبِّر عن شيءٍ من ذلك. كما في أبياته التالية من قصيدة له يصوّر فيها الحشرات التي في بيته(3):

.. والفارُ يَركضُ كالخُيولِ تسابُقًا ... مِنْ كلِّ جَرْداءِ الأَدِيمِ وأَجْرَدِ

يَأْكُلْنَ أخشابَ السُّقوفِ كمِثْلِ فا ... راتِ النِّجارةِ إذ تُحَكُّ بِمِبْرَدِ

وكأنَّ نسجَ العنكبوتِ وبيْتَهُ ... شَعْرِيّةٌ من فوقِ مُقْلَةِ أرمَدِ

وكذاكَ للجِرْذونِ صوتٌ مِثْلُهُ ... في مَسمعي صوتُ الزِّنادِ المُصْلِدِ

وإذا رأى الخفّاشُ ضَوءَ ذُبالةٍ ... عندي أضرَّ بضوئها المُتَوقِّدِ

---

(1) أسامة بن منقذ، ديوانه: 296.

(2) ابن عنين، ديوانه: 222.

(3) ابن دانيال، المختار من شعره: 155-156.

مُترنّــــمٌ بَـينَ الذُّبـــابِ مُغـــرِّدٌ لا كـــانَ مـن مُترنّـــمٍ ومُغـــرِّدِ

حـشراتُ بيـتٍ لـــو تَلقّـتْ عَـسْكَراً ولّى عـــلى الأعـــقابِ غَـيْرَ مُـردَّدِ

فالشّاعر يقدّم مشهداً وصفيّاً استوفى عناصره من محيطه الذي يعيش فيه، ناقلاً – من خلاله – جانباً من همومه وسوء حاله بهذه الأبيات التي تضافرت فيها الصّور الحركيّة: (الفأر يركض كالخيول، ولّى على الأعقاب)، مع الصّور الصّوتيّة: (للحرذون صوت الزّناد، مترنّم بين الذّباب مغرّد)، مع الصّور الضوئيّة واللونيّة: (ضوء ذبالة، حلّة موشيّة بالعسجد). مستثمراً كلّ ما تثيره هذه الصور من إيحاءات لتصوير فاقته وعوزه.

وكثرت الصّور المستمدّة من عالم الطّبيعة؛ فالمهذّب بن الزّبير – مثلاً – يستثمر صورة الكوكب (كيوان)؛ ليجسّد – من خلالها – نحس أحد أصدقائه[1]:

لا تَـرْجُ ذا نَحْـسٍ وإنْ أصـبحَتْ مِـنْ دونـهِ في الرُّتبـةِ الـشَّمسُ

كيـوان أعلـى كوكـبٍ مَوْضِـعاً وَهْـوَ إذا أنـصفتَـهُ نَحْـسُ

ويرجع علي بن عرام تكوين أحد الثقلاء إلى كثيف الأرض، يقول[2]:

عناصـرُ الإنـسـانِ مـن أربَـعٍ وخالـدٌ عُنْـصـرُهُ واحـدُ

فَمِـنْ كثيـفِ الأَرْضِ تكـوينُهُ فهـو ثقيـلٌ يـابسٌ بـاردُ

ويقرن القاضي الفاضل أحدهم بالسّراب الذي لا يُرجى منه إلا الظّماُ[3]:

ومـا كُنـتَ إلا كمـثلِ الـسَّرا بِ، يَـسُوقُ إليـه سياطَ الظَّمـا

(1) الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 338.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر): 2/ 175.

(3) القاضي الفاضل، ديوانه: 2/ 435.

وتكرّر في شعر أسامة بن منقذ الصّور المستمدّة من عالم البحر؛ ولعلّ لذلك ارتباطاً بكثرة أسفاره وارتحاله، على نحو قوله في أحد أصدقائه المراوغين[1]:

لنا صديقٌ يَغُرُّ الأصدقاءَ، وما رأيتُهُ قطُّ في ودِّ امرىءٍ صَدَقا

صَديقُهُ أبداً مِنْهُ على وَجَلٍ كراكبِ البحرِ، يَخْشى دَهْرَهُ الغَرَقا

وقوله في التّحذير من مغبّة التقرّب للسّلطان ومعاشرته[2]:

لا تَقربَنّ بابَ سلطانٍ، وإنْ مَلأتْ هِباتُهُ غيرَ ممنونٍ بها الطُّرقا

فإنّ أبوابَهمْ كالبَحْرِ: راكبُهُ مروّعُ القلبِ، يَخْشى دَهْرَهُ الغَرَقا

واستمدّ الشّعراء من حقل الحيوانات مادّة لبعض صورهم، إذ وجدوا في هذا الحقل ما يكفل لهجائهم شيئاً من الطّعن والتّحقير. وقد تدنّى مستوى هذا الطّرح – أحياناً – وبدا أقرب إلى المهاترة والسُّباب. ومما يمثّل ذلك قول فتيان الشّاغوريّ في هجاء فقيه يعرف بابن جاموس[3]:

رَأيْتُ بالجامعِ أعْجوبَةً والنّاسُ يَسْعَونَ إليها زُمَرْ

فَقُلْتُ: يا قَوْمُ على رِسْلِكُمْ ما يَعِظُ الجاموسُ إلا البَقَرْ

وأكثر الشُّعراء – تحت إغراء انفعالهم وغضبهم المتنامي – من تناول هذا الجانب؛ فثمة من قرن وجه مهجوّه بوجه الحمار[4]، وثمة من فضّل الكلب على بعض الأنام[5]،

(1) أسامة بن منقذ، ديوانه: 304.

(2) المصدر نفسه.

(3) فتيان الشاغوري، ديوانه: 204.

(4) ابن قلاقس، ديوانه: 317.

(5) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشام): 1/ 291؛ البهاء زهير، ديوانه: 151؛ ابن دانيال، المختار من شعره: 257.

وثمة من وجد في القرد تجسيداً لصور بعض الأشخاص[1]. وهكذا سار الشّعراء في هذا الاتّجاه الذي أفقد ما شعرهم من قيمة فنيّة، وقرّبه من دائرة الشّتائم الجارحة التي ليست من الشعر في شيء.

واستغل الشّعراء - في المنحى نفسه - صفات بعض الحيوانات لتوجيه بعض المعاني الهجائيّة من خلالها؛ فقد رأى ابن قلاقس - مثلاً - في الحرباء رمزاً للإنسان المتقلّب[2]، ورأى أبو عبدالله النّجار في الأفاعي الخبيثة نموذجاً لتجسيد صورة والده الذي يهجوه بقوله[3]:

لي أبٌ كلُّ ما بهِ يُوصَفُ النّا ... سُ من الخيرِ فهو مِنْهُ مُبرّا

فهو كالصِّلِّ من بناتِ الأفاعي ... كلّما زادَ عُمْرُهُ زادَ شَرَّا

ويتكرّر استثمار صفة الأفاعي والعقارب على لسان ابن عُنين الذي يخرج من إطار التّخصيص السّابق إلى التّعميم الذي يشمل بني الدُّنيا كلّهم[4]:

إذا اختَبرْتَ بني الدُّنيا وَجَدْتَهُمُ ... عَقارباً وثعابيناً وأوْزاغا[5]

وإنْ تأمّلتَ أخباراً أتوكَ بها ... رأيتَ زُوْراً وروّاغاً وأوْزاغا[6]

---

(1) ابن الشعار، قلائد الجمان: 10/ 275.

(2) ابن قلاقس، ديوانه: 136.

(3) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشام): 2/ 392.

(4) ابن عنين، ديوانه: 137.

(5) جمع وزغة: سام أبرص.

(6) الأوزاغ هنا جمع وَزَغ؛ وهو الرجل الفاسد الفاشل.

وتخيّر الشّعراء بعض صورهم من النّبات. وقد انتقوا من هذا الحقل ما يتناسب ومقاصد هجائهم؛ فعمارة اليمنيّ يصورّ بخل كاتب نصرانيّ من خلال قرنه بشجر الصّفصاف الذي لا ثمر فيه[1]:

لا تأمننَّ أبا الرَّذائلِ بَعْدَها　　　واحْذرْ أمانةَ سارقٍ خطّافِ

فالمرتجي عِنْدَ اللّئامِ أمانةً　　　كالمرتجي ثَمَراً من الصَّفْصافِ

وابن دانيال يتهكّم من أحد الولاة، واصفه بشجر البان المترنّح[2]. أما شرف الدّين الأنصاريّ، فيستمدّ من شوك القتاد صفة لزمانه ذاك[3]:

زمانٌ مُوطَّأُ أكنافِهِ　　　كشوكِ القَتادِ إذا ما خُرِطْ

فأمّا الكِرامُ فَقَدْ أعْوزُوا　　　وأمّا اللّئامُ فَقُلْ واشْتَرِطْ

ويرتبط بعض الصّور بأصول تراثيّة؛ كإشارة بعض الشّعراء إلى أسماء أماكن ومواقع لها ارتباطها في الذّاكرة، ومن هذا القبيل إشارة ابن عُنين إلى "أرض وجرة"، و "قصر الخورنق" في مداعبة صديق وعده بغزال ومطله[4]:

غَزالُكَ بالوَعْساءِ من أرْضِ وَجْرَةٍ　　　يَصيفُ ويَشْتو من وراءِ الخَورْنَقِ

تَناءتْ بهِ عن قانصِ الإنسِ دارُهُ　　　فكيفَ يرجِّيهِ مُقيمٌ بجِلِّقِ

وتتبدّى هذه الأصول التراثيّة أيضاً من خلال انتقاء بعض الألفاظ والتّعابير. كما في الأبيات التالية للبهاء زهير الذي يشكو فيها بعض الأشخاص؛ إذ يستحضر أنماطاً

(1) عمارة اليمني، المختار من ديوانه (ضمن كتاب النكت العصرية): 293.

(2) ابن دانيال، المختار من شعره: 95.

(3) شرف الدين الأنصاريّ، ديوانه: 300.

(4) ابن عنين، ديوانه: 139.

تعبيريّة موروثة تتكرّر مثيلاتها في الشّعر القديم، وهي من الشّواهد القليلة في شعره الذي مال – بصورة عامّة – إلى الواقعيّة والشّعبيّة[1]:

رَأيتُكمُ لا يَنجحُ القَصْدُ عِندَكمْ ... ولا العُرْفُ مَعروفٌ ولا الجُودُ مَوْجُودُ

وددتُ بأنّي ما رأيتُ وجوهَكُمْ ... وأنّ طريقاً جِئتُكُمْ مِنهُ مَسْدُودُ

متى تبعدنّي عن حُدُودِ بلادِكُمْ ... مطهَّمةٌ جُرْدٌ ومَهْرِيّةٌ قُودُ[2]

وأصبحَ لا يَجْري ببالِيَ ذِكْرُكُمْ ... ويَقْطعُ ما بيني وَبَيْنَكُمُ البِيْدُ

وأخيراً فقد كانت بعض الصّور ذات مصدر ثقافيّ؛ إذا استرفد الشّعراء بعض صورهم من القرآن الكريم، والحديث الشّريف، والشّعر العربيّ القديم، والتاريخ، وبعض المعارف اللغويّة والدينيّة ... وقد تبدّى هذا بوضوح عند الحديث عن توظيف الموروث في هذا الشّعر. ولا أجد ضرورة لسوق الشّواهد عليها ثانية، تجنُّباً للإطالة والتكرار.

2

وتوسّل الشّعراء في تشكيل صورهم بالأساليب البيانيّة المعروفة؛ كالتشبيه الذي شاع في كثيرٍ من هذه الصّور. وقد اتّسم أغلب هذه التشبيهات بالوضوح والبساطة، فجاءت مألوفة لا غرابة فيها، والنّماذج على ذلك كثيرة، وليس من سبيل أمام الدّارس إلا الانتقاء الذي لا مندوحة عنه في هذا المقام. يقول أميّة بن أبي الصّلت في تصوير حالة متعلّم قليل الاستيعاب، حيث ينتقي لتجسيد حالته تشبيهين من مألوف ما يقع في الحياة[3]:

---

(1) البهاء زهير، ديوانه: 78.

(2) جرد: جمع أجرد، وهو الجواد السابق. والمطهّم: التّام الحسن الخلق. المهريّة: الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان، اسم حيّ باليمن، والقود: المنقادة.

(3) أميّة بن أبي الصّلت، ديوانه: 79.

وراغـــبٍ في العُلـــــوم مُجْتَهـــــدٍ   لكنّــهُ فـــي القَبُـــــول جَلْمُـــــودُ

فهـــو كـــــذي عِنَّـــةٍ بـــهِ شَبَـــقٌ   ومُـــشْتهي الأكـــلِ وهـــو مَعْمُـــوْدُ

وقريب من هذا قول نـصر الهـيتيّ[1]، الـذي يـستجمع عـددًا مـن الـصور الواقعيّـة المنفّرة، في هجاء جماعة رأى أنّهم لم يقدّروا قيمة شعره، يقول[2]:

رِقَـــاعُهُمْ تمـلأُ الدُّنيـــا بمـا رَحُبتْ   مَـــلأً مـــن المَـيْنِ والبُهْـــتانِ والـــزُّورِ

تُطْـوى وتُنـشرُ والأدنـاسُ تَـشْمَلُها   في كـفّ كـلّ سَخِـيْنِ العـينِ مَـــغْرُوْرِ

كأنّهـــا وعطاياهـــــمْ مُـــسطَّرَةً   فيهـا لفـائفُ مَـــيْتٍ غـــيرِ مَـنْشُورِ

أو مـا يُعلِّقُـهُ البَيْطـارُ مــن خِـــرَقٍ   عـن كـلّ أَعْجَـــفَ غـثّ اللّحـمِ مَعْقُـوْرِ

لا تطْرَحْهـا إذا جـاءتْ فـإنّ لـــها   نَفْعـاً ولكــــنْ لترقيـــعِ الطَّنابيـــرِ

فهذه التشبيهات مما يعاينه الناس في حياتهم. وقد تميّزت بقـدر مـن الوضـوح الـذي من شـأنه أن يجعلـها عالقـة في ذهـن متلقّيهـا. ويبـدو أنّ الـشّعراء كـانوا يجـدون في هـذه التشبيهات وأمثالها، بغيتهم ليبلغ كلامهم الأفهام.

وقد تميّزت بعض هذه التشبيهات بالحيويّة والطرافة، من ذلك قول ابن عُنين الـذي ينتقد رقعة طويلة كتبها إليه أحد أصدقائه، حيث ينتقي لـذمّ هـذه الرقعـة الـتي ولّـدت في نفسه الملـل لطولها، صـورتين دالّتين مما يعاينـه مـن مظـاهر الطبيعـة المتمثّلـة في تعاقـب الفصول، وهما صورتان من شأنهما أن تجسِّدا فكرة الضجر والملل، على نحو واضح[3]:

وَصَــلتْ مِنْــكَ رقعـــةٌ أسْــــأَمَتْني   وَثَنَـــــتْ صـبريَ الجميـلَ كـــليلا

---

(1) هو نصر بن الحسن الهيتيّ الدمشقيّ، يذكر العماد أنّه لقيه بدمشق، وتوفي بعـد سـنة 565هــ. انظـر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشام): 2/ 230.

(2) المصدر نفسه: 2/ 231.

(3) ابن عنين، ديوانه: 235.

كنهارِ المَصيفِ حرًّا وكربًا وليالي الشِّتاءِ بَرْدًا وطُولا

ومنها قول أبو جَلْنك الحلبيّ[1] الذي مدح قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان[2]، فوقّع (القاضي) له – لقاء هذا المدح – برطلي خبز، فكتب أبو جلنك على حائط بستان ذلك القاضي هذين البيتين[3]:

للهِ بستانٌ حَللنا دَوْحَهُ والورقُ قَدْ صَدَحَتْ عليه لما بها

والبانُ تَحْسبُهُ سنانيرًا رأتْ قاضي القُضاةِ فَنَفَّشَتْ أذنابها

فالشّاعر يرسم لوحة تصويريّة ناطقة، غرضها التّهكّم والسُّخرية؛ فبعد أن يقدِّم مشهداً يثير الابتهاج والحبور في النفس، من خلال وصف ذلك البستان، إذ به يتحوّل إلى معنى مفاجئ يتضادّ مع سابقه، حين يشبّه شجر البان الذي تناثرت أوراقه بفعل عوامل الجوّ، بذنب السنّور الذي نفشه إثر غضبه من موقف ما، وهو ها هنا رؤية قاضي القضاة المذكور.

وكثرت الصّور الاستعاريّة التي اتّخذت من التشخيص وسيلة لبنائها، وللتشخيص – كما هو معروف – أثر في بعث الحياة والحركة في الأشياء الجامدة؛ فقد شخّص الشّوّاء الحلبيّ عِرْض أحد البخلاء إنساناً مسودّ الوجه[4]. وشخّص التاج البلطيّ شيم جماعة

---

(1) هو شهاب الدين أحمد بن جَلَنْك الحلبي، قتل في غزو التتار لمدينة حلب سنة 700هـ. انظر: الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 61؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 8/ 194.

(2) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان قاضي القضاة، صاحب كتاب "وفيات الأعيان" تنقّل بين الشّام والموصل ومصر، توفي سنة 681هـ. الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 110-118.

(3) الكتبي، فوات الوفيات: 1/ 61.

(4) ابن الشعار، قلائد الجمان: 10/ 281-282.

بنساء مكتسيات بالقبائح[1]. أمّا ابن عُنين، فيشخِّص الدّين بإنسان يستغيث إلى الله، شاكياً مما لحق به من جور بعض الأفراد[2]:

صَعِدَ الدِّينُ يَستَغِيثُ إلى اللهِ ... وَقالَ الأَنامُ قَدْ ظَلَمُوني

يَتَسمّونَ بي وحقِّك لا أعْـ ... ـرفُ شخصاً مِنْهمُ ولا يَعْرفوني

جَعَلُوا ابنَ المصريِّ تاجي ولو كا ... نَ شِراكاً للنّعلِ لَمْ يُنْصِفُوني

ثمّ قالوا البكريُّ صَدْري كما قا ... لُوا وقالُوا وَوَجْهي الزّنكلوني

ويشخّص في موضع آخر، مصحف عثمان متبرِّماً ساخطاً من أحد القائمين على جامع دمشق[3]:

مصحفُ عثمانَ صاحَ مِنْ حَنَقٍ ... رافعُ قَدْري ما بالُهُ خَفَضَهْ

الزّنكلونيُّ صارَ يَخْدِمُني ... يا ربّ عجّلْ بالفأرِ والأَرَضَهْ

واللهِ ما بي الحطاطُ منزلتي ... وإنّما بي شماتةُ الرَّفَضَهْ

واتّكأت بعض الصّور على التجسيم، فبدت الأشياء المجرّدة في صور محسوسة؛ فُجسِّم الطّب – بغرض النقد – سيفاً يقضي على الأرواح[4]، وجُسِّم شعر الخصوم يابساً متحجِّراً[5]. وسلاحاً لا يقدح زناده[6]. وجُسِّم صوت بعض المغنّين سوطاً لاذعاً على

---

(1) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشام): 2/ 387.

(2) ابن عنين، ديوانه: 209–210.

(3) ابن عنين، ديوانه: 229.

(4) الكتبي، فوات الوفيات: 2/ 318.

(5) ابن دانيال، المختار من شعره: 141.

(6) ابن الساعاتي، ديوانه: 2/ 341.

مستمعيه[1]. أمّا الحديث غير المرغوب فيه، فبدا كالبرد القارص الذي يطفي لهيب جهنم[2].

وتشكّلت بعض الصور الهجائيّة من خلال الكناية، وأكثر ما يكون ذلك باستخدام كلمة (القرون) التي هدف الشّعراء من ورائها إلى انتقاد عُجْبِ مهجويّهم وخيلائهم. على نحو قول الشّاعر شلعلع[3] في شاعر يسمّى ابن الدّبّاغ[4]:

تَعالَتْ قُرونُ ابنِ الدّبّاغِ فأصبحتْ ... تُجلُّ عنِ التّحديدِ في اللفظِ والمعنى

على بَعْضِها ناجى النّبيُّ إلهَهُ ... وَقَدْ كانَ منْهُ (قابَ قوسينِ أو أدْنى)

والأثر الدّينيّ واضح في بناء هذه الصّورة؛ ففضلاً عن توظيفه قصة موسى عليه السّلام في مناجاته ربَّه، نراه يعمد إلى الاقتباس المباشر من آي الذكر الحكيم، فعجز البيت الثاني مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[5].

وقد غلب على صور الهجاء الطابع الحسيّ؛ فكثرت – مثلا – الصور البصريّة التي اتّخذت من اللون وسيلة للتعبير عن بعض المعاني الهجائيّة؛ فقد صوّر فتيان الشّاغوريّ وعد قوم لم ينجز بالبرق الخُلّب الذي لا مطر فيه[6]:

وَعْدُكُمْ بالخَرْجِ والنِّطْعِ[7] ... بَرْقٌ ولكنْ خُلَّبُ اللَّمْعِ

---

(1) عرقلة الكلبي، ديوانه: 55.

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر):2/ 132.

(3) هو ابن زيد بن خلف بن محمد بن أبي حامد بن العباس القرشيّ، شاعر عرف بالفكاهة وخفّة الظّل، يذكر العماد أنّه من أهل مصر. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر):2/ 124.

(4) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر):2/ 124.

(5) سورة النجم، الآية: 9.

(6) فتيان الشاغوري، ديوانه: 269.

(7) النّطع: بساط من جلد.

وكثر استخدام اللون الأسود بصورة تسترعي النظر؛ ولعلّ ذلك بسبب ما يثيره هذا اللون من كآبة وشؤم لدى بعض النّاس، ولما يحمله من دلالات سلبيّة قاتمة؛ فابن عنين يصوّر – بالاتكاء على التجسيم – عرض أحدهم أسود متمزّقاً، يقول[1]:

مَا إنْ مَدَحْتُكَ أرتجي لكَ نائلاً فَحَرَمْتَني فَهَجوتُ باسْتحقاقِ

لكنّني عاينْتُ عِرْضَكَ أسوداً متمزّقاً فَقَدَحْتُ في حُرّاقِ

ويمزج أبو طالب الحلبيّ[2] بين اللونين الأبيض والأسود، ليقدح في جماعة أحسّ بزور مدحه لهم[3]:

وَقائلٍ ليَ إذْ لَفّقْتُ مَدْحَهُمُ زُوْراً ومَيْناً وَقَدْ أزرَى به الخَرَصُ

مبيضُّ مَدْحِكَ في مُسودٌ فِعْلِهمُ كأنّما هو في أعراضِهِمْ بَرَصُ

واستخدم الشّعراء، في الإطار نفسه، الصّور الشّميّة، وما ورد منها يدلُّ – في الغالب – على الرائحة الكريهة غير المستحسنة، على نحو ما يتبدّى من قول أبي الغمر الإسناوي في أبخر[4]:

مَنْ مُجيري مِنْ أبْخَرٍ شَفَتاهُ لرياحِ الكنيفِ جذّابتانِ

---

(1) ابن عنين، ديوانه: 207.

(2) من شعراء الخريدة، يذكر العماد أنّه من أهل هذا العصر – عصر العماد – وقد لقيه بحلب. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشام): 2/ 188.

(3) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (الشام): 2/ 190.

(4) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر):2/ 161؛ وانظر مثل هذا في: أميّة بن أبي الصّلت، ديوانه: 94؛ ابن دانيال، المختار من شعره: 79-80.

وإذا ما الفاظُـهُ فَغَـرتْ فـا ... هُ فَويَـلُ الأُنُـوفِ والآذانِ

تَستَجيرُ البنانَ هذي من البُعْـ ... ـدِ وهـذي تلوذُ بالأرْدانِ

وبرزت في هذا الشّعر الصّور الحركيّة التي أكسبت المشهد قدراً من الحيويّة، كما في قول ابن قتادة المصريّ[1]، الذي يجسّد لحظة موت الشّاعر المكربل[2] بهذه الصّور التي تداخلت فيها المثيرات الحركيّة مع المثيرات السّمعيّة، لإخراج هذا المشهد التصويريّ[3]:

قالُوا المُكَرْبَلُ قَدْ قَضَى فأجَبْتُهُمْ ... ماتَ الهجاءُ وعاشَ عِرْضُ العالَمِ

ما تَسْمَعُونَ ضَجيجَ مالك مُعْلِناً ... وجُنُودُهُ: لا مَرحَباً بالقادِمِ

أمّا الصور الذّوقيّة فهي قليلة. ومنها – على سبيل المثال – قول البوصيريّ في هجاء أحد الأدباء[4]:

إذا ما رآني عافَني واستقلّني ... كأنّي في قَعْرِ الزُّجاجةِ سُوْرُ[5]

3

وقد هدفت الصّورة في شعر الهجاء عموماً إلى التشويه والمسخ؛ بقصد تحقير المهجوّ، والغضّ من قدره. وانتقى الشّعراء – في سبيل تأكيد هذا المقصد – صوراً تثير

---

(1) يذكر العماد أنّه توفي في عصره. واسمه أبو الفتح منصور بن إبراهيم بن قتادة الأنصاريّ، كان يعيش في مصر. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر): 2/ 228.

(2) هو الحسن بن سعيد، أبو علي العسقلانيّ، المعروف بالمكربل، كان بينه وبين أبي قتادة تهاج شديد. انظر: الصفدي، الوافي:12/ 30-31.

(3) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر):2/ 229.

(4) البوصيريّ، ديوانه: 148.

(5) أصلها سؤر، وهي ما تبقى من الشارب في الإناء.

الاشمئزاز، وتصدم الذوق السّويّ. ومن النماذج الدّالة التي تمثّل مثل هذا، قول فتيان الشاغوريّ في هجاء رجل يعرف بابن الخيميّ، إذ يتخيّر من الصّور، ما يمكن أن يحقّق لمهجوّه ذاك، مزيداً من الازدراء والتحقير(1):

كلّما حادثني ابنُ الخيميّ ... قُلتُ هذا حَدَثٌ ليسَ حَديثا

سَمِجُ الإنشادِ غَثٌّ لَفْظُهُ ... فاتِرُ الشّعرِ يُرى فيه خَنيثا

فُوهُ كالمغْدَةِ ما مرّ بها ... طيِّبٌ إلا أحالتْهُ خَبيثا

لا تُبطْرِمْ ويْك إنّي عالِمٌ ... بكَ يا قرْدُ قديماً وحديثا

وبقصد التشويه، قد يلجأ الشّاعر إلى تقبيح صورة ما وقر في الذّهن أنّه حسن؛ فالخال – مثلاً – يرتبط في الغالب بدلالة جماليّة، ولذا نجد الشّعراء يكثرون من التغزُّل به، غير أنّ ابن قلاقس يحمّل هذه الدّلالة قيمة سلبيّة، حين يعمد إلى مقابلة "خال" أحدهم، بصورة منفّرة قبيحة(2):

تاهَ بخالِ خَدِّهِ ... كما يتيهُ الثّمِلُ

وَظَنَّ أنّ حُسْنَهُ ... وَقَدْ مَضى مُقْتَبَلُ

وقالَ خدّي رَوضَةٌ ... تَرْتَعُ فيها المُقَلُ

فَقُلْتُ ما أقبحَ ما ... جِئْتَ بهِ يا رَجُلُ

لو كانَ وَرْدًا لَمْ يَكُنْ ... يَسْكُنُ فيهِ جُعَلُ

---

(1) فتيان الشاغوري، ديوانه: 71.

(2) ابن قلاقس، ديوانه: 189-190.

ويعمد الشّاعر الهجّاء – بغرض التشويه والمسخ أيضاً – إلى تشنيع هيئة مهجوّه، وتقديمه بصورة غريبة وتكوين غير متجانس. وذلك على نحو ما يبدو – مثلاً – من قول محمد بن ناصر الإسكندراني[1] في هجاء أحد الأطباء[2]:

صديقُنا المُستطبُّ نادرةٌ ... وَقَدْ أخذتْ مِنهُ أعْينُ النّاسِ

أنيابُ غُولٍ ومِشْفَرا جَمَلٍ ... ورأسُ بَغْلٍ وذقنُ نِسْناسِ[3]

وحملت بعض الصّور مشاعر من الغضب والاستياء، وغالباً ما يكون ذلك ردّ فعل تجاه موقف لم يلق على إثره الشّاعر ما كان يرغب فيه؛ فابن المسجّف العسقلانيّ، يصوّر شدّة استيائه وحنقه، من جماعة لم ترقه أطباعهم وصفاتهم، بهذه الصّور التي تعبِّر عن موقفه الغاضب بحدّة[4]:

يا ربّ كيف بلوئني بعصابةٍ ... ما فيهمُ فَضْلٌ ولا إفضالُ

متنافري الأوصافِ يَصْدقُ فيهمُ الـ ... ـهاجي وَتَكْذبُ فِيهمُ الآمالُ

غطّى الثَّراءُ على عُيوبِهُمُ وَكَمْ ... من سَوءةٍ غطَّى عليها المالُ

جبناءُ ما اسْتَنْجَدْتهُمْ لِلمَّةٍ ... لؤماءُ ما استَرفَدْتهُمْ بُخّالُ

فَوجُوهُهُمْ عُودٌ على أمْوالِهِمْ ... وَأكُفُّهُمْ مِنْ دونها أقْفالُ

هُمْ في الرَّخاءِ إذا ظَفَرْتَ بنعمةٍ ... آلٌ، وعندَ الشّدائدِ آلُ

---

(1) من شعراء الخريدة، كان شاعراً ومنجماً، وله علم بالهندسة والمنطق، توفي سنة 525هـ. انظر: العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر):2/ 100 (الحاشية).

(2) العماد الأصفهانيّ، الخريدة (مصر): 2/ 100.

(3) النّسْناس: نوع من القردة صغير الجسم، طويل الذّنب.

(4) الكتبي، فوات الوفيات: 2/ 284.

وهدفت بعض الصّور إلى السّخرية، عن طريق تجميع عدد من الصور الهازئة التي تتضافر مجتمعة لتقديم مشهد تهكميّ ساخر، من ذلك قول القاضي الفاضل في أحدهم، لاجئاً إلى تصوير جوانب خارجيّة من شخصيّته بالاتكاء على ما يشبه التصوير (الكاريكاتوري) القائم على المبالغة والتضخيم[1]:

... وَجْهٌ عليهِ مِنَ القَباحَةِ مِسْحَةٌ ظَلَمَ النَّهارَ[2]، وَقَدْ رآهُ فَأظْلَما

وعليهِ أنْفٌ قَدْ أجيبَتْ دعوةٌ فيه من الدّاعي عليه؛ فَأُرْغِما

فلو انّهُ ذَنْبٌ لكانَ كبيرةً ولو انّهُ طَوْدٌ لكانَ مُقطَّما

بَرَصٌ يُرينا مِنْهُ جِلْداً أبيضًا وأذىً يُرينا مِنْهُ جِلْداً أسْحما[3]

لو شئتُ أنْ أرقى لِنَيْلِ قُرُونِهِ لَجَعلتُ ذاكَ الكِتْفَ تحتي سُلَّما

وجنحت الصّورة الهجائيّة – أحياناً – إلى السّخرية الهادفة إلى الإطراف والهزل. وقد بدا مثل هذا في بعض هجاء ابن عُنين السّاخر، على نحو قوله في هجاء أمير البيرة[4]؛ إذ يسخر منه عن طريق تطلُّب بعض الصور القائمة على المبالغة في تصوير العيوب الخَلْقيّة، ملامساً في ذلك الذّوق الشّعبيّ اليسير الذي يقترب من ألفاظ العامّة وأسلوبهم[5]:

لنا أميرٌ قرنُهُ يَنْطَحُ في الأُفْقِ الفَلَكْ

---

(1) القاضي الفاضل، ديوانه: 2/ 434.

(2) أي أنّ وجهه لقبحه يحيل ضوء النهار ظلمة.

(3) الأسحم: الأسود.

(4) البيرة: بلد قرب سُمياط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: 1/ 526.

(5) ابن عنين، ديوانه: 203.

سبالُهُ وذَقْنُهُ ... تَدْخُلُ في استِ أمٍّ بَلَكْ

عطاؤهُ وطَعْنُهُ ... ما غيرُ دقٍّ بالحَنَكْ[1]

فهو الدّنابى أبدًا ... في أيّما جيشٍ سَلَكْ

كأنّهُ في قَلْعَةِ الـ ... ـبيرةِ صيّادُ السَّمَكْ

ومن أهداف الصورة الهجائيّة الإقناع، وغالباً ما يتمّ ذلك بالاتكاء على التشبيه الضمنيّ، وهو توجّه كان وراء طبع هذه الصور بنزعة عقليّة، فظهر فيها ما يعرف بالاستدلال المنطقيّ وهو ما يقوم على تلخيص الفكرة، ثمّ اتباعها بصورة مبرهنة على صحّتها[2]. ومن الشواهد التي تمثّل ذلك قول أسامة بن منقذ في تصوير هذا النموذج البشريّ؛ ولعلّه يقصد واحداً من أبناء عمومته الذين ساءت علاقته ببعضهم[3]:

بُعْدًا لَمنْ شَرُّهُ أعْمى، يُصيْبُ ولا ... يَرَى مكانَ الأعادي من ذوي

كالنّارِ تُحْرِقُ طَبْعاً لا تُميِّزُ بَيْـ ... ـنَ المَنْدَلِ[4] الرَّطْب، في الإحْراقِ

وقوله أيضاً[5]:

زهّدني في العقلِ أنّي أرى ... عنايةَ الأيّامِ بالجَهَلِ

والدّهرُ كالميزانِ: ذو الفَضْلِ يَنْـ ... ـحطُّ، وذو النّقْصانِ يَستَعْلي

---

(1) دقّ الحَنَك: كناية عن الثرثرة والقول الذي لا يعقبه فعل، ولا يزال أهل دمشق يقولون: هذا كلام (طق حنك).

(2) إبراهيم السعافين، مدرسة إحياء التراث، ط1، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، 1981م: 390.

(3) أسامة بن منقذ، ديوانه: 245.

(4) المَندل: العود أو أجوده.

(5) أسامة بن منقذ، ديوانه: 308.

وخلاصة القول في الصّورة الهجائيّة أنّها صورة جزئية بسيطة، لا أثر فيها للتعقيد وكدّ الذّهن، وكأنّ الشّعراء وجدوا أنّ التعمّق في الخيال، والإسراف في الصناعة الشّعريّة، وفي تكلّف الجزالة وسموّ العبارة، يضعف الهجاء، ويفقده قيمته[1]، فاتّجهوا – بقصد تعويض هذا الجانب – إلى الإفادة من وسائل فنيّة أخرى، كفلت لشعرهم القبول والاستحسان، كالتّوسُّل بالمفارقات، واستثمار روح الدعابة، والنكتة الساخرة، والميل إلى الأسلوب الشّعبيّ الميسّر، وغير ذلك مما سبق تفصيله.

---

(1) محمد محمد حسين، الهجاء والهجّاءون في الجاهليّة، ط3، دار النهضة العربية، بيروت، 1970م: 39.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولاً: المصادر المخطوطة:

- سيف الدين المشدّ، عمر بن قزل (ت656هـ)، ديوانه (ميكروفيلم) رقم 833، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.
- ابن الشّعار الموصليّ، المبارك بن أحمد(ت654هـ)، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، إصدار فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلاميّة، جامعة فرانكفورت، 1990م.
- العزازيّ، أحمد بن عبد العزيز(ت720هـ)، ديوانه، صورة عن النسخة المخطوطة بدار الكتب المصريّة القوميّة، رقم 282، شعر تيمور.
- ابن عساكر، علي بن الحسن(ت571هـ)، تاريخ مدينة دمشق، صورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، دار البشير.
- ابن عُقيل الزُّرعيّ، أبو العباس أحمد(ت523هـ)، المختار من ديوانه، مكتبة طبقبوسراي، تركيا، رقم 2816.
- ابن فضل العمريّ، شهاب الدّين(ت749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، إصدار فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، 1987م.
- ابن منير الطرابلسيّ، أبو الحسين أحمد(ت548هـ)، شعره، مخطوط رقم 210، مكتبة أمبروزيانا (وعنه شريط مصوّر في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنيّة).

ثانياً: المصادر المطبوعة:

- ابن الأثير، ضياء الدين الجزريّ(ت637هـ):

أ – رسائل ابن الأثير، دراسة وتحقيق: نوري القيسي وهلال ناجي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، بلا تاريخ.

ب- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ، القاهرة، 1939م.

- ابن الأثير، عزالدين أبو الحسن(ت630هـ):

أ- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة بالموصل، تحقيق: عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ومكتبة المثنى، بغداد، 1932م.

ب- الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1979م.

- الأدفويّ، كمال الدين جعفر(ت748هـ)، الطّالع السّعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، الدار المصرية العامّة للتأليف، 1966م.
- أسامة بن منقذ(ت584هـ):

أ- الاعتبار، تحقيق: فيليب حتّي، مطبعة جامعة برنستون، 1930م.

ب- ديوانه، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد الحميد، ط2، عالم الكتب، بيروت، 1983م.

- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم(ت668هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ.
- امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، 1958م.
- أمية بن أبي الصّلت(ت522هـ)، ديوانه، تحقيق: محمد المرزوقي، دار بو سلامة للطباعة، تونس، بلا تاريخ.
- ابن إياس الحنفيّ، محمد بن أحمد(ت930هـ)، بدائع الزّهور في وقائع الدّهور، تحقيق: محمد مصطفى، ط2، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، 1982م.
- البهاء زهير(ت656هـ)، ديوانه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد الجبلاوي، ط2، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.
- البوصيريّ محمد بن سعيد(ت698هـ)، ديوانه، تحقيق: محمد سيّد كيلاني، ط2، مكتبة مصطفى البابي الحلبيّ، القاهرة، 1973م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن(ت874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصريّة العامّة للتأليف، القاهرة، بلا تاريخ.

- التلعفريّ، محمد بن يوسف(ت675هـ)، ديوانه، تحقيق ودراسة: هنرييت سابا، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة القاهرة، 1969م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت255هـ)، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، 1969م.
- ابن جُبَيْر، محمد بن أحمد(ت614هـ)، رحلة ابن جبير، ط2، مكتبة الهلال، بيروت، 1986م.
- ابن حجر العسقلانيّ، شهاب الدين أحمد (ت852هـ)، الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد جاد الحقّ، ط2، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1966م.
- ابن حجّة الحمويّ، تقي الدين أبو بكر (ت837هـ):
أ- ثمرات الأوراق، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1971م.
ب- خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، ط2، مكتبة الهلال، بيروت، 1991م.
- الحنبليّ، أحمد بن إبراهيم (ت876هـ)، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون العراقيّة، 1978م.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.
- ابن الخياط، أحمد بن محمد (ت517هـ)، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1958م.
- ابن دانيال الموصليّ، الحكيم شمس الدين (ت710هـ)، المختار من شعره، اختيار صلاح الدين الصفديّ، تحقيق: محمد نايف الدليميّ، مكتبة بسام، الموصل، 1979م.
- دعبل بن علي الخزاعي (ت246هـ)، شعره، صنعة: عبد الكريم الأشتر، ط2، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1983م.
- ابن دُنينير، إبراهيم بن محمّد (ت627هـ)، ديوانه، تحقيق ودراسة: محمود شاكر سعيد، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة الأزهر، 1981م.
- ابن الدّهان، المهذّب عبد الله بن أسعد (ت581هـ)، ديوانه، تحقيق: عبدالله الجبوري، ط1، مطبعة المعارف، بغداد، 1968م.
- ابن رشيق القيرواني، (ت456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد قرقزان، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1988م.

- الزّوزني، الحسين بن أحمد (ت486هـ)، شرح المعلّقات العشر، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1987م.
- ابن السّاعاتيّ، علي بن محمد (ت604هـ)، ديوانه، تحقيق: أنيس المقدسي، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1939م.
- ابن سعيد الأندلسيّ، علي بن موسى (ت685هـ):
أ- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السّابعة، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ط4، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.
ب- المغرب في حلي المغرب (قسم مصر)، تحقيق: زكي محمد حسن وآخرين، مطبعة جامعة فؤاد الأوّل، 1953م.
- ابن سناء الملك (ت608هـ)، ديوانه، تحقيق: محمد جاد الحق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، الهند، 1957م.
- السيوطيّ، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ):
أ- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر،؟، 1979م.
ب- الحاوي للفتاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.
ج - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1968م.
- الشّاب الظّريف، محمد بن سليمان (ت688هـ)، ديوانه، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط1، مكتبة النهضة العربية، عالم الكتب، بيروت، 1985م.
- أبو شامة المقدسيّ، شهاب الدّين عبد الرحمن (ت665هـ):
أ ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذّيل على الروضتين، ط2، دار الجيل، بيروت، 1974م.
ب ـ كتاب الرّوضتين في أخبار الدّولتين، تحقيق: إبراهيم الزّيبق، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1997م.
- ابن شدّاد، بهاء الدين يوسف (ت632هـ)، النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة أو سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط1، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964م.
- شرف الدين الأنصاري، عبد العزيز بن محمد (ت662هـ)، ديوانه، تحقيق: عمر باشا، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1968م.

- شهاب الدين محمود الحلبيّ (ت725هـ)، ديوان أهنى المنائح في أسنى المدائح، مطبعة جريدة الشّورى، مصر، بلا تاريخ.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ):
أ- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرين، ط1، دار الفكر، دمشق، 1998م.
ب- الغيث المسجم في شرح لاميّة العجم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1975م.
ج- نَكْت الهمْيان في نُكَت العميان، تحقيق: أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية، مصر، 1911م.
د- الوافي بالوفيات، باعتناء ديدرينغ، ط2، فرانز شتاينر- فيسبادن، 1982م.
- الصقاعيّ، فضل الله بن أبي الفخر (ت726هـ)، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سوبله، المعهد الفرنسي، دمشق، 1974م.
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد (ت322هـ)، عيار الشّعر، تحقيق: عبد العزيز المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985م.
- طلائع بن رُزّيك (ت556هـ)، ديوانه، تحقيق: محمد هادي الأميني، ط1، المكتبة الأهلية، النجف، 1964م.
- ظافر الحدّاد (ت529هـ)، ديوانه، تحقيق: حسين نصار، ط1، مكتبة مصر، القاهرة، 1969م.
- العاملي، محمد بهاء الدين (ت1031هـ)، الكشكول، ط1، دار الكتاب اللبناني، 1983م.
- ابن عبد الظّاهر، محيي الدين (ت692هـ)، الروض الزّاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976م.
- عبد المنعم الجليانيّ (-600هـ)، ديوان المبشرات والقدسيّات، جمع وتحقيق ودراسة: عبد الجليل عبد المهدي، ط1، دار البشير، عمان، 1989م.
- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت660هـ):
أ- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، 1988م.
ب- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1968م.

- عرقلة الكلبيّ، حسّان بن نمير (567هـ)، ديوانه، تحقيق: أحمد الجنديّ، دار صادر، بيروت، 1992م.
- ابن عساكر، علي بن الحسن (ت571هـ)، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، 1995م.
- عماد الدين الأصفهاني، محمد بن محمد (ت597هـ):
أ- البرق الشامي، ج3، تحقيق: مصطفى الحياري، ط1، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، 1987م.
ب- خريدة القصر وجريدة العصر:
- قسم شعراء الشّام، تحقيق: شكري فيصل، ط1، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1955م.
- قسم شعراء العراق، تحقيق: محمد بهجة الأثري، وزارة الإعلام العراقية، بلا تاريخ.
- قسم شعراء مصر، تحقيق: أحمد أمين ورفيقيه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951م.
- قسم شعراء المغرب، تحقيق: محمد المرزوقي وآخرين، الدار التونسية للنشر، 1966م.
ج- ديوانه، تحقيق: ناظم رشيد، جامعة الموصل، 1983م.
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، بلا تاريخ.
- عمارة اليمني، نجم الدين بن أبي الحسن (ت569هـ)، النكت العصريّة في أخبار الوزراء المصريّة، اعتنى بتصحيحه: هرتويغ درنبرغ، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991م.
- ابن عُنين الأنصاريّ، أبو المحاسن محمد (ت630هـ)، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، ط2، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.
- فتيان الشّاغوريّ (ت615هـ)، ديوانه، تحقيق: أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1976م.
- ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم (ت807هـ)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1942م.
- أبو فراس الحمدانيّ، الحارث بن سعيد (ت357هـ)، ديوانه، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط1، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1983م.
- أبو الفرج الأصفهاني (ت356هـ)، الأغاني، تحقيق: عبد الستار فرج، الدار التونسية، تونس، دار الثقافة، بيروت، 1983م.

- فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، تحقيق: زياد العسلي، ط1، دار الشروق، عمّان، 1990م.
- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر (ت874هـ)، الكواكب الدريّة في السِّيرة النوريّة، تحقيق: محمود زايد، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م.
- القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي (ت596هـ)، ديوانه، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، ط1، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1961م.
- ابن قتيبة الدينوريّ، عبد الله بن مسلم (276هـ)، الشّعر والشّعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1958م.
- ابن قسيم الحموي، مسلم بن الخضر (-542هـ)، ديوانه، جمع ودراسة وتحقيق: سعود عبد الجابر، ط1، دار البشير، عمان، 1995م.
- ابن قلاقس، أبو الفتح نصر الله (ت567هـ)، ديوانه، تحقيق: سهام الفريح، مكتبة دار العروبة، الكويت، 1979م.
- ابن القلانسيّ، حمزة بن أسد (-555هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، ط1، دار حسّان، دمشق، 1983م.
- القلقشنديّ، أحمد بن علي (ت821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وضبط نصوصه: محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.
- ابن القيسرانيّ، محمد بن نصر (ت548هـ)، شعره، جمع وتحقيق ودراسة: عادل جابر، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأردنية، 1987م.
- الكتبيّ، محمد بن شاكر (ت764هـ):
أ- عيون التاريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة داود، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، 1977م.
ب- فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1973م.
- ابن كثير، أبو الوفا الحافظ (ت774هـ)، البداية والنهاية، دقّق أصوله وحقّقه: أحمد أبو ملجم وآخرون، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

- المتنبي، أحمد بن الحسين (ت354هـ)، ديوانه، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 1986م.
- المرزوقي، أحمد بن محمد (ت421هـ)، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991م.
- مسلم النيسابوريّ، أبو الحسن مسلم بن الحجاج (ت261هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، بلا تاريخ.
- ابن مطروح، يحيى بن عيسى (-650هـ)، شعره، جمع وتحقيق ودراسة: جودت أمين علي، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة القاهرة، 1976م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ):
أ- إغاثة الأمّة بكشف الغمّة، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، وجمال الدين الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1940م.
ب-السّلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ط2، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1957م.
ج- كتاب المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1991م.
- المنقري، نصر بن مزاحم (ت212هـ)، وقعة صفين، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1990م.
- ابن منير الطرابلسيّ، أبو الحسين أحمد (ت548هـ)، ديوانه، جمعه وقدّم له: عمر تدمري، ط1، دار الجيل، بيروت، 1976م.
- الميداني، أحمد بن محمد (ت518هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط3، دار الفكر، بيروت، 1972م.
- النابغة الذبياني، ديوانه، جمعه وشرحه: محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للنشر، جانفي، 1976م.
- ابن النبيه، علي بن محمد (ت619هـ)، ديوانه، تحقيق: عمر الأسعد، ط1، دار الفكر، ؟، 1969م.

- النّعيميّ، عبد القادر بن محمد (ت927هـ)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، دمشق، 1988م.
- ابن واصل، محمد بن سالم (ت697هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، بلا تاريخ.
- الوهرانيّ، ركن الدّين محمد (ت575هـ)، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان، ومحمد نغش، دار الكاتب العربيّ للطباعة والنشر، القاهرة، 1968م.
- ياقوت الحمويّ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت626هـ):
  أ- معجم البلدان، الطبعة الأخيرة، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، بلا تاريخ.
  ب- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1979م.
- اليونيني، موسى بن محمد (ت726هـ)، ذيل مرآة الزّمان، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، 1961م.

ثالثاً: المراجع الحديثة:

- إبراهيم السعافين، مدرسة إحياء التراث، ط1، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، 1981م.
- إبراهيم طرخان، النّظم الإقطاعيّة في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1968م.
- إحسان عباس، تاريخ بلاد الشّام في عصر المماليك، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، 1998م.
- أحمد أحمد بدوي، الحياة العقليّة في عصر الحروب الصّليبيّة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، بلا تاريخ.
- أيمن فؤاد سيّد، الدّولة الفاطميّة في مصر (تفسير جديد)، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1992م.
- بدوي طبانة، السّرقات الأدبيّة، دار الثقافة، بيروت، 1986م.
- بكري شيخ أمين، مطالعات في الشّعر المملوكيّ والعثمانيّ، ط3، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م.
- جمال الدين الألوسي، أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبيّة، مطبعة أسعد، بغداد، 1967م.

- جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبيّ على مصر (هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفاوسكور)، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدّولة الفاطميّة، ط3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964م.
- خير الدين الزركليّ، الأعلام، ط8، دار العلم للملايين، بيروت، 1989م.
- داود الأنطاكي، تزيين الأسواق في أخبار العشّاق، مكتبة الهلال، بيروت، بلا تاريخ.
- د. سي. ميويك، المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبدالواحد لؤلؤة، ط2، دار الرشيد للترجمة والنشر، بغداد، 1987م.
- رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشّعر العربيّ – العصر المملوكيّ، رسالة ماجستير مخطوطة، الجامعة الأردنية، 1997م.
- رينيه ويلك وأوستن وارين، نظريّة الأدب، ترجمة: محيي الدّين صبحي، ط3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1985م.
- سعيد عاشور:

أ- المجتمع الإسلاميّ في بلاد الشّام في عصر الحروب الصليبيّة (ضمن كتاب: مؤتمر بلاد الشّام: تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر) الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1974م.

ب- المجتمع المصريّ في عصر سلاطين المماليك، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962م.

- شفيق الرّقب، الشّعر العربيّ في بلاد الشّام في القرن السّادس الهجريّ، ط1، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، 1993م.
- شوقي ضيف:

أ- عصر الدول والإمارات (مصر)، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1990م.

ب- الفّن ومذاهبه في الشّعر العربيّ، ط10، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.

- عبد الجليل عبد المهدي:

أ- بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة، ط1، دار البشير، عمان، 1989م.

ب- بيت المقدس في شعر الحروب الصليبيّة، (جمع وتحقيق وتقديم) دار البشير، عمان، 1989م.

- عبد السّلام المحتسب، القصائد المنصفات في الشّعر العربيّ (من العصر الجاهليّ إلى آخر العصر الأمويّ)، رسالة ماجستير مخطوطة، الجامعة الأردنية، 1992م.
- عبد العليم القباني، مع الشّعراء أصحاب الحرف، المؤسسة المصريّة العامّة للتأليف والنّشر، القاهرة، 1967م.
- عبد القادر الرّباعي، صور من المفارقة في شعر عرار، (ضمن كتاب: بحوث عربيّة مهداة إلى الدكتور محمود السّمرة)، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، 1996م.
- عبد القادر القط، في الشّعر الإسلاميّ والأمويّ، دار النهضة العربيّة، بيروت، 1987م.
- عز الدين إسماعيل، في الشّعر العباسيّ (الرؤية والفنّ)، ط1، المكتبة الأكاديميّة، القاهرة، 1994م.
- فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبيّة (العصر الفاطميّ والسّلجوقيّ والزنكيّ)، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988م.
- فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسيّ، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.
- فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكيّ الأوّل (قضايا المجتمع والفنّ)، دار المعرفة الجامعيّة، بيروت، 1993م.
- قحطان رشيد التميميّ، اتّجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجريّ، دار المسيرة، بيروت، بلا تاريخ.
- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربيّ، نقله إلى العربيّة: رمضان عبد التّواب، ط3، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.
- مأمون جرّار، أصداء الغزو المغوليّ في الشّعر العربيّ، ط1، مكتبة الأقصى، عمّان، 1983م.
- مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلاميّة، أصدرها باللغة العربيّة: أحمد الشنتاوي وآخرون، دار الفكر، ؟، بلا تاريخ.
- محمد زغلول سلام:
أ- الأدب في العصر الأيوبيّ، دار المعارف، مصر، بلا تاريخ.

ب- تاريخ النّقد العربيّ من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجريّ، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، بلا تاريخ.

- محمد محمد حسين:

أ- الهجاء والهجّاؤون في الجاهليّة، ط3، دار النهضة العربيّة، بيروت، 1970م.

ب- الهجاء والهجّاؤون في صدر الإسلام، دار النهضة العربيّة، بيروت، 1969م.

- محمد مصطفى هدارة، اتّجاهات الشّعر العربيّ في القرن الثاني الهجريّ، دار المعارف، مصر، 1981م.

- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشّعريّ (استرتيجيّة التّناص)، ط2، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، 1986م.

- محمد الهرفي، شعر الجهاد في عصر الحروب الصليبيّة، ط3، مؤسسة الرّسالة، بيروت، 1980م.

- محمود إبراهيم:

أ- حطّين بين أخبار مؤرّخيها وشعر معاصريها، ط1، دار البشير، عمان، 1987م.

ب- صدى الغزو الصّليبيّ في شعر ابن القيسرانيّ، ط2، دار البشير، عمان 1988م.

- محمود أبو الخير، الشّعر الشّامي في مواجهة الصليبيين، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة الأزهر، 1979م.

- محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ط1، دار الحمامي للطباعة، القاهرة، 1965م.

- محمود سالم محمد، أدب الصّنّاع وأرباب الحرف حتى نهاية القرن العاشر الهجريّ، دار الفكر، بيروت، 1993م.

- محمود السرطاويّ، نور الدين زنكي في الأدب العربيّ (في عصر الحروب الصليبيّة)، ط1، دار البشير، عمان، 1990م.

- مصطفى زايد، النّثر الفنيّ في عهد الدّولتين الزّنكيّة والأيوبيّة بمصر والشّام، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأردنيّة، 1993م.

- نزار اللبدي، صورة فنّ الحرب في أدب الدّولتين الزنكيّة والأيوبيّة بمصر والشّام، رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الأردنيّة، 1992م.

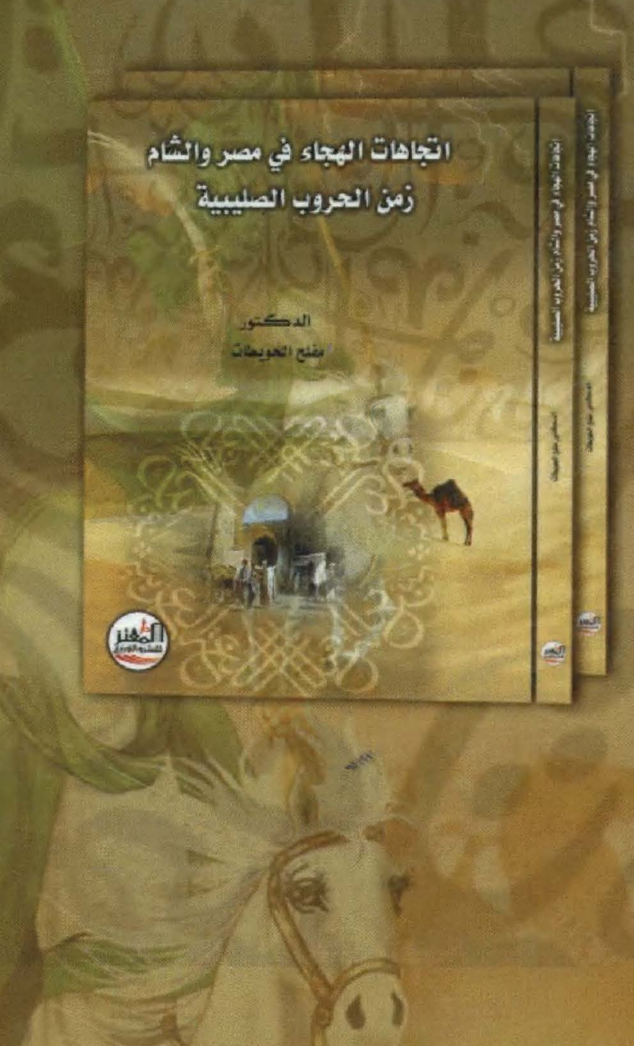
- نورثرب فراي، تشريح النّقد، محاولات أربع. ترجمة: محمد عصفور، منشورات عمادة البحث العلميّ، الجامعة الأردنيّة، عمان، 1991م.
- هنرييت سابا، اتّجاهات الشّعر العربيّ في القرن السّابع الهجريّ في بلاد الشّام، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة القاهرة، 1980م.
- يوسف غوانمة، إمارة الكرك الأيوبيّة، دار الفكر، عمّان، بلا تاريخ.

رابعاً: الدّوريات:

- إحسان عباس، نماذج من القصيدة القصيرة في الشّعر العربي الحديث، جريدة الدستور الأردنية، ع9188، عمان، 19 آذار 1993م.
- حلمي الكيلاني:
أ- الخطر الصّليبيّ: أبعاده ومقاومته (من خلال شعر معاصريه)، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، م10، ع2، جامعة مؤتة، 1995م.
ب- الغربة في شعر أسامة بن منقذ، مجلّة مؤتة للبحوث والدراسات، م8، ع2، جامعة مؤتة، 1993م.
- خالد سليمان، نظريّة المفارقة، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، م9، ع2، جامعة اليرموك، 1991م.
- سامح الرواشدة، المفارقة في شعر أمل دنقل، مجلّة دراسات (السلسلة: أ: العلوم الإنسانية، م22 (أ)، ع6 (الملحق)، الجامعة الأردنية، عمان، 1995م.
- شفيق الرّقب:
أ- ظاهرة الحزن في شعر أسامة بن منقذ، مجلّة دراسات، العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، م24، ع2، الجامعة الأردنيّة، 1997م.
ب- النزعة الاجتماعيّة في شعر البوصيريّ، مجلّة مؤتة للبحوث والدراسات، م10، ع2، جامعة مؤتة، 1995م.
- عبد الكريم حتاملة، صلاح الدّين وموقفه السّياسيّ من أمراء الشّام بعد وفاة نور الدين زنكي، مجلّة أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، م1، ع2، 1985م.

- عبدالله المهنا، إبراهيم المعمار شاعر العامة في عصر المماليك: دراسة في الشاعر وشعره، المجلّة العربية للعلوم الإنسانيّة، ع58، السنة 15، جامعة الكويت، 1997م.
- محمد رجب النّجار، الشّعر الشّعبيّ السّاخر في عصور المماليك، مجلّة عالم الفكر، م13، ع3، وزارة الإعلام، الكويت، 1982م.
- مصطفى عليان، صورة البطل والتصوّر الإسلاميّ في شعر الحروب الصّليبيّة، مجلّة دراسات، العلوم الإنسانيّة والتراث، م11، ع4، الجامعة الأردنية، 1984م.
- ناظم رشيد، الأدب عند بني أيوب، مجلة المورد، م5، ع3، وزارة الإعلام العراقيّة، خريف 1976م.
- نبيلة إبراهيم، المفارقة، مجلة فصول، م7، ع 3+4، القاهرة، 1987م.







دار المعتز للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - شارع الملكة رانيا العبدالله - الجامعة الأردنية
مقابل كلية الزراعة عمارة رقم ٢٣٣ الطابق الأرضي
تلفاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٣٧٣٠٣٥ ص.ب: ١٨٤٠٣٤ عمان: ١١١١٨ الأردن
e-mail: daralmuotaz.pup@gmail.com

